د . بیریل سمالی

المؤرخون في العصور الوسطى

ترجمة الدكتورقلهم عبره قباسم

أسناذ تاريخ العصور الوسطى . ورئيس قسم التاريخ كلبة الأداب – جامعة الزقازيق

الطبعة الثانية



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل- القاهرة ج . م . ع .

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية، من الترجمة العربية، لكتاب بيريل سمال؛ المؤرخون في العصور الوسطى. ومنذ ظهرت الطبعة الأولى .. قبل ثلاث سنوات ـ لم يحدث أن ظهر كتاب في هذا الموضوع باللغة العربية. ولست أظن أنه يمكن لباحث عربى أن يكتب شيئا عن التدوين التاريخي في أوربا العصور الوسطى دون أن يكرس لذلك العمل شيئا عن التدوين التاريخي في أوربا العصور الوسطى دون أن يكرس لذلك العمل شطرا كبيرا من حياته، وربما يأتي النتاج في النهاية إخفاقا في فهم روح الثقافة الأوربية في العصور الوسطى على نحو ما يفعل المستشرقون في كثير من الأحيان عندما يفشلون في فهم الثقافة العربية الاسلامية. ومن ثم؛ فإننا نرى أن الوسيلة المثلى لتعريف القارئ العربي بخصائص هذا التراث الأوربي، هي ترجمة مؤلفات الأوربيين ذات المستوى الممتاز والطابع الراقي.

وفي هذه الطبعة زيادات طفيفة في تعليقاتي التي أحاول بها شرح بعض الغموض في النص الذي يخاطب القارئ الأوربي أساسا، فضلا عن بعض التعديل في صبياغة الجمل العربية والتراكيب اللغوية في محاولة منى لوضع لغة عربية سهلة يستمتع بها القارئ كما لو كانت هي لغة التأليف الأصلى. وإنني إذ أقدم هذه الطبعة لأبناء وطننا العربي أرجو أن تكون مساهمة مفيدة _ على الرغم من تواضعها _ على طريق البحث والمعرفة، والله الموفق والمستعان.

الهرم ۱۸ مارس ۱۹۸۶م

قاسم عبده قاسم

بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْنِ ٱلرَّحِيمِ تعتبيم

من المسلم به أن التاريخ ـ كنشاط اجتماعى له وظيفته المحددة ـ يبدأ مع بداية الوجود الانسانى نفسه. وقد وجد التاريخ فى شكله الجنينى منذ بدأ الانسان يسجل شيئا عن ماضيه بطريقة أو بأخرى مبتكرا بذلك معرفة جديدة قدر لها أن تساهم فى بناء الفكر والحضارة الانسانية. ولم تخلف لنا الفترة الباكرة فى التاريخ الانسانى أية مصادر تاريخية أدبية، مما جعل البعض يستخدم مصطلح «ما قبل التاريخ» للدلالة على تلك الفترة الغامضة المحيرة التى شهدت بدايات التطور الحضارى البشرى، إلا أن جهود علماء الآثار كشفت النقاب عن معظم خبايا هذه الفترة، مما جعل استخدام هذا المصطلح المضلل أمرا غير مقبول ولا منطقى. ولعل من الافضال أن نستخدم مصطلح «ما قبل التاريخ المكتوب» للدلالة على تلك الفترة.

ذلك أن الانسان سجل تاريخه _ حتى قبل اختراع الكتابة _ من خلال ما خلفه من رسوم ساذجة على جدران الكهوف التى عاش فيها. وهو ما يعنى أن التدوين التاريخى قديم قدم الحياة البشرية وأنه يعود في أصله إلى أى تسجيل للنشاط الانسانى مهما كان شكله. ومن ناحية أخرى، تعتبر الاسطورة هى الاب الشرعى للتاريخ. فقد ولد التاريخ من ضلع الاسطورة، ونما وترعرع في رحابها. وإذا كان التاريخ، من حيث هو سجل للماضى الحضارى الانسانى، قد بدأ مع بداية الوجود الانسانى نفسه، فإنه كان أنذاك موغلا في ضبابية الغموض والخيال بشكل جعل بعض الباحثين يصفون الكتابات التاريخية الأولى بأنها «أوسع الاساطير وأكثرها جرأة». والواقع أن الكتابات التاريخية الأولى لم تكن في حقيقة أمرها سوى كتابات أواخر عصر الاسطورة التى كانت وظيفتها الفكرية _ الاجتماعية ترقيع النقص والنسيان في ذاكرة الارمنة الماضية مستعينة بالخيال لتعويض النقص الناتج عن الجهل بالحقيقة. كما أن الاسطورة _من ناحية أخرى _ تعتبر بمثابة المحاولة الأولى لتفهم الترتيب الزمنى للخلق والاحداث؛ أي أنها محاولة بدائية لخلق علم كوني يهتم بالكون بأسره، ولا يقتصر على الأرض فقط. كما أنها محاولة لتتبع أنساب الآلهة والبشر. وهكذا تتوه البدايات الأولى للمعرفة التاريخية بين الأسطورة والدين.

ولكن يبقى السؤال مطروحا: لماذا سعى الانسان إلى المعرفة من خلال الأسطورة التى خلق التاريخ في رحمها؟ الواقع أن الرغبة في الكشف عن لغز الوجود الانساني وأصوله من ناحية، وأصول العادات والتقاليد وغيرها من ظواهر الحاضر من ناحية أخرى، هى التى دفعت الانسان منذ القدم ـ ولا تزال تدفعه حتى اليوم ـ إلى محاولة فهم حاضره من خلال ماضيه. وبذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن للتاريخ ضرورة اجتماعية. فالقبيلة البدائية التى تعيش في عزلة نسبية تحاول الكشف عن تراثها لابراز بطولات الأجداد ومأثرهم. بينما يسعى المجتمع الاكثر تعقيدا في تركيبه إلى تحقيق معرفته بذاته من خلال التفتيش في الماضي التعرف على شخصية المجتمع وهويته، واصول المشكلات التى تواجهه. وهو الأمر الذي يفسر لنا ـ ويبرر إلى حد ما ـ السبب في توجيه الأطفال المصريين إلى دراسة التاريخ المصرى، والانجليز إلى دراسة التاريخ المدين، والانجليز إلى دراسة التاريخ المدين. وحدان الأطفال.

كان التاريخ _ ولايزال _ هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هذا الهدف، بيد أن التطورات التى مرت به _ منذ كان وليدا يحبو في حجر الأسطورة، حتى أصبح علما هائما بذاته تخصص له الأقسام الأكاديمية والكراسي في الجامعات _ جعلت البعض يحاولون من حين لآخر تتبع هذا التطور من خلال الكتب التي الفوها في تاريخ التاريخ.

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا واحد من هذه الكتب، إذ أنه يقدم محاولة جادة ومتعمقة لدراسة التدوين التاريخي في غرب أوربا في العصور الوسطى، بيد أنه يتوقف عند نهاية القرن الثالث عشر.

ومؤلفة الكتاب هي الدكتورة بيريل سمالي Dr. Beryl Smalley التي تعتبر من علماء تاريخ العصور الوسطى البارزين، وكانت تشغل من قبل منصب وكيل كلية سانت هيلدا St. Hilda بأوكسفورد، ومن بين مؤلفاتها في تاريخ العصور الوسطى كتاب عن دراسة الكتاب المقدس في العصور الوسطى The Study of the Bible in the Middle دراسة الكتاب المقدس في العصور الوسطى Ages»

«The Becket conflict and the schools: a study of intellectuals in politics in the twelfth century.»

وقامت المؤلفة باستعراض تطور التدوين التاريخى فى أوربا العصور الوسطى منذ أواخر عصر الامبراطورية الرومانية، مشيرة إلى أن التفاعل بين التراث الروماني، والتراث الجرماني من ناحية، وظروف الحياة الجديدة فى أوربا العصور الوسطى من ناحية أخرى، خلقت أنماطا جديدة من الكتابة التاريخية

جاءت تلبية لمتطلبات المجتمع الجديد.

وما يميز هذا الكتاب أنه يستعرض تطورات الكتابة التاريخية في ضوء التطورات الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية والسياسية التي جرت على أرض الواقع الأوربي في العصور الوسطى، وما خاضته بلدان الغرب من حروب وصراعات دموية، أو نزاعات عقائدية. ولا حاجة بنا في هذه المقدمة إلى ترديد ما ذكرته المؤلفة في ثنايا كتابها، وحسبنا أن نقرر هنا أن هذا الكتاب _ وهو الأول في موضوعه باللغة الانجليزية على ما نعلم _ يقدم زادا طيبا لمن يهتمون بدراسة تاريخ العصور الوسطى من الناطقين بالضاد، كما أنه يقدم نموذجا جديرا بأن يحتذى في الكتابة عن تاريخ التدوين التاريخي. وقد حرصت على تقديم هذه الترجمة في أسلوب عربى خالص بقدر ما أمكنني، كما قدمت التعليقات والهوامش التوضيحية حيثما أحسست بالحاجة إلى

ويجدر بى أن أرجع الفضل لأهله؛ فأتوجه بالشكر إلى الصديق الأستاذ الدكتور على الغمراوى أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس لما قدمه من تشجيع ونصائح علمية قيمة، وإلى الصديق الدكتور/محمد خليفة حسن مدرس الأديان المقارنة بجامعة القاهرة لتفضله بمراجعة بعض فصول الكتاب.

والله الموفق والمستعان الهرم ٥ يوليو ١٩٧٨

دكتور/قاسم عبده قاسم

مقدمة المؤلفة

يهدف هذا الكتاب إلى مساعدة الطلاب وعامة القراء على الاستمتاع بقراءة تواريخ ومدونات العصور الوسطى. وسوف استخدم مصطلح «التدوين التاريخي ومدونات العصور الوسطى historiography » للدلالة على الكتابات التاريخية. إذ كان كتاب العصور الوسطى يميزون بين عدة موضوعات؛ فقد كان «التاريخ history» يعنى شيئا، وكانت «المدونة التاريخية chronicle تعنى شيئا آخر، على حين كانت الأشكال العديدة التى اتخذتها كتابة التراجم biography تدل على شيء غيرهما. وينبغى أن نشير إلى أن تاريخ الكتابة التاريخية دراسة مستحدثة إلى حد ما، فقد درج المؤرخون المحدثون على قراءة كتب قدامى المؤرخين باعتبارها مصادر يتعرفون من خلالها على الحقائق والآراء والمواقف التاريخية. ولا يرزل هذا هو موقفنا من الكتابات القديمة. ويرجم الفضل إلى كروتشه (۱) وتلاميذه في وضع تاريخ التاريخ على خريطة الدراسات الأكاديمية. وفي هذا كروتشه أحاول الكشف عن الأهداف التى كان مؤرخو العصور الوسطى يسعون اليها، كما أننى سأحاول التعرف على كيفية تطور فن التدوين التاريخي عبر العصور.

ولابد لنا فى البداية أن نتعرف على الظروف والأحوال المادية التى كان مؤرخو لعصور الوسطى يعملون فى ظلها. كما ينبغى أن نعرف ماهية الكتب التى كانوا قرأونها وكيف أثرت قراءاتهم فى تشكيل عقلياتهم كمؤرخين. وأجد نفسى مضطرة إلى لاختيار المتعسف فى استعراضى للمؤرخين؛ إذ كان على أن أغض البصر عن الكثيرين

⁽¹⁾ Benedetto Crocé (۱) فيلسوف إيطالى، ومن اشهر الفلاسفة الذين اهتموا مسئلة العلاقة بين الفلسفة والتاريخ، وكان هذا المؤرخ الفيلسوف قد تولى وزارة التربية بإيطاليا سنة ٢ – ١٩٢٢، وبعد استيلاء موسوليتى على الحكم اتخذ كروتشه موقفا معاديا من الحكم الفاشى مما رضه لبعض المتاعب. وبعد سنة ١٩٤٧ أسس «المعهد الايطالى للدراسات التاريخية الشهر مؤلفاته tlatiano di studi Storic ». كتب في الفلسفة، والتاريخ وعلم الجمال وتاريخ التاريخ، اشهر مؤلفاته تاب «فلسفة الروح Filosofia delle Spiritu» الذي ضمنه أراءه في هذا المجال. ومن أهم آرائه أنه تكر فلسفة التاريخ على أساس أن التاريخ فلسفة وأن الفلسفة تاريخ. وهو يرى أن المعاصرة هي ساس الكتابة التاريخية لان الحكم التاريخي في لحظة تولده إنما يكون نتيجة لاهتمام المؤرخ بالحياة حاضرة، كما يرى أن الحوادث الماضية لا توجد إلا حين يفكر فيها المؤرخ. وفي هذه اللحظة توجد ضميح معاصرة بالنسبة للمؤرخ. أي أن التاريخ كله معاصر.

من مشاهير المؤرخين القدماء. ومن ناحية أخرى، فإننى حصرت دراستى للتدوين التاريخى في حدود المنطقة التى تمتد ما بين بحر الشمال وجبال البرانس ونابولى، مع استثناء واحد من بولندا. ومن الناحية الزمنية، تدخل فترة الحروب الصليبية في إطار الدراسة لا سيما وأن المملكة اللاتينية في بيت المقدس كانت أشبه ٣ب «فرنسا ما وراء البحار». وقد استبعدت «التراجم الذاتية وما لاقوه من آلام، لأن التراجم الذاتية في العصور الوسطى كانت من الندرة بحيث لا تصلح موضوعا للدراسة، الذاتية في العصور الوسطى كانت من الندرة بحيث لا تصلح موضوعا للدراسة، كما أن سير القديسين، من جهة أخرى، كثيرة بدرجة تجعلها تستحق أن تفرد لها صفحات كتاب مستقل. وأمل أن أكون قد وفقت في صياغة فكرة ما عن مدى الثراء والتنوع المحير في مجال التدوين التاريخي في العصور الوسطى. وربما يظن والتخصصون أنني أولى اهتماما كبيرا بالفلتات الشاذة، بيد أن الدارس يمكن أن يصوب هذا الظن من خلال تصفحه السريع للحوليات والمدونات العادية المستوى. ذلك يحثونه على قراءة أعمال المؤرخين العاديين.

القصىل الأول

ظروف الكتابة التاريخية في العصور الوسطى(١)

ترى ما هى الدوافع التى حدت بالناس إلى كتابة التواريخ والمدونات فى العصور الوسطى؟ هذا ما سوف نحاول الاجابة عنه فى سياق هذا الكتاب. وللحيلولة دون سوء الفهم، فسوف أبدأ باستبعاد الدوافع المسلم بها فى أيامنا هذه. إذ أن التدويين التاريخى المعاصر قد اتخذ سمة تجارية؛ ذلك أن الكتاب المدرسى، أو الكتاب الذى يعالج موضوعا مبتذلا ابتغاء الكسب المادى، يدر على مؤلفه قدرا من المال قد ينفقه فى أحد وجوه المتعة، أو يضيفه إلى رصيده. أما العمل الذى يتخذ صفة البحث العلمى فإنه يساعد مؤلفه على التنافس من أجل المناصب فى سوق العمل. وفى داخل هذا الاطار تأتى متعة الكتابة والارتباط بها؛ إذ أن زمن الباحثين الهواة قد ولى إلى غير رجعة. وفى العصور الوسطى لم يكن التأليف يدر مالا على من يشتغلون به.

ويكشف لنا تاريخ إنتاج الكتاب في العالم القديم عن حقيقة مؤداها أن الكاتب لم يكن يجنى أية فوائد مباشرة من كتابه، رغم أنه يستطيع أن يعول على جمهوره من القراء في الأوساط الأرستقراطية والبورجوازية. حقيقة أن العصور القديمة قد عرفت ناشرى الكتب وبائعيها الذين مارسوا مهنتهم في مدن العالم القديم، ولكن ارتفاع تكاليف النسخ آنذاك لم تكن تجعل من المكن اقتسام الربح الضئيل الناتج عن الكتاب بين الناشر والمؤلف، وكان الكاتب الموسر يملى كتابه على أحد العبيد المتمرسين على أعمال النسخ، وتكتب بهذه الطريقة عدة نسخ يتم توزيعها وتداولها على حسابه الخاص. أما المؤلف الأقل ثراء، فكان يعهد بكتابه إلى أحد الناشرين الذي قد يعطيه مبلغا زهيدا من المال مقابل المخطوطة، ولكن من المرجح أن المؤلف هو الذي كان يدفع قدرا من المال في سبيل نشر كتابه. وفي ذلك الحين لم تكن حقوق الطبع أو نسبة المؤلف من ثمن الكتاب معروفة. إذ كان الكتاب يظل ملكا للمؤلف طالما كان في حوزته، فإذا ما عهد به إلى أحد الناشرين صار حرا كالهواء. ورغم أن الشخص الذي كان ينتحل لنفسه مؤلفات الغير كان يتعرض للسخرية واللوم إذا ما اكتشف أمره؛ فإن المؤلف للضحية لم يكن يتمتع بالحق القانوني في التعويض. وربما كان المؤلفون يأملون في الضحية لم يكن يتمتع بالحق القانوني في التعويض. وربما كان المؤلفون يأملون في الضحية لم يكن يتمتع بالحق القانوني في التعويض. وربما كان المؤلفون يأملون في

⁽۱) عنوان هذا الفصل كما كتبته المؤلفة conditions وقد اخترت أن أترجم العنوان على هذا النحو لكى يدل على مضمون الفصل بشكل أكثر وضوحا.

المكافأة غير المباشرة من خلال الحماية التي كان يسبغها عليهم الأثرياء والأعيان الشغوفون بترصيع حاشياتهم بالموهوبين من الكتاب. بيد أن ثمة عيب كان يشوب الحماية وهو أن بقاءها كان مرهونا بالظروف، كما كانت تحط من قدر المؤلف. وفي العصور القديمة كان رجل الدولة المتقاعد هو نموذج المؤرخ الأمثل؛ ذلك أن مثل هذا الرجل بما يتوفر لديه من موارد تكفيه، والذي ترك الحياة العامة إما ضجرا منها أو تحت وطأة الظروف المعاكسة، كان يجد لديه من وقت الفراغ الإجباري ما يجعله يكرس نفسه للكتابة كوسيلة محمودة لقضاء هذا الوقت، وكان التاريخ الذي يكتبه رجل من هذا الطراز يتخذ أحيانا شكل المذكرات، أو يتركز حول تاريخ فترة بعينها أحيانا أخرى، وفي أي من الحالين لم يكن المؤلف يكتب سعيا وراء الكسب، إذ كان يمتلك من موارد الثروة ما يغنيه عن ذلك. وتبرز أسماء سالست (۱۲)، وتاكيت وس (۱۳).

Harry Almer Barnes, A hist, of historical Writing (2nd. ed. Dover, New York, 1963), pp. 37 - 39.

انظر أيضا المقدمة التي كتبها ماتنجل H. Lattingly للترجمة الانجليزية لكتابيه «الفلاح والجرمان». تحت عنوان:

The agricola and the Germania, Penguin classics, 1970

وكذلك: Kenneth Wellesley في مقدمة الترجمة الانجليزية «للتواريخ» (Penguin 1974) (٤) فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus (٣٧ ـ ١٠٥م) اسمه الأصلى «يوسف بن ماتياس» ولكنه اختار لنفسه الاسم الذي اشتهر به كمن يتخذ لنفسه اسم السيد اعتقه. أعدته ظروف -

⁽۲) جايوس سالستيوس كريسبوس Gaius Sallustius Crispus (۲) مؤرخ رومانى شهير مؤلفه الرئيسى عن تاريخ روما، وهو يغطى السنوات من ۷۸ إلى ۲۷ ق.م، وهو مفقود. ومن خلال الرسالتين التاريخيتين اللتين كتبهما عن «مؤامرة كاتيلينا» «والحرب اليوجورتية» يمكن للمرء تقييم أسلوبه المميز وقدرته على تحليل الشخصيات والقوى التاريخية، ويتميز سالست بنزاهته، وقدرته الفائقة على رسم وتحليل مشاهد الحصار والمعارك وكان له تأثيره الكبير على كتاب الرسائل التاريخية في العصور الوسطى كما سيتضح في الصفحات التالية.

⁽٣) بوبليوس كورنيليوس تاكتيوس Publius Cornelius Tacitus (٥٥ ـ ١٢٠ م تقريبا) شق حياته في السلك السناتورى العادى، مما جعله من انصار الجمهورية وتميزت كتاباته بالتحييز ضد الامبراطورية، إذ كان يكتب معبرا عن موقف الطبقة السناتورية وحنينها إلى المؤسسات الجمهورية القديمة، رغم أنه يعترف بأن ضعف الجمهورية هو الذى أودى بها. أهم مؤلفاته «الحوليات»، «والتمواريخ»، وتتناول «الحوليات الفترة ما بين موت اوغسطس حتى سنة ٦٩ ميلادية. أما «التواريخ» فيبدأ بالأزمة التى حدثت سنة ٦٩ كما يغطى أحداث عصر الأباطرة الفلافيين، وبالاضافة إلى مؤلفاته التاريخية الخالصة، يعتبر كتابه عن الجرمان واحدا من أوائل الكتابات في علم الاجتماع الوصفى، لكونه المصدر التاريخي الشامل الوحيد عن عادات وتقاليد ومؤسسات الجرمان في تلك العصور _ انظر:

كان السعى وراء «الشهرة الذائعة» بمثابة العقيدة التى تغذى الدافع المحرك للمؤرخين القدماء الذين رأوا في هذه الشهرة مكافأة غير مباشرة لقاء ما يتجشمون من عناء.

وفي العصور الوسطى، في الفترة ما بين سنة ٨٠٠ وسنة ١٢٠٠ تقريبا ارتفعت تكاليف إنتاج الكتاب، إذ كانت لفافة البردى القديمة قد اختفت وحلت محلها جلود الرق الغالية الثمن والتي كانت تجهز على شكل (رزم) تخاط سويا، وكانت هذه تحتاج إلى غلاف متين يحفظها من التفكك. كذلك اختفى العبيد المتمرسون على أعمال النسخ، كما اختفى حانوت بيع الكتب الذي عرفه العالم القديم، وصار الكتاب بحد ذاته شيئا نفيسا، واتخذ تداوله شكل الهدايا أو التبادل أو البيع بأثمان باهظة. وفي ذلك الحين كانت حجرات النسخ scriptoria التي انتشرت في الأديرة والكاتدرائيات هي مراكز إنتاج الكتاب الرئيسية (٥). وفي بعض الأحيان كان الرهبان والقساوسة يستأجرون النساخين والفنانين المحترفين لنسخ المخطوطات وتوشيتها بالرسوم الترضيحية، لكنهم النساخين والفنانين المحترفين لنسخ المخطوطات وتوشيتها بالرسوم الترضيحية، لكنهم

حياته لكى يصبح سياسيا ومحاربا، وخطيبا، ومؤرخا. وقضى السنوات الباكرة من حياته في بلاده ثم زار روما سنة ٦٤ ـ وهى السنة التي وقف «نيرون» فيها يرقب السنة اللهب وهى تلتهم روما ـ زار البلاط الامبراطورى في المدينة التليدة، وحاز شهرة واسعة كفلت له أن يتولى حكم الجليل سنة ٢٦ بعد هزيمة كستيوس Cestius المتمردين اليهود. وبعدها سجنه فيسباسيان Vespasian ثم صار منذ ذلك الحين خادما للرومان في إخلاص شديد، وفي نهاية الحرب اليهودية صار مواطنا رومانيا ومن المقربين إلى الامبراطور حتى أن فيسباسيان منحه إيراد الأراضى التى صادرها من اليهود التعساء. وقد وصلتنا أربعة مؤلفات له هى: «الحرب اليهودية» التى تعد أكثر أعصاله إثارة، وهى أكثر المصادر التى تتعلق بتاريخ أهم فترات التاريخ الروماني كمالا، وقد كتبت في بداية الأمر باللغة الأرامية، ثم ترجمت إلى اليونانية، ولا يغيب عن الملاحظة أن العنوان يتشابه مع عناوين مؤلفات أخرى هى «الحرب البونية» أو «الحرب الغالية» بحيث يكشف كيف أنحاز المؤلف تماما إلى الجانب الروماني. والكتاب الثاني هو «أثار اليهود» بحيث يكشف كيف انحاز المؤلف تماما إلى معلومات تاريخية هامة رغم كابته، وقد كتب لنفسه ترجمة ذاتية يرد بها على ما شاع من أنه سبب الحرب اليهودية، وأخيرا كتابه الصغير «ضد أبيون» الذي يتناول تاريخ اليهود القديم لها من أنه سبب في الحرب اليهودية، وأخيرا كتابه الصغير «ضد أبيون» الذي يرد به على أحد الكتاب المعادين للسامية في الاسكندرية. ويصفه بعض الباحثين المحدثين بأنه «خائن جيروساليم» نظرا للدور المشين الذي قام به في الحرب اليهودية وانحيازه الكامل ضد بني جلدته ـ انظر:

Josephus, The Jewish War, (translated by, G.A Williamson), pp. 7 - 17); Barnes, op. cit., pp. 24 - ff

(المترجم)

(°) قامت الجماعات الديرية البندكتية في جميع أنحاء أوربا الغربية بتأسيس المدارس، والمكتبات، وتخصيص حجرات النسخ مما جعل التعليم في العصور الوسطى الباكرة ينحصر داخل إطار الكنيسة عموما والمؤسسات الديرية خصوصا. وكانت هذه الحركة تلبية للحاجات الاجتماعية الملحة إنذاك: إذ أنه بإنهيار الدولة الرومانية في الغرب، وتدهور المدن مساحة وعددا، وسكانا اختفت

غالبا ما كانوا يقومون بهذه الأعمال بأنفسهم، ونتيجة لانحصار التعليم في الأوساط الكنسية قل الاقبال على الكتب. ورغم أن الحماية كانت ما تزال معروفة، فإن معظم المؤلفين كانوا يكتبون بناء على تكليف أو بإذن من أحد رجال الكنيسة وليس إرضاء لواحد من الأمراء العلمانيين. كذلك استمر التأليف الثاريخي بقصد إنفاق وقت الفراغ. ومن ناحية أخرى، تراجع الحافز الشخصي بسبب ما كانت الكنيسة تدعو إليه من وجوب. التواضع، فلم يعد المؤرخ يكتب سعيا وراء الشهرة أو ذيوع الصيت.

والواقع أن مفهوم التأليف قد أهمل بشكل عام في ذلك العصر. إذ كانت كلمة «مؤلف» في العصور الوسطى تعنى «حجة». وبينما كان آباء الكنيسة يعتبرون مؤلفين ثقاة في مجال الأدب المقدس، كان الشعراء وكتاب النثر الكلاسيكيون هم أندادهم في مجال الأدب الدنيوى، أما خلفاؤهم في العصور الوسطى فقد اعتبروا مجرد كتاب وwriters أو جامعين compilers يفتقرون إلى ثقل الحجة authority.

وترتب على هذا أن انتقلت السرقة الأدبية إلى مصاف الفضائل بعد ما كانت تعد من الرذائل؛ فما كان ينبغى لأحد الكتاب أن يسطر بقلمه العاجز ما سبقت كتابته بطريقة أفضل، وكان المؤرخ الذى يسجل الأحداث المعاصرة له يجد نفسه مضطرا إلى قدر محدود من الأصالة فيعتذر لقرائه عنها. هذا الموقف المتغير من التأليف، أضفى على المؤلفات المجهولة المؤلف أهمية متزايدة، إذ أن الكاتب بات يفضل عدم ذكر اسمه أو يتستر وراء اسم أكبر لمؤلف عاش في الماضى. وتمثلت النتيجة في ذلك الكم الهائل من المؤلفات المجهولة المؤلف والعدد الكبير من المؤلفين ذوى الأسماء المستعارة في مجال الفكر والتعليم في العصور الوسطى. ولم يلبث التزييف أن لحق بالسرقة في مصاف الفضائل.

وجاء القرنان الثاني عشر والثالث عشر ليشهدا ثورة في ميدان إنتاج الكتاب؛ وهو

Norman F. Cantor, Medieval history, (2nd. ed. New York, 1969) pp. 166 - ff. (المترجم)

⁼ المدارس التى تشرف عليها الدولة والبلديات، كما أن المدارس الأسقفية، من ناحية أخرى تعرضت للذبول والتدهور في العصور الوسطى الباكرة بشكل مطرد نتيجة اعتمادها الكامل على الاساقفة الذين لم يكونوا في الغلب يهتمون بالأمور الثقافية. ويمكن القول أنه بطلوع شمس القرن التاسع انتشرت المدارس المزدهرة والمكتبات الكبيرة، وحجرات النسخ في الأديرة بشتى أنحاء أوربا الغربية، وثمة تقدير يقول إن حوالي ٩٠٪ من المتعلمين بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٠٠ تلقوا تعليمهم في المدارس الديرية ليد من المعلومات عن سيطرة الكنيسة على التعليم في العصور الوسطى انظر: على الغمراوى، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط (الطبعة الثانية)، القاهرة ١٩٧٧)، ص ٧١ ـ ص ٢٧؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ٣ج ٢، ص ١٢ ـ ص ١٩٠. انظر أيضا:

ما يمكن تفسيره في ضوء ازدياد الطلب على الكتب نتيجة لزيادة عدد المتعلمين، وتوفر الوقت اللازم القراءة. كذلك فإن اختراع النظارات حوالي سنة ١٣٠٠ أطال فترة القدرة على القراءة بالنسبة لكبار السن. وعاود الناشرون وبائعو الكتب الظهور لا سيما في المدن التي قامت بها الجامعات (١٠). وكان الناشر يستخدم المحترفين في حانوته لانتاج الطبعات الفاخرة بالطلب، إلا أنه كان يقوم في الوقت نفسه بإنتاج نسخ عادية لبيعها في حانوته. وابتكرت وسائل تسهيل العمل؛ إذ كان المجلد المراد نسخه يقسم إلى عدة أقسام أو «قطع»، على حد تعبير ذلك العصر، ثم توزع هذه القطع على عدة ناسخين يعملون فيها في أن واحد بحيث يتم إنجازها بسرعة أكبر، الأمر الذي يؤدى إلى إنتاج عدد من النسخ ذات القيمة الجمالية المتواضعة بحيث يستطيع عدد أكبر من الدارسين أن يشتروها. إلا أن حقوق النشر ونسبة المؤلف لم يتم إقرارها سوى بعد اختراع الطباعة. بيد أن تكاليف إنتاج الكتاب انخفضت وصار بمقدور المؤلف أن يصل إلى جمهور عريض.

ونتيجة لظهور المدارس والجامعات في العصور الوسطى، ظهرت مسألة حافز الربح الحرف؛ إذ كان بإمكان المدرس المرموق في تخصصه أن يجتنب أعدادا متزايدة من الطلاب. ولكن التاريخ لم يكن يدرس كمادة مستقلة سواء في العصور القديمة أو في العصور الوسطى؛ بل كان يدرس باعتباره ملحقا لمواد أخرى كما سنرى فيما بعد. ولم يكن باستطاعة أى طالب أن يسجل نفسه لدراسة التاريخ والامتحان فيه. وتتضح ضالة المكانة التى احتلها التاريخ في مجال التعليم في العصور الوسطى من خلال قائمة الكتب التي وضعتها سلطات جامعة باريس سنة ١٢٨٦ لحماية المدرسين والطلاب من استغلال المكتبات؛ وذلك بتحديد السعر الأقضى لكل كتاب في القائمة. وكانت القائمة تضم جميع الكتب التي كان المدرسون والطلاب يحتاجون إليها كقراءات أساسية في مناهج الدراسة، ومن بين حوالي مائة وأربعين كتابا يمكن أن نعتبر ثلاثة منها فقط كتبا تاريخية. وأول هذه الكتب موجز لتاريخ الكتاب المقدس مع إضافة محدودة من التاريخ الوثني، وضعه مدرس باريسي اسمه «بطرس كومستير» وكمان يستخدم القرن الثالث عشر، وقد عرف هذا الكتاب باسم «التاريخ المدرسي» وكمان يستخدم القرن الثالث عشر، وقد عرف هذا الكتاب باسم «التاريخ المدرسي» وكمان يستخدم القرن الثالث عشر، وقد عرف هذا الكتاب باسم «التاريخ المدرس» وكمان يستخدم القرن الثالث عشر، وقد عرف هذا الكتاب باسم «التاريخ المدرس» وكمان يستخدم القرن الثالث عشر، وقد عرف هذا الكتاب باسم «التاريخ المدرس» وكمان يستخدم

⁽٦) لزيد من المعلومات عن نهضة القرن الثاني عشر وظهور الجامعات انظر:
Philippe Wolff, The awakening of Europe (translated from French by Ann Carter, Penguin, 1968), pp. 216.ff

انظر أيضا: سعيد عاشور، المرجع السابق، ٣ج٢، ص ٩١ ــ ص ١٨٦ انظر كذلك: جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات، في العصور الوسطى، منشاة المعارف بالاسكندرية، ١٩٧١م

أحيانا في محاضرات اللاهوت للمبتدئين. أما الكتاب الثاني، فموضوعه أساطير القديسين. ويتناول الكتاب الثالث سير أباء الصحراء. ولما كانت مناهج دراسة اللاهوت تتضمن التدريب على الوعظ والتبشير ورعاية شعب الكنيسة؛ فقد كان الطالب محتاجا إلى دراسة هذه الموضوعات كجزء من إعداده لهذه المهمة. ولم تكن هناك موضوعات تتعلق بالتاريخ الوسيط فيما عدا سير بعض القديسين الذين عاشوا في العصور الوسطى مثل «توماس بيكيت» (٧)، وغيره ممن شملتهم دراسة أساطير القديسين. وتركت للطالب حرية اختيار الكتب التي يقرؤها في وقت فراغه، إذ لم يكن للجامعة شان بهذا.

كانت طريقة التدريس في ذلك الحين تختلف عن طريقتنا الحالية. ذلك أننا نفكر في ضوء ظروف الكلمة المكتوبة أو المسموعة على نطاق واسع، على حين كان كتاب العالم القديم والعصور الوسطى يتوقعون أن تقرأ كتبهم بصوب عال لحلقة من السامعين، وهي ممارسة قديمة تم إحياؤها في القرن الثاني عشر، وربما قبل ذلك. وكان المؤلف يضع في اعتباره - منذ اللحظة التي يبدأ فيها تأليف كتابه - الكيفية التي سيتم بها الاستماع إلى كتابه. وعادة ما كان يملي هذا الكتاب على أحد الأشخاص؛ إذ كان ينبغى للمرء أن يتجنب مزالق الانسياق وراء القلم إذا ما كان بمقدوره أن يستعين بأحد في الكتابة، ثم يقرأ الكتاب من جديد على المؤلف، أو يقرأه هـ و بنفسه لعمل التصويبات اللازمة؛ مع مراعاة أن الكتاب سوف يقرأ بصوت عال أثناء تداوله. وكان الكتاب في العصبور الوسطى يخاطبون جمهورهم باعتبارهم «قراء» و«مستمعين» في أن واحد، وكانت علامات الترقيم والوقفات توضع على هذا الأساس. فكتاب «التاريخ الكنسى » الذي كتبه «أوردريك فيتال Orderic Vital» مثلا، يحتوى على بعض الرموز والعلامات لبيان التغير في طبقات الصوت أثناء القراءة. بل إن الشخص الذي كان يقرأ لنفسه، كان ينطق الكلمات بصوت عال مستخدما يديه ف التعبير أثناء القراءة مما جعل القراءة الخاصة بمثابة تدريب عقلى وجسدى معا. ولسنا نعرف على وجه الدقة - بسبب افتقارنا إلى الأدلة - متى صار من المعتاد أن يجرى المرء بعينيه على

⁽۷) هو توماس بیکیت Thomas Becket (ت. ۱۷۷۰) الذی کان کبیر اساقفة کانتربوری فی عهد الملك الانجلیزی هنری الثانی (۱۱۵۶ ـ ۱۱۸۹)، ورغم أن هنری هو الذی اختار بیکیت لهذا المنصب إلا أن النزاع بینهما احتدم حول «الحریات الکنسیة»، ثم اسدل الستار علیه بمصرع بیکیت الماساوی علی ید اربعة من فرسان الملك الذین غضبوا لسیدهم. وقد آثار مقتل کبیر الاساقفة الرای العام ضد الملك، واعتبر بیکیت قدیسا وشهیدا.

انظر: نورمان ف كانتور، التاريخ الوسيط - قصة حضارة: البداية والنهاية (تـرجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم - دار المعارف ١٩٨٣م)، جـــ، ص٦٣٦ - ص٦٣٩.

السطور. وعلينا الآن أن نتناول بالدراسة أولئك الكتاب الذين كانوا يخاطبون جمهورهم مشافهة، الأمر الذى يوضح ويفسر الكثير مما نراه غريبا فى مؤرخى العصور الوسطى. فالكاتب الذى يخاطب الأذن لابد وأن يلجأ إلى كل حيلة ممكنة ليحوز رضاء سامعيه ويجتذب انتباههم. وسواء كان يخاطب جمهوره مباشرة أو كان يتخيل أن أحدا غيره سوف يقرأ كتابه، فإنه كان يتوخى التأثير البلاغى فى مستمعيه. وغالبا ما كان مؤرخو القرنين الحادى عشر، والثانى عشر، يستخدمون النثر المسجوع، وينساقون بسهولة إلى منزلق الشعر. ولا يستطيع أمهر المترجمين من اللاتينية إلى الانجليزية أن يتجنب الوقوع فى فخاخ الرتابة، لأن الايقاعات الأصلية التى توخاها المؤلف لن تبدو واضحة فى الترجمة.

وكان للاقتراب المباشر من الجمهور تأثيره على مضمون الكتاب بقدر ما كان له تأثيره على شكله. ذلك أن القارىء الذى لا نراه قد يغلق الكتاب متثائبا إذا ما أحس بالضجر، ولكن المستمعين الذين نراهم يعبرون عن ضجرهم بطريقة واضحة. وثمة مؤرخ عاش في القرن التاسع اسمه «اجنيللوس Agnellus» كان يقرأ كتابه عن تاريخ الكنيسة لجمهور من المستعمين في بلدته رافنا، وهو شخص يتسم بالحرارة وكثرة الكلام؛ فهو يخبرنا متى توقف عن القراءة، كما يوضح لنا مدى انتباه المستمعين لا يقول أو تململهم منه؛ إذ يقول: «كنتم اليوم مشدودين إلى كلماتي» أو «بالأمس ابديتم دلائل الضجر». ومن المسلم به أن رواية الطرائف والنوادر تعد وسيلة فعالة البديتم دلائل الضجر». ومن المسلم به أن «يحاولوا الدخول في عقل المؤرخ»؛ وهو الدارسين والطلاب في عصرنا الحديث أن «يحاولوا الدخول في عقل المؤرخ»؛ وهو ما يعنى أنه ينبغي عليهم، لكى يفهموا أحد مؤرخي العصور الوسطى أن يجلسوا بين مستمعيه. فالواقع أن الاتصال بين المؤلف وجمهوره في تلك العصور كان اتصالا شفويا، ولذا فإنه كان يتوقع منهم أن ينصتوا أثناء كلامه، وأن يضحكوا إذا ما القي بنكتة لتسليتهم.

كذلك كان الكاتب فى العصور الوسطى يفترض أن يكون التراث الذى يعمل فى رحابه مألوفا لدى المستمعين. إذ أنه كان يصوغ عباراته من كلام الأجداد، كما كانت قراءاته الخاصة تحكم أفكاره فيما يتعلق بكيفية كتابة التاريخ، وما يجب أن تكون عليه. ويجدر بنا أن نفهم أفكاره المسبقة التى كانت تضرب بجذورها فى العصور القديمة، وتاريخ الكتاب المقدس، وكتابات أباء الكنيسة. وهكذا نجد أنفسنا مضطرين إلى القيام برحلة تقهقرية فى رحاب الزمان، وذلك لكى نعود إلى أيام شيشرون وعصر موسى حتى نفهم كيفية تناول المؤرخ فى العصور الوسطى لمادته وكيفية عرضها على مستمعيه. ورغم اختلاط التراث القديم بالتراث الكلاسيكى وتداخلهما، فإن من المكن

فصلهما إلى حد ما؛ وذلك بالبحث عن تأثير كل منهما على التدوين التاريخى في العصور الوسطى. فقد كان التراث اللاتينى القديم مصدراً للموضوعات التى عالجتها مختلف أشكال التدوين التاريخى، كما كان مصدرا لقواعد الكتابة في كل من هذه الموضوعات المختلفة، فضلا عن النماذج التى كان على مؤرخى العصور الوسطى أن يسيروا على هديها. وبقدر نصيب كتاب العصور الوسطى من الثقافة الكلاسيكية كان يتحدد التزامهم بالتقاليد القديمة أو تعديلهم إياها، ورغم كل ما طرأ على الظروف المادية والمناخ الفكرى من تغيرات، فقد ظل ولاؤهم للقديم باقيا. ومن ناحية أخرى، كان للكتاب المقدس وكتابات أباء الكنيسة تأثيرها على مضمون الكتابة التاريخية في العصور الوسطى، وعلى مجال هذه الكتابة وأهدافها.

الفصل الثانى التراث الرومانى

ورث كتاب العصور الوسطى بعض التصورات والمفاهيم الواضحة عن مختلف موضوعات التدوين التاريخي. إذ كان القدماء يميزون بين كتاب الحوليات والمؤرخين: فالحوليات annals عبارة عن سجلات للأحداث سنة وراء أخرى حيث كانت حكومات المدن تهتم بحفظ قوائم بأسماء الموظفين، وسجلات بالجوائز التي منحت في المسابقات الرياضية المحلية، والاتفاقيات، أو الحروب التي خاضتها ضد المدن المجاورة. وكان كاتب الحولية يدون هذه السجلات لتكون مراجع تستقى منها المعلومات، إلا أنه لم يكن ثمة من الأسباب ما يجعله يعرضها ف شكل أدبى. إذ كان «الاختصسار دون غموض» - كما يقول شيشرون - هو غاية ما يتطلع إليه كاتب الحولية. أما التاريخ فكان يختلف عن الحولية من حيث كونه تأليفاأدبيا. كانت الحوليات تستخدم كمراجع، على حين كان التاريخ يستخدم كمادة للقراءة أو السماع. كما أن التاريخ احتل مكانه إلى جانب أشكال التعبير الأدبى الأخرى مثل الدراما أو الهجاء، وقد عرفت العصور الوسطى هذا التمييز بين الحولية والتاريخ؛ إذ كانت المدونات والحوليات تسجل الأحداث وفقا لتتابعها الزمنى دون أن يهتم جامعوها بأن تتخذ سمة العرض الأدبى الرشيق. وعلى العكس من ذلك كان المؤرخ يولى اهتماما فائقا بالأسلوب دون أن يتقيد بالنظام الحولى الصارم. وكان يستطيع الاستطراد احيانا، كما يستطيع استعادة معض المواقف من الماضى أحيانا أخرى، فضلا عن أنه كان يفرق بين التاريخ والأشكال لادبية. وهناك اثنان من مؤرخي القرن الثاني عشر ذاع صيتهما في مجال الكلاسيكيات اللآتينية، يضربان لنا المثل على ذلك؛ فها هو «أوتو الفريزي(١) يقول، وقد اعترته مشاعر الكآبة، إن ما يكتبه «تراجيديا وليس تاريخا»، بينما يعبر «وليم الصورى» عن اشمئزازه من سلوك معاصريه وأخلاقياتهم بقوله أنه إذا أراد وصنف

⁽۱) هو أوتو اسقف فريزيا Bishop Otto of Freising (ت ۱۹۸۸م) سليل واحدة من أكبر واعرق العلائلات الأرستقراطية فى أوربا العصور الوسطى، وهى أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen فى العلائلات الأرستقراطية فى باريس (۱۱۲۷ – ۱۱۳۳م)، ثم انضم إلى طائفة السرهبان السستسرشيان، وبعدها صار رئيسا لأحد الأديرة، وأخيرا تم انتخابه اسقفا لفريزيا فى سنة ۱۱۲۷، أهم مؤلفاته التاريخية كتابان يتصفان بقدر كبير من العقلانية والنزعة الفلسفية، أولهما كتاب «المدينتين» الذى كتبه سنة ۱۱۶۲م وهو عبارة عن مسح مفرط فى التشاؤم لتاريخ العالم كتبه تحت تأشير فكر

هذا السلوك وهذه الأخلاقيات فإن ما يكتبه سيكون «هجاء وليس تاريخا».

كانت للتاريخ مكانته في التعليم عند الرومان باعتباره فرعا من فروع البلاغة التي كانت أهم موضوعات الدراسة والتعليم في المدارس أنذاك. ويمكن تعريف البلاغة بأنها « فن الاقتاع كتابة وخطابة ». إذ كان التاميذ في المراحل النهائية في المدارس الرومانية ينال من التعليم ما يؤهله لكي يكون خطيبا على استعداد للتحدث في المجالس العامة أو في ساحات القضاء. وكما كان عليه أن يتعلم أساليب مخاطبة الجماهـير وجب عليه أيضًا أن يتسلح بالثقافة الأدبية السائدة والتي تليق بكرام الرجال، قبل أن ينتهي من تعليمه. كان يتعلم كيف يكتب ويتحدث في أسلوب رشيق؛ ففن الاقناع يعنى ضمنا القدرة على مخاطبة عواطف الجماهير واجتذابها. وهنا تبرز قيمة التاريخ لأن رواية القصيص والحكايات على سبيل المثال واحدة من أفضل وسائل اجتذاب السامعين. وهكذا كان الخطيب يستولى على ألباب سامعيه (أو هو يحاول ذلك) بأن يقص عليهم القصيص عن فضائل الرومان القدماء وعزوفهم عن الرذائل. وكانت دراسته للنحو، كمدخل لدراسة البلاغة تقوده إلى ميدان التاريخ القديم والأساطير. وذلك أن المدرس الذي يعلم تلاميذه كيف يقرءون الشعراء الكلاسيكيين، كان يجد نفسه مضطرا، اثناء محاضرته عن «فرجيل» أو «أوفيد» إلى شرح ما أورده من إشارات؛ تارخية كانت أم أسطورية، جغرافية أو كوزمولوجية (٢) لكى بيسر على تلاميذه فهم ما يدرسونه من اشعار.

وفى العصور الوسطى ظلت هذه الطريقة التعليمية قائمة. إذ كان التلميذ يدرس مضمون التاريخ ــ او جزءا منه على الأقل ــ من خلال النصوص الأدبية حيث يستمع إلى شرح ما تضمنته هذه النصوص من إشارات تاريخية، وبعبارة أخرى كان التلميذ يلتقط شذرات المعرفة التاريخية اثناء دروس النحو وعليه أن يدعم وينمى هذه المعرفة التاريخية الشذرية بقراءاته الخاصة. وفي العصر الروماني كان لابد من توفر الأمثلة التاريخية في جعبة المثقفين، وهو ما يصدق أيضا على علماء العصور الوسطى، على الرغم من أن مدى إشاراتهم التاريخية كان يتوقف على ما يتاح لهم من كتب. واستمر الرغم من أن مدى إشاراتهم التاريخية كان يتوقف على ما يتاح لهم من كتب. واستمر

اوغسطين. وفي هذا الكتاب اوضح اوتو الفريزي أن تاريخ الممالك العلمانية يكاد الا يكون شيئا غير سجل للجرائم الكريهة، اما كتابه الثاني، فهو أعمال فردريك بربروسا، وقد ظل عاكفا على كتابته حتى توفى وأكمله سكرتيره رايفين. هذا الكتاب يقف على النقيض من كتابه الأول، فهو يرحب بالدولة ويسبخ الكثير من السجايا الأخلاقية على السلطة العلمانية.

انظر: نورمان كانتور، التاريخ الوسيط ،٣ج ٢، ص ٥٣٧ - ص ٥٤٠. (المترجم)

⁽٢) الكورمولوجي Cosmology) فرع من الميتافيزيقا يعتبر العالم كلا منتظما. (المترجم)

هذا النظام التعليمى قائما رغم التسهيلات التى طرات على الدراسات العليا أواخر العصر القديم. كان التاريخ يدرس على هامش الأدب، باعتباره موضوعا ثانويا، ولكنه كان يضمن بقاءه لارتباطه بدراسة الشعراء الكلاسيكيين وبعض شعراء العصور الوسطى. وكانت دراسة الآداب الحرة الشلاثة (٢) تشمل دراسة النحو، والبلاغة والمنطق. ولعبت دراسة التاريخ، التى انحصرت ما بين النحو والبلاغة، دورا ثانويا في البرامج الدراسية. فقد كان الطالب يدرس التاريخ بشكل أو بآخر، إلا أنه لم يكن مطالبا بأن يكتب التاريخ كجزء من تدريبه على الكتابة. وإذا ما اراد أستاذه أن بش بعه على تدريب مواهبه من خلال التمرينات المدرسية، جعله يتدرب على قرض الشعر أو تأليف النثر في موضوعات أدبية أو دينية. وليست هناك فيما نعلم، مقالات مدرسية تدريبية في التاريخ، رغم أن أية فترة تاريخية قديمة، يمكن بطبيعة الحال، أن تصلح موضوعا للتمرين وذلك لأن المدرس كان يمنح الدرجات لتلاميذه على أساس مهارتهم في العرض الأدبي.

وقد أرسى شيشرون القواعد التى يجب على الخطيب الالتزام بها عند روايت للتاريخ، كما أن كتبه عن البلاغة تركت أثرا لا يمحى على علماء العصور الوسطى، إذ أنه جعل على راوية التاريخ مسئولية أدبية تلزمه برواية الحقيقة دونما تحيز أو حقد، حتى ولو غضب أولئك الذين قد تكون الحقيقة مريرة بالنسبة لهم، أما المنهج الذى

⁽٣) الآداب أو الفنون الحرة الثلاثة Trivium، والعلوم الحرة الأربعة quadirivium، هى العلوم السبعة التي عرفت في العصور الوسطى باسم العلوم الحرة Artes Liberales، وهى العلوم التي السبعة التي عرفت في العصور الوسطى باسم العلوم الحرة Artes Liberales، وهى العلوم التي اختارها مارتيانوس كابيلا Amatianus Capella (أحد علماء أفريقيا في النصف الأول من القرن الخامس) لتكون علوم التخصص في المدارس، والفنون الثلاثة هى: النصياب Arithmetica، والبلاغة الخامسة Arithmetica، والمنسخة Amatica، والمنسخة Geometrica، والمؤسيقي Musica، وقد عرض كابيلا لهذه العلوم الحرة في الجزء الثاني من موسوعته الغريبة الصغيرة والتي صارت تعرف منذ القرن السادس باسم أكثر غرابة هو: «قران الفيلولوجيا ومركوريوس المعروبية الصغيرة والتي صارت تعرف منذ القرن السادس باسم أكثر غرابة هو: عمورة عروس تصعد إلى السماء بأشبينات من العلوم الانسانية (التي اختارها) لكي تتزوج من مركوريوس إله الفصاحة ورسول الآلهة عند الرومان. وقد وافقت الكنيسة الغربية على تقرير هذه العلوم السبعة في مدارس الغرب الدينية طوال العصور الباكرة، وحتى ظهور الجامعات مما ترك أثاره السلبية على التعليم والحياة الثقافية بوجه عام.

لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع أنظر:

على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط، ص ٧٧ – ص ٧٤، وكذلك ,Cantor, على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، ص ٧٤ – ص الاترجم)

أوصى به شيشرون فهو «الترتيب الزمنى والعرض الجغراق». وكان على المؤرخ أن يبحث عن الأسباب فلا يكفى أن يعرض ما تم انجازه من أعمال عظيمة، وإنما ينبغى عليه أن يبين كيفية انجازها وسبب هذا الانجاز، واضعا في اعتباره ما يمكن للصدفة والحكمة أو الحماقة الانسانية، أن تؤثر به في العملية التاريخية دون أن ينسى «السير والشخصيات». وعليه أن يكتب في أسلوب سهل جزل. ويصف شيشرون التاريخ بكلمات تصادف هوى في نفوس المولعين به فيقول:

«التاريخ شاهد على مر العصور، يسلط الضوء على الحقيقة، ويبث الحياة فيما يستعاد من رحاب الماضى، وهو يقود الانسانية إلى سبل الهداية والرشاد، كما يروى لنا أخبار الأيام الخوالى».

وتكشف النظرة المتأنية الفاحصة عن أن شيشرون قد أعلى من شأن البلاغة على حساب التاريخ، وهو ما يتجسد واضحا ف قوله مستطردا على عبارته السابقة :«فأى صوت إذن، غير صوت الخطيب يمكن أن نثق به في مجال الخلود؟».

لقد حققت كلمات شيشرون من الذيوع والانتشار ما جعلها موضوعا ٣ل الاقتباس حتى من بعض الذين لم يقرعوا شيشرون أصلا. كما فعل أحد الشراح حين كتب على هامش نسخة من كتاب «التاريخ المدرسي» كانت ملكا لأسقفية جيمييج Jumieges، عبارة شيشرون «كان التاريخ مبجلا».

لقد قدم المؤرخون الرومان النماذج التى سار مؤرخو العصور الوسطى على نهجها، وكان اختيار مؤرخى العصور الوسطى للكتب التى يقرأونها يتوقف على مدى استساغتهم لها من جهة، وعلى ما بقى من مخطوطات العصر القديم التى نجت من عوادى الزمن من جهة أخرى. ولم يكن مؤرخو العصور الوسطيب باستثناءات نادرة يعرفون اللغة اليونانية، كما لم يكن لديهم أية ترجمات لمؤلفات المؤرخين الأغريق يعرفون ليفى (٥٩ق.م - ١٧م) أحد المؤرخين اللاتين الذين نالوا الحظوة

⁽³⁾ هو Titus Livius الذي يصفه البعض بأنه مؤرخ الرومان الوطنى، وبأنه واحد من أعظم رواة القصص في جميع العصور، ويتناول مؤلفه ـ الذي يعتبر ملحمة نثرية ضخمة ـ تطور الدولة الرومانية العالمية. وقد اتخذ ليفيوس من البلاغيين الاغريق قدوة لنفسه. والف ليفي كتابه لتمجيد روما، لكي يبث في الشباب روح الولاء للوطن والتفاني من أجل رفعته. ورغم أن البعض يأخذ عليه عدم دقته في يبث في الشباب روح الولاء للؤرخ والفيلسوف الانجليزي كولينجوود (١٩٤٣-١٩٤٣) يدافع عنه في استخدام المصادر إلا أن المؤرخ والفيلسوف الانجليزي كولينجوود (١٩٨٨-١٩٤٣) يدافع عنه في هذه الناحية على أساس أنه وجد أمامه عددا من الأساطير ولم يكن يعرف المناهج النقدية الحديثة الحديثة بمكنه من تمحيص مصادره.

انظر · كولينجوود : فكرة التاريخ (ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة ، النشر، ==

والاعجاب في العصور الوسطى، بيد أنه لم يكن يجتذب قراء كثيرين أنذاك. ولم تعاود كتاباته الانتشار مرة أخرى سوى في أواخر القرن الثالث عشر، لأن كتابه «تأسيس المدينة » كان عملا طموحا في مقياسه بحيث لا يمكن لمؤرخي العصور الوسطى أن يقلدوه. أما تاكيتوس فلم يحظ بأى رواج في العصور الوسطى، على حين كان سالست (٨٧ - ٣٦ ق.م) هو المؤرخ المفضل. إذ ظلت رسالتاه عن «مؤامرة كاتلينا» و «الحرب اليوجورتية » متداولتين رغم تضاؤل عدد النصوص القديمة التي كانت متاحة أنذاك. لأن هاتين الرسالتين كانتا من حجم يمكن لمؤرخي العصور الوسطى أن يقلدوه. ومن ثم كان سالست يعتبر في تلك العصور كاتبا نموذجيا يكتب بلغة لاتينية واضحة وسهلة التقليد.

ومن خلال الأسلوب والمنهج اللذين اتبعهما المؤرخون الرومان تتبدى لنا الحلقة التى تربط بين التاريخ والبلاغة واضحة جلية. إذ ترسخت بعض التقاليد الأدبية التى كان على المؤرخ أن يتبعها؛ فقد كان عليه أن ينطق شخصياته _ سواء كانت الشخصية قائدا يخاطب جنوده قبيل المعركة، أو رجل دولة يعرض قضية أمام مؤتمر أو مجلس... أو غير ذلك _ بخطب من تاليفه وليس من المفروض أن يتقبل القراء مثل هذه الخطب باعتبارها تسجيلا لما قيل بالفعل، أو حتى باعتبارها تقريرا دقيقا عما قيل: لأن مثل هذه الخطب قد تدل على فحوى الكلام الذي قيل فعلا دون أن تلتزم بنصه، ولكن وظيفة هذه الخطب الرئيسية هى زخرفة الأسلوب. وفي العصور الوسطى كان الطلاب يستمتعون بخطب سالست ويقبلون على نسخها في شغف، وكان من المتعارف عليه أنذاك عدم التزام الدقة، كما كان تغيير التواريخ الواردة في النصوص الأصلية أمرا مقبولا، ولم تكن ثمة ضرورة لتوثيق تلك النصوص. وكان الكاتب الذي يسجل في كتابه نسخيل الخوض في غمار نسخا من المراسيم والمعاهدات يكسر النسق البلاغي لكتابه في سبيل الخوض في غمار اللغة الحكومية. ورغم أن شيشرون وضع قاعدة تلزم المؤرخون بذكر الحقيقة، فانه لم يحدد أبعاد هذه «الحقيقة» بشكل دقيق.

لقد تناول سالست التاريخ باعتباره فرعا من فروع علم الأخلاق، الذي كان بدوره

القاهرة ١٩٦٨)، ص ٨٥ - ص ١٩. وقد اعتمد ليفى في مؤلفه على كتابات المؤرخين السابقين بالاضافة إلى السجلات التى حفظت تاريخ روما الباكر. وأهم ما يميز ليفى هو أنه كان يؤكد على الهدف الأخلاقي للتاريخ، كما أنه كان يعتقد أن نجاحه يتوقف على ما أوتى من صفات الأديب، لأنه كان يعلم أن ما يكتبه، وإن لم يكن تاريخا بالمعنى العلمى، فأنه أدب راق ودعاية وطنية جيدة. لقد ابتكر ليفى فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها، وكان في ذلك معبرا عن الرومان في اعتقادهم أن تاريخهم، فقط هو الجدير بالتدوين لثقتهم في تفوقهم على الشعوب الأخرى.

Barnes, A hist. of historical Writing, pp. 36-8.

من فروع البلاغة، وكان الخطيب «رجلا حانقا ماهرا في الحديث». ومن الناحية النظرية كان عليه أن يسخر مهارته ف خدمة قضية شريفة. كذلك كانت رؤية سالست للتاريخ رؤية أخلاقية: إذ رأى فيه دروسا أخلاقية، وكان يرى أن على الرومان أن يتجهوا بأنظارهم صوب الماضى حين كان أجدادهم جنودا مزارعين قبل أن تفسد الرفاهية وحالة السلم أحفادهم، وتقودهم إلى التدهور الحضارى وإلى الهزيمة على أيدى أعدائهم من الأجانب، وفي رأى سالست أنه ينبغي على المؤرخ أن يكون رقيبا يكشف عن الأمثلة الطيبة والسيئة على حد سواء، كما يجب عليه أن يكون بصيرا بدوافع الناس الحقيقية. وفي هذا الصدد تميز سالست بسخريته اللاذعة، لأنه كان بميل بشكل عام إلى الأخذ بالدوافع الأسوأ. وقد أقنع القراء في العصور الوسطى بأن للتاريخ هدفا أخلاقيا، وبأن للمؤرخ الحق في تزيين وزخرفة روايته، وأن عليه أن يرصع مشاهد المعارك والحصار الدرامية بما يضعه من خطب وغيرها من لوازم العرض على مسرح الأحداث.

كان لسالست تأثير طاغ ف تطوير الرسائل التاريخية التي حلت محل التاريخ العالمي أو المدونة من جهة، والتاريخ المحلى من جهة أخرى. وقد أعادت رسالتاه تأكيد تعليم شيشبرون عن أهمية الجغرافيا من خبلال ما أوردتاه من أمثلة. إذ وصف سالست البيئة التي دارت في إطارها الحرب اليوجورتية في شمال أفريقية، كما شرح كيف تركت هذه البيئة أثرها على عادات وأفكار وتقاليد القبائل المراكشية؛ وأوضع أيضًا كيف كان لهذه العوامل أثرها في الانتصارات الأولية التي أحرزها المراكشيون، ثم في الهزيمة التي لحقت بهم في نهاية هذه الحرب التي خاضوها ضد روما. وترسخت «مؤامرة كاتيلينا» و «الحرب اليوجورتية» ف أعماق وعى العصور الوسطى بحيث صارت الاقتباسات والعبارات المأخوذة عن سالست تشكل جزءا هاما فينية المؤلفات التاريخية التي كتبت أنذاك. دعك من محاولات تقليد الخطب ومشاهد المعارك التي كتبها. أما يوليوس قيصر، فإن كتابيه «الحرب الغالية» و«الحرب الأهلية»، يحكيان قصة الحملات التي تولى قيادتها بأسلوب عملي موجز وجاف. وفي العصور الوسطى حظى كتابا قيصر باهتمام المتعلمين الذين أقبلوا على قراءتهما والاقتباس منهما، إلا أنهما لم يبلغا في ذلك مبلغ رسالتي سالست. فقد كان قيصر أكثر جفافا، وربما يكون الرهبان الذين مارسوا كتابة التاريخ أنذاك قد أحسوا بأن المؤلف المدنى (سالست) أقرب اليهم من القائد العسكرى (قيصر).

وعرف مؤرخو العصور الوسطى كتابة التراجم كموضوع من موضوعات التدوين التاريخى، من خلال كتاب سويتونيوس Suetonius Tranquillus (١٦٠ – ٢٥) المسمى «تراجم القياصرة» (أوائل القرن الثانى للميلاد). وقد بدأت هذه التراجم

بيوليوس قيصر، وانتهت بدوميتيان Donitianus. وكانت لهذا الموضوع قواعده الخاصة به؛ ففيه يعرض سوتيونيوس مادته على نحو أشبه بالصور الفوتوغرافية منه بالشريط السينمائى الحى. إذ كانت ترجمة كل إمبراطور تتألف من حياته الباكرة، وحياته الخاصة، وشخصيته، وبنيانه الجسدى، وأفكاره ثم فعاله كحاكم، ولم يهتم سوتيونيوس بالتفاعل بين العام والخاص، كما أنه لم يتتبع خط تطور الشخصية. ولكنه كان يبين أحيانا أنه يمكن للحاكم أن ينهار تحت وطأة الارهاق الناتج عن تبعات الحكم. كذلك لم يكن سوتيونيوس يتعمق في البحث عن الدوافع. ويمكن القول بأنه كان يتسم أحيانا بالرعونة والتسرع في إصدارالأحكام؛ فهو يقول مثلا إن من أسباب غزو يوليوس قيصر لبريطانيا ولعه باللآلي التي كانت تنتجها بوفرة. كما أنه لم يكن عادلا من الناحية الأخلاقية رغم أنه يضع مقياسا عاما للصواب والخطأ، بل إنه يصل في تهاونه إلى حد أنه يرى أن باستطاعة أسوأ الأباطرة أن يشرع القوانين الجيدة، وأن يتخذ الإجراءات العادلة.

وإذا كان سوتيونيوس لم يختر موضوعا بلاغيا، فانه قد فكر في اتخاذ مثل هذا الموضوع البلاغي دليلا يقيم به مادته التاريخية. فكتابه «عن النحويين والبلاغيين» يعد بمثابة فاتحة لنمط جديد من كتابة التراجم هو كتابه تراجم الأدباء. ولم يصلنا من هذا الكتاب سوى شذرات. ولكن سان جيروم (٥) اتخذه نموذجا صاغ على مثاله كتابه «عن الرجال النابهين». ومنذ ذلك الحين فصاعدا صار من حق العلماء أن تدون تراجمهم شأنهم في ذلك شأن الحكام تماما. لقد قدم سويتونيوس ما يرضى القراء في العصور انطلاقا من مقولة «اننى اهوى التاريخ لاننى اهتم بالناس». وكان من

العصور انطلاقا من مقوله « انتى اهوى التاريخ لانتى اهتم بالناس ». وكان من المكن أن تكون معلوماتنا عن السجايا الشخصية لحكام العصور الوسطى أقل مما هى عليه لو لم يهتم سويتونيوس بأن يذكر أن أوغسطس المقدس كان يرتدى صديريا من الصوف في الشتاء، ولو لم يهتم وليم المالمسبورى ــ الذى تأثر به ــ بأن يخبرنا أن هنرى الأول كان كثيف شعر الصدر، وأن شخيره كان يعلو أثناء نومه.

⁽٥) ولد جيروم بدلماشيا سنة ٣٤٠، وتلقى تعليمه الأولى فى بيت الأسرة ثم رحل الى روما حيث درس النحو والشعر وتدرب على الشئون القضائية فى محاكم روما، كما درس الفلسفة اليونانية وتم عماده الى المسيحية سنة ٣٦٠. أهم اعماله هو الترجمة اللاتينية لحولية ايوسيبيوس والترجمة اللاتينية للكتاب المقدس والمعروف باسم Vulgata وكانت وفاته بفلسطين سنة ٤٢٠.

عن حياة جيروم ومؤلفاته انظر:

E.K. Rand, Founders of the Middle Ages, (Dover, New York, 1957), pp. 102-134.; Cantor (N.F), The Medieval World, (2nd ed. Macmillan, 1968), pp. 28-31:

وكذلك اسحق عبيد، من آلارك الى جستنيان (دار المعارف ١٩٧٧)، ص ١٥٩ - ص ١٦١ وص ٢١٠ - ص ٢١٦ والنصوص اللاتينية لرسائلة: ص ٢٦٢ - ٢٦٨.

والى جانب «سير القياصرة»، كان هناك موضوع آخر للتراجم هى المراثى التى ترجع في اصلها الى الخطابة الجنائزية؛ التى كانت بدورها ضربا من ضروب البلاغة. فقد كان كاتب المرثية يكيل المديح والثناء على شخص المتوفي طبقا لقواعد مقررة: إذ كان يبالغ في اطرائه بالافاضة في الحديث عن اسلافه النبلاء، ثم يتطرق الى الخطوط التقليدية. فاذا ما كان المتوفي رجلا عصاميا، يذكر انه احرز مكانته بفضل اعماله الطينة وما حباه الله من فضائل. وكان لهذين الموضوعين تأثيرهما من حيث فصل التاريخ عن التراجم. ولم يكن هناك احد من المؤرخين يفكر في الجمع بين الترجمة والتتابع الزمنى في الموضوع الذي يتناوله: لأن ذلك كان يعنى الخلط بين موضوعين مختلفين من موضوعات الكتابة التاريخية آنذاك.

أما فاليريوس مكسيموس Valerius Maximus ، فقد تناول التاريخ على شكل امثلة ونوادر. وينقسم كتابه المسمى «الأفعال والأقوال المأثورة» (كتب بعد سنة ٤٤م) الى عدة اقسام تتناول انماطا شتى من الفضائل والرذائل؛ مثل التقوى واحترام الآلهة، ونقيضها مثل السلوك الالحادى، ثم يورد فى كل قسم من أقسام كتابه امثلة رومانية أو اجنبية. فقد كان يأمل ان يزود الخطيب بقصة جاهزة لكل مناسبة. ويمكن ان نعرف هذا النوع من الكتابة التاريخية بأنه «تاريخ معلب». ذلك لأن المرء يختار من المجموعة كما لو كانت علية من الشيكولاتة. كذلك فان مكسيموس قد أكد الاتجاه الى اعتبار التاريخ دروسا أخلاقية للعظة والعبرة. ومن حسناته أن كتابه «الأفعال والأقوال المأثورة» قد يسر للناس معرفة واضحة بالفترات الهامة والتافهة فى التاريخ القديم على المأثورة» قد يسر للناس معرفة واضحة بالفترات الهامة والتافهة فى التاريخ القديم على وذاع صيته بين المبشرين والوعاظ منذ القرن الثانى عشر فصاعدا. وهكذا ظهرت مجموعات الأمثلة exampla فى العصور الوسطى. ولا نعرف مدى تأثير مكسيموس على مجموعات : إلا أنه كان قد وضع أمامهم المثال الذى حاز إعجابهم.

ويمثل كتاب ايسيدور الاشبيلي (ت ٦٣٦) (١) « الاشتقاقات Etymologies » الحلقة

⁽٦) اسمه اللاتينى Isidorus Hispalensis (حيوالى ٧٠٠ – ٦٣٦) ورغم أنه عاش حياته في اسبانيا تحت حكم القوط الغربيين وعاصر تسعة من ملوكهم، فانه لم يكن جرمانيا. بل كان سليل أسرة عريقة انتقلت من شمال افريقيا الى أسبانيا في اوائل القرن السادس. ويعد من اهم المساهمين في التراث الثقافي الغربي منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن. وكان لايسيدور تأثير كبير على التعليم في العصور الوسطى الباكرة وعلى الحياة الثقافية في الغرب بوجه عام، ويعده بعض الباحثين واحدا من اهم الرجال الذين يعتبرون علامة على فترة الوصل بين الثقافة القديمة، وثقافة العصور الوسطى ويرى هؤلاء أن المستوى الهابط لمؤلفاته يعتبر من مؤشرات بداية العصور الوسطى، وقد وضع ايسيدور عدة مؤلفات تاريخية الهمها المدونات Thronica) التي وصلت بتاريخ العالم إلى احداث عصره، تعدة مؤلفات تاريخية الهمها المدونات (Thronica) التي وصلت بتاريخ العالم إلى احداث عصره، تعدة مؤلفات تاريخية الهمها المدونات Thronica) التي وصلت بتاريخ العالم إلى احداث عصره، تعدة مؤلفات تاريخية الهمها المدونات Thronica) التي وصلت بتاريخ العالم إلى احداث عصره، تعدة مؤلفات تاريخية العمها المدونات Thronica) التي وصلت بتاريخ العالم إلى احداث عصره، تعديد مؤلفات تاريخية العمها المدونات Thronica)

الأخيرة في التراث الروماني. فقد صارت هذه الموسوعة مثالا يحتذي في العصور الوسطى، كما أن أي باحث لم يكن ليستغنى عن البحث فيها عما يهمه من موضوعات. ورغم أن أيسيدور كان أسقفا فأن موسوعته التي جمعها من مصادر التراث الأدبى القديم التي تيسر له الحصول عليها في أسبانيا القوط الغربيين في القرن السابع، قد صارت مصدرا لكل ما يحتاج إليه العلماء من معلومات. ومعظم هذه المعلومات مستمدة من الكتب القديمة التي ترجع إلى أواخر العصور القديمة والتي اختفت إبان الفتح العربي لأسبانيا، وعلى حين يمكن معرفة مصادر ايسيدور من خلال الكتب القديمة التي جمعها بعد القديمة التي جمعها بعد القديمة التي نجت من عوادي الزمان، فانه كان قادرا على هضم المادة التي جمعها بعد أن تختمر في عقله ثم يعبر عنها بعد ذلك بأسلوبه الخاص.

وللمقالة في المؤلفات التاريخية صوت مألوف في النغمات الايسيدورية. أذ يبدو التاريخ في صورة تنبؤية على اعتبار أنه جزء من النحو الذي هو جزء من البلاغة. ويعرف ايسيدور النحو بأنه «فن الكتابة»، بينما يعرف التاريخ بأنه «حكاية مكتوبة من نوع معين». وهو يميز التاريخ عن الأسطورة، وعن القصة التهذيبية التي تعبر عن الحقيقة من خلال الحكاية، كما يحدث في قصص ايسوب Aesop حيث تتكلم الحيوانات وتتصرف كالأدميين. بينما تعبر الأساطير الشعرية عن الحقيقة من خلال قصص الآلهة. أما التاريخ فأنه يختلف عن هذه الحكايات من حيث كونه موضوعا حقيقيا لأنه «قصة الأعمال التي تمت، وبفضل هذه الحكاية اصبحنا نعرف الماضي». وكلمة تاريخ history مشتقة من الفعل اليوناني الذي يعنى «المشاهدة»، أو «التعلم». (وثمة قاموس حديث يضيف عبارة «عن طريق الاستفسار» لتكون إضافة

⁼ وتاريخ القوط (الغربيين) historia Gothorum، وتاريخ الوندال regula monochorum ولكن synonyma ودستور الرهبان de viris illustrilius، ولكن المشاهي synonyma والمترادفات synonyma ودستور الرهبان de viris illustrilius، ولكن كتاب الأصول أو الاشتقاقات origines sive etymologia هو أهم مؤلفاته، وهو عبارة عن موسوعة من عشرين كتابا، ويوضح هذا العنوان الغريب الاعتقاد الغريب الذى سيطر على ايسيدور – والذى يتوافق مع ما ساد العصور الوسطى الباكرة من اهتمام بالرمزية – بأن الطريق الى المعرفة يمر من خلال التعرف على أصول العالم. بيد أن معلومات أيسيدور الفيلولوجية كانت أقل من أن تمكنه للتصدى لمثل هذا العمل، ورغم ما تضمنته هذه الموسوعة من خرافات وخيال، فأنها لاقت شعبية هائلة، كما تركت تأثيرا كبيرا على التعليم في العصور الوسطى، لأن أيسيدور لم يقيد نفسه في أطار العلم السبعة الحرة ولكنه حاول القيام بمسح على أتساع مجال المعرفة في ألعالم الاغريقي الروماني القديم؛ فجمع المعلومات عن الجغرافيا والطب، والأحياء والتاريخ الطبيعي والمعجزات... وغيرها من الأمور الذي تتعلق بالحياة اليومية، والدليل على رواج هذا المؤلف الموسوعي في العصور الوسطى أن هناك حوالي الف نسخة مخطوطة منه باقية حتى الآن.

انظر الغمراوى: مدخل الى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، ص ۱۱۱ - ص ۱۱۲، وكذلك: وكذلك: (الترجم)

هامة إلى الاشتقاق الذى اورده ايسيدور) (٢)، ويخلص ايسيدور الى أنه: بما ان التاريخ يحكى ما شوهد وعرف على إنه الحقيقة، فلابد أن يقوم على رواية شهود العيان، ويقول في هذا الصدد:

(٧) تشير المؤلفة هنا إلى حقيقة أن الكلمة التي تعنى «تاريخ» في اللغات الأوربية الحديثة مشتقة اساسا من كلمة إيستوريا ~ التي تعنى الفحص أو الاستفسار ~ اليونانية التي اتخذها هيرودوت (٤٨٤ ~ ٤٧٥ ق.م) عنوانا لكتابه. وقد استخدم الرومان الكلمة اللاتينية historia في المعنى نفسه. ومنها كانت الاشتقاقات التي عرفتها اللغات الأوربية الحديثة، وتطور مفهوم الكلمة حتى صارت تعنى عدة معان مختلفة، وتم اشتقاق عدة مصطلحات من الكلمة الأصلية، ورغم ذلك بقيت كلمة «تاريخ» غير محدودة المعنى بشكل حاسم. وبالرغم من استحداث كلمة الأصلية، في مشكلة التحديد الدقيق للكلمة الأصلية، فإن ما أثارته الكلمة الجديدة من مشكلات جاءت أضافة للمشكلات القائمة بالفعل حول الكلمة الأصلية.

اما في اللغة العربية فالمشكلة التي تثيرها كلمة «التاريخ» المتعددة المعاني، قائمة منذ أمد بعيد، وقد واجهت المؤرخين القدماء الذين حاولوا تحديد مفهوم الكلمة والبحث عن أصلها. فالكلمة لم ترد في الشعر الجاهل أو القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة. وقد أشار السخاوى (الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٦ ·· 'ص ٧) الى هذا الخلاف حول أصل الكلمة بقوله « ...التاريخ في اللغة هو الاعلام بالوقت؛ يقال أرخت الكتاب وورخت الكتاب أي بينت وقت كتابته، قال الجوهسري التاريخ تعريف الوقت والتواريخ مثله، ... وقيل أشتقاقه من الأرخ، بفتح الهمزة وكسرها، وهي الأنثى من بقر الوحش لانه شيُّ حدث كما يحدث الولد. وقد فرق الاصمعي بين اللغتين فقال: بنو تميم يقولون ورخت ألكتاب توريخا، وقيس تقول ارخته تأريخا، وهذا يثبت كونه عربيا. وقيل انه ليس بعربي محض، بل هو معرب مأخوذ من «ماه روز» الفارسية (ماه: القمر، وروز: اليوم) قال ابو منصور الجواليقى ف كتابه والمعرب في الكلام الأعجمي »: يقال إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وانما اخذه المسلمون عن أهل الكتاب ... ». وقد أشار حاجى خليفة (كشف الظنون، ٣ج ١، ص ٢٧١) الى هذا الخلاف حول اصل الكلمة. على اننا نستبعد أن يكون لفظ «تاريخ» مشتقا من الكلمة الفارسية «ماه روز» بسبب عدم التقارب بين اللفظين، وربما يكون القائلون بهذا الرأى قد خلطوا بين الاشتقاق اللغوى، وبين ما ترويه المصادر التاريخية من أن بداية اتضاد المسلمين من سنسة الهجرة بداية لتقويمهم كان بناء على نصيحة الهرمزان ملك أهواز الذى وقع أسيرا بأيدى المسلمين ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب، وربما يكون سبب هذا الخلط ايضا ان كلمة «ماه روز» الفارسية تدفع الى الاعتقاد بأن المراد هو تحديد الشهر. ويرى بعض الباحثين أن كلمة تاريخ عربية، وأنها لفظ قديم مشترك في اللغات السامية تلوح القرابة بينه وبين كلمة «ياريح» العبرية التي تعنى القمر، وكلمة «يرح»التي تعنى الشهر (انظر: حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية، ص ١٧٠) ومن ثم فانه يبدو لنا أن الكلمة كانت تدل على الشهر في بداية الأمر ثم تطورت لتتخذ المعاني المتعددة التي تدل عليها الآن. وهو الأمر الذي بيدو منطقيا لا سيما أذا وضعنا في اعتبارنا أن العرب، مثل العبرانيين، قد استخدموا التقويم القمرى. بيد أن كلمة تاريخ بمعانيها المتعددة تثير من المشكلات الآن ما يشابه تلك التي أثارتها الكلمة (المترحم) ن اللغات الأوربية المديثة. «لم يكن احد من القدماء يكتب التاريخ ما لم يكن حاضرا بنفسه وشاهداً على ما يرويه، اذ اننا نستوعب ما نراه على نحو افضل من استيعابنا لما نسمعه، ذلك انه لا يمكن تزييف ما تراه العين».

ويترتب على هذا أن يبدأ التاريخ بتجربة المرء الشخصية، لأن رواية الأحداث السابقة على عصره ليست إلا مجرد تجميع وتكديس للمعلومات: أى أن المرء لا يفعل شيئا في هذه الحال سوى نسخ مصادره. إلا أن ايسيدور نفسه لم يلتزم برؤيته الضيقة التي حصرت التاريخ الحقيقي في أطار رواية شهود العيان. ففي قسم آخر من كتابه نجده يقسم أنماط التدوين التاريخي ويصفها حسب فتراتها الزمنية: فالحوليات هي التي تسجل الأحداث من سنة لأخرى، بينما يقوم التاريخ بتغطية الأحداث التي وقعت على مدى سنوات طوال. كما أنه ناقض نفسه بتزكيته لسالست كمؤرخ لأن سالست لا يعد شاهد عيان، فلم يكن معاصرا بالمعنى الدقيق لكل من كاتيلينا ويوجورتا. ويمكن تفسير هذا التناقض في ضوء الحقيقة القائلة بأن جامعي الموسوعات، من أمثال ايسيدور لا يراجعون دائما ما كتبوه من مواد لكي يتأكدوا من أنهم لم يناقضوا أنفسهم.

ولا يمكن للتعريف الذي وضعه ايسيدور للتاريخ أن يلقى قبول الباحثين المحدثين لسببين: أولا أنه ليس من الضروري أن تكون رواية شاهد العيان دقيقة من الناحية التاريخية، فكونه «راى ذلك يحدث » ليس ضمانا للحقيقة، لأن رواية شاهد العيان ليست الا رواية جزئية مشوهة عما حدث بالفعل. ويقوم الاعتراض الثاني على أن المؤرخ الذي يكتب عن العصور الماضية ليس جامعا بمعنى الكلمة، لأن عليه أن يستكشف وأن يختار مصادره ويحللها ويفسرها، واذا ما استبعدنا مثل هذا المؤرخ بحجة أنه مجرد ناسخ، فإن ذلك سوف يؤدى بالضرورة إلى الغاء معظم الدراسات التاريخية التي نعرفها. وهو أمر مردود لأن ايسيدور قد بالغ في التبسيط اعتمادا على مصطلحاته الخاصة: وذلك لأنه لم يعثر على أى تعريف للبحث التاريخي فيما تيسرت له قراءته من كتب التدوين التاريخي. واذ خذله الثقات الذين اعتمد عليهم كمصادر له، فانه خلف للعصور الوسطى تركة مفعمة بعوامل الارباك والحيرة. ولم يكن هناك عالم في العصور الوسطى يقبل فكرة أن رواية شاهد العيان صحيحة بالضرورة، أذ كانت الاجراءات القضائية المدنية والكنسية على حدد سواء تتطلب مشول عدد من الشبهود أمام المحكمة: ذلك أنه كان من الممكن رشوة أحد الشبهود، كما كان من المكن أن يتحيز أو يخطئ. وعادة ما كان مؤرخو العصور الوسطى يثقون فيما يرونه بأعينهم من أدلة، ولكنهم وسعوا من نطاق التعبريف الذي وضعه أيسيدور بحيث يشمل المصادر الموثوق بها. ودأب اكثرهم دقة على ان يبينوا ما اذا كانت كتاباتهم شهادة عيان مباشرة للحادثة التاريخية، أم أنها منقولة عن مصدر آخر لا يضمنون التزامه بالحقيقة. ورغم انه قد تم تصحيح الكثير من المفاهيم التي ضمنها ايسيدور ف ثنايا عباراته، فمن المؤكد انه كان من عوامل تثبيط محاولات البحث في تاريخ الماضي، لأنه حصر المؤرخ «الحقيقي» في اطار التاريخ المعاصر أو القريب من المعاصر.

وعلى الرغم من ذلك تبرز بعض النقاط الايجابية في غمار الارتباك الذي سببه ايسيدور. فقد كانت «الاشتقاقات» نعمة بقدر ما كانت مصدرا للتخبط والحيرة التي وقع فيها علماء العصور الوسطى. اذ أن أسقف اشبيلية «ايسيدور» قد أضفى نوعا من الجدية المسيحية على المفهوم الوثني القائل بأن على المؤرخ أن يروى الحقيقة، ذلك أن الرب يوصى «بالا تكذب». كذلك صار باستطاعة مؤرخ العصور الوسطى ان يقتبس من ايسيدور مايبرر تدوينه للتاريخ في مواجهة اولئك الذين رأوا فيه مضيعة للوقت. كان ايسيدور يرى أن ثمة فائدة عملية ف حفظ الاخبار، وهي أن ذلك كان يؤدي إلى بناء الكتابة التاريخية في إطار من التسلسل الزمني (الكرونولوجي) من خلال قوائم الحكام المتعاقبين، كما كان يضفى على التاريخ أهمية غير تلك التي يكتسبها بوصفه فرعا من فروع الأدب. كذلك كان ايسيدور يبرر التاريخ من وجهة نظر أخلاقية، اذ كان للتاريخ عنده هدف أخلاقي: ذلك أنه يعلمنا أن نختار ما هو طيب، وأن نتجنب ما هو سيئ عن طريق الامثلة التي يوردها. كما انه جعل دراسة التاريخ الوثني امرا ضروريا بجانب دراسة التاريخ المسيحي لسببين: أولهما أن المسيحي يبحث في طيات التاريخ الوثنى عن التواريخ والامثلة على حد سواء، وثانيا أن القائمة التي وضعها ايسيدور عن مشاهير المؤرخين كانت تبدأ بموسى (عليه السلام) الذي افترض ايسيدور أنه كتب الاستفار الخمسة المعروفة باسم التوراة، وتمضى مع الزمن لتضم المؤرخين الوثنيين ثم الكتاب المقدس حتى تنتهى الى الكتاب المسيحيين.

واذا ما أعدنا النظر ف إنجازات مؤرخى العصور الوسطى، فربما يخطر ببالنا أنهم قد وجهوا طاقاتهم صوب ما نسميه «التاريخ المعاصر». وهى الوجهة التى قادهم اليها ايسيدور الذى حصر طاقاتهم الابداعية في حدود الاطار المناسب لقدراتهم. إذ أن كتابة تاريخ الماضى كانت تعنى مجرد النسخ والجمع، أى أن ذلك لم يكن عملا ابداعيا. اما الدراسة النقدية للماضى، وهى دراسة متمايزة عن مجرد النقل والتجميع من المسادر السابقة، فكانت تتطلب من أدوات البحث العلمى واستعدادته ما كانت العصور الوسطى تفتقر اليه. وثمة فئة قليلة من المؤرخين وجدوا لديهم من الشجاعة والجرأة ما دفعهم الى اقتحام الاطار الأيسيدورى وكسره في سبيل دراسة الماضى. إلا أن نتائج اعمالهم لم ترق إلى الدرجة التى تجتذب خلفاءهم من المؤرخين الى اقتفاء خطواتهم في

هذا السبيل. ذلك ان العصر الذي كان الكاتب يعيش فيه، او الماضي القريب من هذا العصر، كان يتيح له مجالا أرحب بحيث يتمكن من إبراز مواهبه. كما كانت المادة التاريخية التي يفرزها هذا العصر تلقى استجابة أكبر من القراء. والحقيقة أن ايسيدور قد أسدى نصيحته الحكيمة لمؤرخ العصور الوسطى بألا يقترب من العمل الذي يفوق حدود قدراته.

الفصل الثالث

التراث اليهودي ـ المسيحي

المسيحية «ديانة كتاب». والمؤرخ المسيحى يتخذ من العهد القديم والعهد الجديد نقطة البداية التى ينطلق منها. وفي العصور الوسطى لم يكن بوسع من لم يقرأ الكتاب المقدس أن يفهم الكتابات التاريخية تماما. إذ كان من المعتاد في تلك العصور أن يقتبس المؤرخ من الكتاب المقدس وأن يشير ويلمح إلى الأحداث التى يعرض لها. وكان لأسلوب الكتاب المقدس والقصص التى يرويها تأثير كبير على الكتابة التاريخية أنذاك. وعلى أية حال، فإن كتاب العصور الوسطى أخذوا المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس، ولكنهم لم يأخذوا عنه أشكال الكتابة التاريخية وأنماطها وإنما أخذوها عن النماذج الكلاسيكية. فقد كانت الهوة عميقة بين ماهو شرقى وما هو غربى، ورغم أنه كان بمقدور المرء أن يكون مسيحيا مؤمنا؛ فإن ذلك لم يكن يعنى أنه تحول إلى واحد من الساميين (1). فقد فرضت تقاليد الكتابة الكلاسيكية نفسها. ووجد المؤرخ اللاتيني في العصور الوسطى نفسه أمام تراثين مختلفين في مجال التدوين التاريخي، فها هي

⁽۱) تشير المؤلفة هنا إلى حقيقة أن المسيحية ديانة شرقية الأصل، ذلك لأن المسيح عليه السلام ولد في بيت لحم بفلسطين، وأخذ يدعو قومه. اليهود، إلى الدين الجديد، ومن ثم كان المسيحيون الأوائل يهودا متنصرين. كما أن العهد القديم الذي اعترفت به الكنيسة - لأنه يتنبأ بالمسيح حسب اعتقادهم - هو عهد اليهود وهو يعبر عن العقلية والتفكير السامي أيضا، وعلى هذا فإن المسيحيين في اعتناقهم للمسيحية يأخذون بما ورثوه عن الساميين في مجال العقيدة من ناحية، ولكنهم لا يمكن أن ينبذوا تراثهم الثقافي من ناحية أخرى. وفي الغرب الأوروبي لم يكن باستطاعة المسيحيين تجاهل تراثهم الثقافي الكلاسيكي الذي عاشت في غلاله أجيال عديدة. ومن هنا اتخذ المؤرخون المحتوى وأسلوب الكتابة التاريخية عن الكتاب المقدس لكونهم مسيحيين، بينما أخذوا أنماط الكتابة التاريخية وقواعد التآليف فيها عن النماذج الكلاسيكية التي وصلتهم عبر الزمان انطلاقا من خلفيتهم الثقافية كورثة للتراث الاغريقي - الروماني القديم، وهو أمر يتفق وطبيعة الأمور لأنه من المستحيل أن يتخلص المرء من تراثه الثقافي الموروث عبر سنوات طوال.

وقد واجهت الكنيسة هذه المشكلة في أيامها الأولى، لا سيما في مجال التربية المسيحية، وبدأ منذ القرن الثاني الجدل حول معايير الدين المسيحي ومعايير الثقافة الكلاسيكية التي تناقض العقيدة من جهة، وتعتبر تراثا يتعلق به الوجدان من جهة أخرى.

انظر الدراسمة المتعة التي قام بها الدكتور على الغمراوي (المدخل: ص ٢٥ ـ ص ٧٦). (المترجم)

ذى النماذج وقواعد التأليف الكلاسيكية ماثلة أمامه من ناحية، كما أنه، من ناحية الخرى، قد ورث عن المسيحية نظاما زمنيا جديدا، وإطارا ونظرة جديدة إلى ما وراء الطبيعة. وقد تداخل هذان التراثان في بعضهما البعض.

ولنبدا بعنصر الغيبيات أو ما وراء الطبيعة في الكتاب المقدس. وهذا العنصر موجود أيضا عند المؤرضين الرومان القدامي الذين دونوا في كتاباتهم أخبار النبوءات والمعجزات باعتبارها تدخلا من الآلهة في شئون البشر. بل إن بعض العقلانيين أمثال قيصر وسالست ذكروا العقائد والممارسات الوثنية التي كانت جزءا من رواياتهم التاريخية. وقد كشفت الأبحاث الحديثة في مجال التراث الكلاسيكي عن وجود أساس من الفولكلور والسحر في ثقافة الطبقة اللاتينية الراقية، وليس ثمة شك في وجود هذا الأساس لدي عامة الشعب أيضا. وفي التاريخ المسيحي، لم تطغ القوى الغيبية على الرواية فحسب، بل إنها كانت تتحكم في سياق الرواية أيضا. إذ كانت العناصر الالهية في الرواية راسخة ومحددة فالرب هو خالق العالم وكاتب تاريخه، كما أنه يتجلى في الكتاب المقدس.

وكانت شخصيات الكتباب المقدس شخصيات تاريخية، فملوك بنى اسرائيل، والانبياء والمسيح، وامه، والحواريون جميعا عاشوا على الارض في عصور تاريخية وهم ليسوا شخصيات اسطورية مثل الآلهة الوثنية، ومعجزاتهم تدعيم لتعاليمهم، فقد أراد لها الرب أن تتم على هذا النحو، وقد تعاظم دور العنصر الغيبى في التدوين التاريخي لما بعد الكتاب المقدس، إذ لحقت الملائكة والشياطين بالشخصيات الدرامية dramatis بعد الكتاب القديسون من السماء لرعاية الناس وهدايتهم وتحدى أخطائهم، واكتسب مضمون التاريخ بعدا جديدا حين امتد ليشمل الجنة والجحيم.

كما أن التقسيم الجديد للزمن قدم اطارا جديدا للكتابة التاريخية. فقد كان للكتاب الكلاسيكيين أراء مختلفة في الزمن، إذ تخيله البعض دوريا، أي أن صيرورته تمضى في دورات متعاقبة، وكانت هذه الدورات تحسب بوسائل مختلفة لتحديد «السنة العظيمة». وهو ما يؤدي إلى القول بأن كل ما حدث من قبل لابد وأن يحدث ثانية إذا ما عادت «السنة العظيمة» أما أكثر الآراء شيوعا في العالم القديم فهو الرأى القائل بأن الزمن يمضى من الماضى الى الحاضر صوب مستقبل بعيد غير محدود بنهاية. واختلف الرأى المسيحى في الزمن عن الرأيين السابقين، من حيث إنه يجعل للزمن بداية ونهاية. فالزمن يوجد فقط بين يوم الخليقة ويوم الحساب، فقد بدأ الزمن بالخلق على نحو ما سجل موسى في النصوص الأولى من سفر التكوين(٢). ثم مضى الزمن من

⁽٢) جاء في سفر التكوين ١ : ١٤ ، وقال الله لتكن انوار في جلد السماء لتفصل بين النهار --

العهد القديم إلى العهد الجديد حتى الحاضر. وسوف ينتهى الزمن بعودة المسيح ويوم القيامة. وسيحل الخلود محل الزمن والتاريخ. إذن، فالتاريخ، كما تراه المسيحية، هو تاريخ خلاص الانسان عبر الزمان.

ويقدم لنا الكتاب المقدس التاريخ ممتدا بين لحظتين محددتين في اسلوب محكم رائع. مما يجعل القارىء المسيحى الذي يقرأ عن أية فقرة يبدى دهشته الفائقة من خطة الرب المحكمة التي غطت الماضى والحاضر والمستقبل، رغم أن أية حياة زائلة لاتغطى سوى جزء تافه من التاريخ ككل. وكلمة الله كما جاءت في الكتاب المقدس تساعد على تجاوز الماضى والحاضر وعلى التنبؤ باكتمالها في الآخرة. وقد اكتشف أحد الأساتذة الفرنسيسكان في باريس، وهو «سان بونافنتير St. Bonaventure» تشبيها شعريا لهذه الرؤية المسيحية التقليدية للتاريخ، وضعه في مقدمة كتابه في اللاهوت والمسمى "Breviloquim" (١٢٥٧) يقول فيه إن الله قد شاء أن تكون قصصه الشبه بالأغنية الجميلة التي تتبدى فيها كل الأمور النابعة من العناية الالهية، ويقول:

«ليس بمقدور أى قارئ أن يقدر جمال أية اغنية مالم يقرأ كل مقاطعها. وبالمثل، لا يستطيع أحد أن يقدر جمال النظام والدقة التى تحكم العالم، ما لم يرها ككل. وليس هناك من يعيش عمرا طويلا يمكنه من أن يشهد التاريخ بأسره، كما أن أحدا لايستطيع أن يتكهن لنفسه بالمستقبل. فالروح القدس يمده بالكتاب المقدس الذي يمتد على طول النظام العالمي المحكم. شاملا وكليا».

فالرب يبدأ الكتاب ويختمه، ولكنه «يتركنا ننظر إلى نهايته»، لكى نرى ماسوف يحدث في الصفحة الأخيرة. والتاريخ الالهى ليس منشورا على حلقات «يمكن متابعتها في عددنا القادم»، بل إنه في متناولنا بين دفتى الكتاب، والمسافة بين حاضرنا والنهاية هي فقط التي ستظل مجهولة بالنسبة لنا ما لم يخبرنا الرب بشيء عنه بوسيلة خاصة. فريما يمكن للنبي أن يرى ما يبدو مظلما أمام ناظرى المؤرخ.

ولكى يمكن قراءة أى كتاب، ينبغى تقسيمه إلى فصول. وقد قام أباء الكنيسة بفحص الكتاب المقدس بدقة للكشف عما قصده الرب من تقسيم تاريخه عن خلاص الانسان إلى فصول، واخترعوا فترات جديدة لتكون بمثابة فصول عدد كل منها مرحلة من مراحل تحقيق الخطة الالهية. وكان لتقسيم التاريخ إلى فترات أن يشمل كلا من التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوى، إذ لا يمكن فصلهما عن بعضهما، طالما أن كلا

⁼ والليل. وتكون لآيات واوقات وسنين»، وتشير المؤلفة إلى الاعتقاد الشائع بأن موسى هـو كاتب التوراة، وهو اعتقاد كان مؤرخو العصور الوسطى يأخذون به تماما كما سيتضم في صفحات الكتاب التالية.

منهما من صنع العناية الالهية. ومن المهم أن نتذكر أننا لانزال نقسم التاريخ إلى فترات، حتى ونحن نتناوله من وجهة نظر علمانية. ولكل هذه التقسيمات عيوبها ونقائصها لأنها تتصف بالاصطناع والتشويه إلى حد ما. بيد أننا نستخدم هذه التقسيمات لسبب بسيط هو أن أحدا حتى الآن لم يكتشف الوسيلة التى نتناول بها التاريخ دراسة وتعليما. ولعل أسوأ ما في التقسيمات التاريخية هو أنها ترسخ وتتوطد بحيث يصعب التخلص منها. وإذا ما كان هناك تقسيم لعصور التاريخ يعبر عن اهتمامات وأفكار جيل ما، فإن التقسيم يظل يفرض نفسه حتى بعد أن يفقد جدواه وفعاليته بفترة طويلة. وينبغى على كل من يقومون بتدريس التاريخ أن يناضلوا ضد هذا الكابوس حتى يتخلصوا منه، فالعصور الوسطى بالنسبة لبوسورث Bosworth عدم صلاحية هذا التقسيم يطاردنا حتى الآن.

ومن المكن أن يكون تقسيم التاريخ إلى فترات عاملا منشطا، فالتقسيم الماركسى المتاريخ إلى فترات حسب إنماط الانتاج يقودنا إلى مناقشات وأبحاث مكثفة. إلا أن مثل هذا النقد المثمر كان مكبوتا في العصور الوسطى بسبب الاحترام الذي كان يتمتع به الكاتب «الحجة». فقد قدم القديسون تقسيماتهم التاريخية لكى يستخدمها قراء الكتاب المقدس الذي يحتوى على التاريخ الالهى. وكان مؤرخ العصور الوسطى يرون أن العبث بالتراث تهور وطيش وتجديف لأن مثل هذا التصرف قد يؤدى إلى كتابة الصفحة المقدسة من جديد. وإذا ما خالف المؤرخ هذا التيار حكما فعل البعض فلابد أن يخوض في التفاصيل. كما سيبدو ما كتبه غير حقيقى، وذلك دون أن يطرح البديل. وهكذا فإن التقسيم الذي ورثه مؤرخو العصور الوسطى للفترات التاريخية البديل. وهكذا فإن التقسيم الذي ورثه مؤرخو العصور الوسطى للفترات التاريخية كان قد تم ابتكاره في أواخر العصر القديم كما كان منتميا إلى الرؤية المسيحية الباكرة للتاريخ.

وثمة نمط من التقسيم التاريخي كان ديني الطابع. وقد تكفل القديس أوغسطين، المعلم الأساسي للكنيسة المسيحية، بالترويج له بكل ما أوتى من سلطان ونفوذ (13).

⁽٣) باحث إنجليزي معاصر.

⁽٤) هو Aurlius Augustius (٤٣٠-٣٥٤) من أبناء شمال أفريقية من أب وثنى وأم مسيحية، كان لأرائه أكبر الأثر في الكنيسة الغربية لدرجة جعلت البعض يقول «إنك لن تجد مؤلفا دينيا جيدا إلا وفيه أقتباس من القديس أوغسطين». أهم مؤلفاته التي تحمل آراءه في الدين والفلسفة والتاريخ: «الاعترافات de doctrina christiana»، «والعقيدة المسيحية» de doctrina christiana «والثالوث civtate dei »، «والعقيدة المسيحية ومدينة الله القديس أوغسطين انظر:

وقسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة تماثل المراحل الست في عمر الانسان من طفواته إلى شيخوخته، وهذه العصور الستة كتبها الرب في التاريخ منذ الأزل: أي أنها الأيام الستة التي خلق فيها العالم، على نحو ما جاء في الأصحاح الأول من سفر التكوين. وهذه الأيام الستة تدل على المراحل الست التي يمر بها الانسان، والعصور التي يمر بها العالم. وراحة الرب في اليوم السابع تعنى أن العالم سوف ينتهي في العصر السابع الذي سيكون علامة الانتقال من الزمن إلى الخلود.

وقد حدد أوغسطين مجرى العصور الستة على النحو التالى: المرحلة من آدم إلى نوح تمثل مرحلة الطفولة في مهدها الأول، ومن نوح إلى ابراهيم مرحلة الصبا، ثم مرحلة الشباب التي تمتد من ابراهيم إلى داود، ومن داود إلى الأسر البابلي لليهود مرحلة الرجولة، ومن الأسر البابلي حتى يوحنا المعمدان العصر الوسيط، أي العصر الذي يقع ما بين المجيء الأول المسيح، والمجي الثاني الذي يمثل مرحلة الشيخوخة، أي العصر الذي يشيخ فيه العالم. وبالاضافة إلى ذلك قسم أوغسطين هذه العصور إلى تقسيمات فرعية لكي يربط كل عصر بالعصر الذي يليه. وفي هذه التقسيمات الفرعية غير أوغسطين تعبيراته المجازية، فاستخدم القياس التمثيلي على الليل والنهار، وصار لكل عصر صباحه، وظهره، ومساؤه في اطار فترته الزمنية، وينقشع ظلام العصر عن صباح العصر الذي يليه.

ويفسر لنا تعاقب الليل والنهار ما قد يبدو محيرا في تقسيم أوغسطين عند الوهلة الأولى: اذ أنه يقدم لنا العصر المسيحى باعتباره عصر الشيخوخة الذى يحمل كل مظاهر أمراض الشيخوخة وأعراضها. ولكن القياس التمثيلي على الليل والنهار يكشف عن روعة هذا العصر شأن العصور الأخرى جميعا. فقد بزغ فجر العصر السادس بيوحنا المعمدان، وأشرقت شمسه بتجسد المسيح، وتوافق انتشار المسيحية مع انتصاف النهار. وقد افترض أوغسطين ـ الذي عاش عصر الاضطرابات التي شهدها أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ـ أن المساء سيحل في وقت قريب، وسينقضي العصر السادس لكي يبدأ العصر السابع، حيث ينتهي الزمن. وقد دفع توقع مجيء اليوم الآخر « في أية لحظة الآن» بالمسيحيين إلى البحث عن علامات عودة المسيح فيما يجرى حولهم من أحداث، ولكن أوغسطين منعهم من ذلك بأن أدان التفكير في تاريخ يوم القيامة: ذلك أنه يجب انتظار الوقت الذي حدده الرب والاستعداد له دون أية تخمينات رعناء.

انظر أيضا:

ونتيجة لسيادة مفهوم العصور الستة كان مؤرخو العصور الوسطى يرزحون تحت وطأة صورة قاتمة للزمن الذى عاشوا فيه. ذلك أن تعاليم أوغسطين كانت تقول إنهم يعيشون عصر شيخوخة العالم، اذ أن وقت الظهيرة قد مضى وأخذ المساء والليل يقتربان بخطى حثيثة، ومع ذلك كان العالم يتباطأ مثل العجوز المريض المقعد، الا أن الشيخوخة مها طال أمدها فلا علاج لها. لم يكن التقسيم الذى وضعه أوغسطين للزمن باعثا على التفاؤل؛ فالتقدم غير مأمول. صحيح أنه كان من المكن أن يتقدم الفرد المسيحى في ظلال الفضيلة بفضل رحمة الرب وجدارته بالخلاص. بيد أنه لم يكن هناك أمل في تقدم الانسانية ككل.

وتبدو مرونة الانسانية في حقيقة أن مثل هذه الرؤية لحتمية التدهور والذبول ثم الموت لم تثبط عزائم مؤرخي العصور الوسطى بالقدر الذي كان متوقعا. فقد كانت الحياة تبدو حلوة في نظر البعض، كما أن الأحداث، رغم أنها كانت محزنة ومخيبة للأمال، كانت تثير الاهتمام على نحو جعل من يسجلونها قادرين على استيعابها. ولم يكن باستطاعة أحد أن يتخذ موقفا محايدا حيال أحداث الفترة التي تسبق حلول الظلام وقيام القيامة. وكان هناك كتاب عديدون، كما سنرى، نسوا أو تناسوا عن اقتناع مسحة الكآبة التي أسبغها على عصرهم ذلك النظام الزمني الذي تقبلوه دون مناقشة. إذ أن فكرة العصور الوسطى كانت قد توطدت بحيث أن مؤرخي العصور الوسطى لم يكونوا يشعرون بوطأتها، وذلك لكونها فكرة تستعصى على الاختبار، ولم يكن من المكن دحضها وتفنيدها. وعادة ما تتحدى النظريات الدينية أي اختيار لكشف حقيقتها. أما الترتيب الزمني الثاني الذي ورثه مؤخو العصور الوسطى فكان اكثر مدعاة، للنقد، ومن ثم كان أشد أثارة من الأول.

ويسمى هذا الترتيب الزمنى «سياسيا ـ دينيا » «politico - religious» اذ أنه يعود في أصله إلى «فترة ما بين العهدين »، أى الفترة ما بين آخر كتب العهد القديم وأول كتب العهد الجديد. وقد شهدت هذه الفترة الصراع اليائس الذى خاضه الشعب اليهودى للدفاع عن عقيدته والحفاظ على شخصيته ضد مضطهديه. وحاول الكتاب اليهود أن يبعثوا الطمأنينة في نفوس شعبهم وأن يلوحوا بالأمل وسط دياجير الظلام واليأس. وكانت الوسيلة الطبيعية لتدعيم المقاومة هي الوعد بالنجاح في المستقبل: ذلك أنه سوف يتم انقاذ اليهود بفضل التدخل الالهي في التاريخ. وقد حول الكتاب وعدهم هذا إلى مؤلف هو المعروف باسم «سفر الرؤيا».

وتتخذ الرؤيا شكل الحلم. وهدفها التنبؤ بالنصر النهائي للشعب المضطهد لكي تواسيه في بؤسه. وكان العراف الذي يكتب الرؤيا ويسجلها يتستر تحت اسم معروف

جيدا، حتى يجعل الأمر جديرا باهتمام الناس؛ ويختفى اسمه الحقيقى ف غياهب السرية. وأشهر رؤيا لدى المسيحيين جاءتهم عن طريق العهد القديم تحمل اسم دانيال، بطل قصة جب الأسود^(٥). وقد جعل كاتب هذه الرؤيا دانيال يعيش ف فترة الأسر البابلي في عصر الملك «داريوس» ملك ميديا، و «داريوس» هذا شخصية وهمية مختلقة لا وجود لها في التاريخ. وهو يقوم بدور الحاكم اللطيف الذي يحكم اليهود. وكانت لدانيال رؤيا، فقد رأى وحوشا ثلاثة تبرز من البحر: أسد، ودب، ونمر، بأربعة رؤوس ثم يبرز وحش رابع هو الأقوى والأكثر إثارة للرعب بينهم جميعا، فيمنق الوحوش بأسنانه الحديدية ثم يسحقهم بأرجله. وللوحش الرابع عشرة قرون، ثم نما قرن حادى عشر أصغر من العشرة الباقين وسيطر عليها. وأخيرا رأى دانيال «القديم قرن حادى عشرة مهو الذى أمر بتدمير الوحش الرابع بالنيران^(١).

والكاتب، أيا كان، ربما كان يقصد بوحوشه الأربعة المالك الأربع التى كان يعرفها وهى: مملكة بابل، والميديين، والفرس والمقدونيين. وسيدمر الله المملكة الأخيرة وينقذ شعبه المختار. وحين قهر الرومان الاغريق وشادوا صرح مملكة عالمية جديدة كان لابد

⁽٥) جاء في سفر دانيال (٦: ١٠ ـ ٢٤) ما مؤداه أن الوشاة سعوا لدى الملك داريوس ضدد دانيال لانه لم ينفذ أوأمر الملك بألا يطلب أحد شيئا من أله أو إنسان سواه على مدى ثلاثين يوما، وأمر الملك بطرحه في جب الأسود ووضع حجرا على فم الجب وختمه بأختامه، وعند فجر اليوم المتالى أسرع إلى الجب حيث نادى دانيال الذي رد عليه وأخبره أن ألله أرسل ملاكه وسد أفواه الاسود فلم تضره، ففرح الملك وأمر بأخراج دانيال من الجب ثم التي بالوشاة في جب الاسود ومعهم نساؤهم وأولادهم حيث فتكت بهم الاسود.

⁽٢) يقول نص الرؤيا (دانيال: ٧) «... وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة هذا مخالف ذاك. الأول كالأسد وله جناحا نسر. وكنت أنظر حتى انتتف جناحاه وانتصب عن الأرض وأوقف على رجلين كانسان وأعطى قلب إنسان. وإذا بحيوان أخر شبيه بالدب فارتفع على جنب واحد وفي فمه ثلاثة أضلع بين أسنانه فقالوا له هكذا. قم كل لحما كثيرا. وبعد هذا كنت أرى وإذا بأخر مثل النمر وله على ظهره أربعة أجنحة طائر. وكان للحيوان أربعة رؤوس وأعطى سلطانا. بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوى وشديد جدا وله أسنان من حديد كبيرة، أكل وسحق وداس الباقى برجليه. وكان مخالفا لكل الحيوانات الذين قبله. وله عشرة قرون. كنت متأملا القرون إذا بقرن أخر أحر معفير طلع بينها وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه وإذا بعيون كعيون الانسان في هذا القرن وفم متكلم بعظائم كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام. لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالمسوف النقى وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه الوف الوف الوف كالميوف النقى وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه الوف الوف الوف الكلمات العظيمة التى تكلم بها القرن. كنت أرى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودنع لوقيد النار..» والجدير بالذكر أن عبارة د القديم الأيام، يقصد بها أله باعتباره صاحب الوجود الأذلى. (المترجم) والجدير بالذكر أن عبارة د القديم الأيام، يقصد بها أله باعتباره صاحب الوجود الأذلى. (المترجم)

لسرؤيا دانيال أن تمتد لتشمل الرومنان، وحينذاك صار الوحش الرابع يعنى الامبراطورية الرومانية. وعمل مفسرو الرؤيا على الحفاظ على رقم أربعة فأدمجوا الميديين والفرس معا في «مملكة الميديين والفرس». وتم تفسير جزء أخبر من سفر دانيال بطريقة مماثلة، إذ حلم الملك نبوخذ نصر أنه رأى تمثالا ذهبى الرأس وصدره وذراعاه من الفضة، وبطنه وأفضاده من النحاس، وساقاه من الحديد، أما قدماه فكانتا من الحديد المخلوط بالصلصال، وقد دمر التمثال وتبعثرت معادنه في مهب الرياح مثل الهشيم، وكان هذا أيضا يعنى الممالك العالمية الأربع، وتدمير المملكة الأخيرة بمثابة تمهيد ليوم إسرائيل المجيد.

وموضوع الممالك العالمية الأربع، الذي سيتكرر على التوالى، دخل في مجال التدوين التاريخي السيحي ولحق بالعصور السنة كتقسيم دورى للتاريخ العالمي. فتدمير التمثال والوحوش الأربعة الذين تحدثت عنهم النبوءة تبشر بقدوم المسيح الدجال الذي يُرمز إليه بالقرن الحادي عشر في رأس الوحش.

وقد اندادت شهرة المسيح الدجال ووحش دانيال ذى الرؤوس الأربعة بظهورها فى سفر الرؤيا المسيحى. واعتبر علماء العصور الوسطى اللاتين أن «يوحنا» كاتب سفر الرؤيا فى العهد الجديد هو القديس يوحنا الانجيلي وكاتب رسائل القديس يوحنا الرسول^(۷). وقد أبرز أحد مزيني المخطوطات الانجليل فى القرن الثالث عشر هذا

⁽٧) جاءت رسائل «يوحنا الرسول» في السفر المعروف باسم أعمال الرسل في العهد الجديد، وهو يتكون من أعمال الرسل التي تحتوى على ثمانية وعشرين إصحاحا، ثم رسائل بولس الرسول، والرسالة إلى العبرانيين، ورسالة يعقوب ورسالتي بطرس الرسول، ثم رسائل يوحنا الرسول الثلاث، وأغيرا رسالة يهوذا،

أما رؤيا يوحنا اللاهوتى فهى مادة آخر أسفار العهد الجديد وتتكون من اثنين وعشرين إصحاحا يتحدث فيها عن الرؤيا التي رأها في جزيرة بطمس حيث كان يدعو إلى المسيحية، وقد أمره «الالف والمياء والأول والأخر، أن يكتب ما يراه في رسائل إلى الكنائس السبع التي في أسيا. ويصف لنا كيف أن الصوت كان أشبه بالبوق وأن صاحبه له «شعر أبيض كالثلج» «... وعينان كلهيب نبار ويجلاه شبه النحاس النقي كانهما محميتان في أتون وصوته كصوت مياه كثيرة، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماض دو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها..، ثم يرى يوحنا بابا مفتوحا إلى السماء حيث يلبي أمراً بالصعود إلى السماء، وهناك يجد عرشا وحوله أربعة وعشرين عرشا آخرين. «... وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات معلوءة عيونا من قدام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثاني شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر...» ولكل منها سنة أجنحة معلوءة عيونا.

ثم يرى على يمين الجالس سفرا مكتوبا ومختوما بسبعة اختام لم يستطيع احد أن يفتحه أوينظر اليه، ثم جاء خروف كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين هي أرواح الله السبعة المرسلة إلى =

التعيين اشخصية يوحنا حين صور هذا السفر الأخير من الكتاب المقدس في دائرة تصويرية توضع حياة ومعجزات القديس يوحنا. وفي هذه الصورة نرى الحوارى (يوحنا الرسول) يعانى التعذيب والنفى على يدى الامبراطور دوميتيان، وهو يكتب هذا السفر في منفاه بجزيرة بطمس بناء على أمر من أحد الملائكة، ثم يفرد هذا السفر على هيئة صور. وأخيرا وبعد المشهد الأخير في سفر الرؤيا المسيحي يأتي مقتل دوميتيان ليحرره من منفاه فيعود لمواصلة عمله في التبشير بالانجيل وتحطيم الأصنام. ويعبر العرض الأسطوري عن الاعتماد السارى بأن سفر الرؤيا المسيحي يقدم رواية يعتد بها لما سوف يحدث في آخر الزمان. وقد وجدت هذه الرواية الدعم والتأييد في شخصية الحواري المحبوب.

ويؤدى بنا موضوع سفر الرؤيا المسيحى إلى موضوع آخر هو الرؤيا اليهودية، التى تبناها المسيحيون. إذ أن يوحنا يتنبأ، في تصوير شعرى بالمصائب التى سوف ينزلها الرب بشعبه على شكل فيضانات، وزلازل، وطواعين وحكام أشرار. وهؤلاء الأخيرون كناية عن الذين اضطهدوا الكنيسة بوجه عام، والأباطرة الرومان بوجه خاص، وينبغى على المسيحيين أن يتسلحوا بالشجاعة، فانتصار الحق مضمون. والمسيح الدجال تجسيد لقوى الشرفي الصراع الكوني، وتعود فكرة المسيح الدجال في أصلها إلى بعض نبوءات العهد القديم وإلى الرؤى اليهودية، على الرغم من أن المسيحيين الأوائل هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم، وهو يتخذ أحيانا هيئة الحاكم الذي يمارس الاضطهاد، كما يظهر في أحيان أخرى في صورة وحش أو تنين مطلق في الأرض، يحرز الانتصارات، بيد أنه يسقط في النهاية صريع حراب الملائكة الأبرار.

وأخذ يوحنا الوحش الرابع الذي تحدثت عنه رؤيا دانيال وصوره في صورة النذير

⁼ الأرض فاخذ السفر واخذ يفض اختامه؛ فحين فتح الختم الأول خرج فرس أبيض عليه فارس بقوس وإكليل، وعند فتح الثانى خرج فرس أحمر وعليه فارس يحمل سيفا عظيما لكى ينزع السلام من على الأرض، ولما فتح الثالث خرج حصان أسود عليه فارس يحمل ميزانا، وعند فتح الرابع خرج فرس اخضر عليه فارس اسمه الموت الهاوية تتبعه، ولما فتح الختم الخامس رأى تحت المذبح الشهداء الذين قتلوا من أجل كلمة ألله، ولما فتح السادس حدثت زلزلة عظيمة، واسودت الشمس، وصار القمر كلام، وتساقطت النجوم، وتزحزحت الجزر والجبال عن مواضعها واختفى ملوك الأرض والأغنياء والعظماء، والأمراء، والاقوياء، والناس كافة في المغاور وصخور الجبال « ... لأنه جاء يوم غضبه العظيم، ومن يستطيع الوقوف؟...».

وتمضى الرؤيا لتتحدث عن مشاهد يوم القيامة حتى تصل إلى نهاية العالم الدنيوى، والدخول فى العالم الأخر حيث يرى يوحنا « ... المدينة المقدسة اورشليم الجديدة نازلة من عند الله مهياة كعروس مزينة لرجلها...».

بقدوم المسيح الذجال. وهو مثل دانيال، يرى وحشا يطلع من البحر وله عشرة قرون وفوق القرون عشرة تيجان. والقرون العشرة تدل على عشرة ملوك سوف يحاربون فى سبيل المسيح الدجال ضد أنصار الحق حين تدنو نهاية العالم.

والوحش الرابع فى رؤيا دانيال وفى سفر الرؤيا المسيحى يثير عديدا من المشكلات، وذلك لأنه برهن على أنه مخلوق صعب المراس طويل العمر. كما أن التمثال الوارد فى الرؤيا ظل قائما رغم أن أقدامه من الصلصال المخلوط. لقد عانى الوحش من نوبات المرض، كما كان التمثال يترنح أحيانا، ولكنهما لم يختفيا. وظل كل منهما حيا على المستوى النظرى والمستوى الفعلى على حد سواء. لقد كان تقسيم تاريخ العالم إلى فترات تتوافق مع انهيار الممالك العالمية الأربع راسخا لدرجة أنه كان مازال يؤخذ مأخذ الجد حتى القرن السادس عشر. وحق للعالم الفرنسى «جان بودان Jean مأخذ الجد حتى القرن السادس عشر. وحق للعالم الفرنسي «جان بودان Bodin على أساس الممالك الأربع فى كتابه «منهج التاريخ» (١٥٦٦).

لقد قدم التراث اليهودى النموذج والتقسيم إلى فترات تاريخية على حد سواء. إذ أن المؤرخ اليهودى يوسيفوس فلافيوس الف كتابيه «تاريخ اليهود القديم»، «والحرب اليهودية» في أواخر القرن الأول الميلادى، وتمت ترجمة الكتابين من اليونانية إلى اللاتينية، وأمست الترجمة اللاتينية لمؤلفات يوسيفوس من لوازم مكتبات العصور الوسطى. إذ أن علماء تلك العصور اعتبروا «تاريخ اليهود القديم» بمثابة ملحق للعهد القديم، أما «الحرب اليهودية» فكان عبارة عن رسالة تاريخية تتناول موضوعا معينا وهي مكتوبة وفقا للاسلوب الكلاسيكي المألوف. ولم يكن يوسيفوس تنبؤيا في نظرته وصف المساهد الحية للمعارك ويصفا مرعبا لاحداث حصار بيت المقدس، مما فتح المجال أمام مؤرخي العصور الوسطى لكي يقتبسوا منه عند وصفهم للمعارك ومشاهد الحصار.

أما أول طراز مسيحى واسع النطاق في التدوين التاريخي، فهو ذلك الذي كتبه اليوسيبيوس أسقف قيسارية (^). وقد فرغ من تأليف كتابه «التاريخ الكنسي» سنة

⁽٨) Euschius (حوالي ٢٦٠ ـ ٣٤٠) أول مؤرخ عظيم للكنيسة المسيحية وصديق الامبراطور قسطنطين العظيم ومحل ثقته، ولد بفلسطين وتنقلت به الاحوال حتى صار اسقفا لمدينة قيسارية سنة المادة المنادة المنادة المنادة المنادة المنادة الكنسي المنادة المنادة المنادة المنادة الكنسي المنادة الكنسي المنادة الكنيسة وتاريخها الباكر ويتحدث عن أباء الكنيسة والمنادة المنادة ا

977، ولم يلبث أن ترجم إلى اللاتينية. وليس هناك مسيحى قبله كتب تاريخ الكنيسة في الفترة التالية للعهد الجديد. كما أنه لم يوجد مسيحى قبله تمكن من تطويع التاريخ العالمي واستغلاله في الجدل مع الوثنيين. إذ كان «التاريخ الكنسي» كونيا في مجاله. كما أن أيوسيبوس أطلق لنفسه العنان لكى يحكى قصة العناية الالهية. ففي رأيه أن الرب استخدم اليهود بطريقة مباشرة، كما استخدم الأمميين (من غير اليهود) بطريقة غير مباشرة، من أجل تحقيق خلاص الانسان. فقد حقق أوغسطس قيصر السلام لرعيته، مما هيأهم لتقبل تعاليم الانجيل التي انتشرت بينهم، كما أدى إلى الاعتراف بها كديانة للدولة.

وأكد «أيوسيبيوس» على شمولية مجال التاريخ الذى تناوله «التاريخ الكنسى»، بأن كتب لوحات زمنية (كرونولوجية) لكى يربط التاريخ الذى عالجه الكتاب المقدس بالتاريخ الوثنى. وتعلم قراؤه المسيحيون أن التاريخ الحقيقي ينبغى أن يكون عالميا. فمن الممكن الكتابة في موضوع تاريخي واحد، ولكن المؤرخ الذى يهدف إلى ما هو أوسع من ذلك يجب أن يكتب تاريخ العالم بأسره. ويجب أن يتناول تاريخ اليهود، والامميين، والمسيحيين، طالما أن الرب قد جعل الثلاثة جميعا داخل إطار خطته. وصارت العالمية مثلا أعلى يسعى المؤرخون الالالالاتين إلى تحقيقه. كما أن بؤرة التاريخ تحولت بسقوط شمال أفريقيا وأسبانيا في أيدى المسلمين، ولم يعد البصر المتوسط بحرنا الروماني mare nostrum، كما كان بالنسبة لأيوسيبيوس. ورغم ذلك؛ فإن مفهومه المحدود للعالمية كان له تأثيره السلبي المعوق على مؤرخي العصور الوسطي.

إلا أن المحاولة الأولى للتغطية الكاملة لتّاريخ العالم لم تأت من أحد المسيحيين، إذ أن العالم الفارسي رشيد الدين (ت: ١٣١٨) (٩) جمع تاريخا للعالم بأسره في حدود

⁼ زمن إبراهيم عليه السلام. ولكن النص اليونانى للمدونة مفقود، وبقيت لها ترجمة أرمينية، ونسخة لاتينية معدلة كتبها جيروم. وكان ليوسيبيوس تأثير كبير في مجال التراجم الملكية؛ إذ أن كتابه عن حياة قنسطنطين يعتبر واحداً من أهم الأعمال في الأدب الوسيط، لأنه وضع المثال لكتابة سيرة نموذجية عن ملوك العصور الوسطى وقد سار كاتبو التراجم الملكية على نهجه.

انظر: . Cantor, Med, hist, pp. 37-8, 42-6, 80-7, 90-105.

وكمذلك الغمراوى: المحضل ص ٦٧ م ص ٦٨؛ واسحق عبيد: من ألارك إلى جستنيان: من ١٥٨ من ١٥٨. (المترجم)

⁽٩) تقصد المؤلفة المؤرخ الفارس المسلم رشيد الدين بن عماد الدولة أبى الضير الهمذانى مساحب كتاب «جامع التواريخ»، وكان رشيد الدين من علماء أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل السابع الهجرى (١٣، ١٤ م)، كما كان من المع أطباء زمانه، أتاح له علمه أن يحتل مكانة طبية =

معرفته بهذا العالم. فقد كان يتمتع بحماية إمبراطور مغولى منحه التيسيرات التى سبهلت له سبيل جمع المعلومات. ويتضمن تاريخ الرشيد معلومات عن أماكن نائية مثل إيرلندا والصين. وتبدو المحاولات اللاتينية لكتابة تاريخ عالمي تافهة بالنسبة له. ومع ذلك فقد ظل كتاب «التاريخ الكنسي» يصحح أية اتجاهات صوب المحلية المجردة.

لقد كان تاريخ ايوسيبيوس اكثر جمودا ورتّابة من النمط الكلاسيكى الوثنى: ذلك أن المناقشات البلاغية والأساليب الفنية التى استخدمها المؤرخون القدامى حوهى الإساليب التى كانت تقنع قراءهم بالموافقة على آرائهم لم تكن لتناسب اسقف قيسارية الذى كان يريد إقناع الوثنيين والمسيحيين على حد سواء بصدق روايته. وكان ذلك عملا شاقا ومجهدا كصعود التل. ذلك أن انتصار المسيحية على العبادات الوثنية استنفر طاقات المثقفين من غير المسيحيين، فدخلوا مع المسيحيين في حوار يتسم بالحيوية الدافقة. وراح أيوسيبيوس يبحث عن البرهان القوى الذى يدحض به آراء الوثنيين، ومن ثم امتلأت صفحاته بالأدلة، كما نسخ الوثائق التى أصدرتها الحكومة الامبراطورية لتدعيم روايته عن الاضطهاد الذى جاء التسامح في أعقابه. كذلك كانت نسخ المراسيم الصادرة عن المجامع الكنسية وقوائم الأساقفة تقدم له ما يؤكد كلامه عن التاريخ الكنسي. وظل هذا رأيه حتى وصل إلى الفترة التى كان باستطاعته أن يكتب عن حوادثها كشاهد عيان. وهنا نجده يحيلنا إلى تجربته الشخصية كما يحيلنا إلى الوثائق. إذ أن أيوسيبيوس يصف الأشخاص الذين قابلهم، والأماكن التى زارها، والمبانى التى رآها.

كان إثبات الوثائق في المؤلف التاريخي يعنى كسر قواعد التأليف البلاغي. حقيقة ان سويتونيوس كان أسبق في هذا؛ بيد أنه كان يكتب في موضوع أقل بلاغية من الموضوعات التي اختارها سالست أو ليفي. ويبدو تحرر أيوسيبيوس من التراث الكلاسيكي واضحا في إحدى الخطب التي تضمنها تاريخه، وهي ليست خطبة زائفة

⁼ فى بلاطات سلاطين فارس المغوليين حيث قضى فى خدمتهم خمسين عاما كان اثناءها محل رضاهم وتقديرهم بحيث اغدتوا عليه اموالا كثيرة انفقها على مشروعات عامة نافعة. وقد مات مقتولا فى السادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٧١٨هـ/١٣١٩م بقرية جسقدر قرب تبريز بفارس، وقد ترجم كتابه إلى اللغة العربية تحت إشراف الدكتور يحيى الخشاب، ونشر تحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومى ابتداء من سنة ١٩٦٠م.

وكان رشيد الدين الهمذانى يجبد عدة لغات هى الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما كان يجيد اللغة المسينية ايضا. وقد الف عددا كبيرا من الكتب والرسائل في موضوعات شتى. انظر الترجمة العربية للمقدمة التي كتبها المستشرق كاترمير في الجزء الأول من المجلد الثاني من جامع التواريخ، ص ١ ـ ص ١٧٩.

ابتكرت على سبيل التألق البلاغي، بل إن أيوسيبيوس يعرض لنا موعظة حقيقية، القاها هو نفسه في إحدى المناسبات الدينية، احتفالا بإعادة بناء كنيسة صور بعد أن أبيحت الممارسة العلنية لشعائر الديانة المسيحية. وتدخل خطبته الوعظية في نطاق التسجيل التاريخي، وقد صار تضمين الدليل الوثائقي على نحو ما جاء في «التاريخ الكنسي» تقليدا يحتذيه مؤرخو العصور الوسطى الذين ساروا على نهج أيوسيبيوس وأخذوا يسجلون المواثيق، والامتيازات، والمراسيم البابوية، والخطابات، والقرارات، والخطب في تواريخهم وحولياتهم. وينبغي على المؤرخين المحدثين أن يعبروا عن شكرهم وامتنانهم لأسقف القرن الرابع الذي أرسى هذا التقليد، فقد فقدت وثائق أصلية كثيرة، ولكننا نعتمد على النسخ التي حفظها لنا مؤرخو العصور الوسطى.

ويظهر مدى محدودية تاريخ أيوسيبيوس من عنوانه، فهو تاريخ للكنيسة. وللتاريخ العلمانى مكانه باعتباره إطارا، فقط، للتاريخ الكنسى. ولم يكن المؤرخ الذى يريد أن يكتب عن السياسة أو المعارك ليجد لدى أيوسيبيوس ما يعينه على ذلك. وظلت النماذج الكلاسيكية تلعب دور المرشد الوحيد في مجال كتابة التاريخ العلماني. وكانت هناك إجابتان متاحتان للمشكلة. فهل كان من الممكن محاولة الحفاظ على التماييز بين التاريخ العلماني والتاريخ الكنسي واختيار واحد منهما موضوعا للكتابة؟ أم كان ممكنا الخلط بين النوعين؟ كان الحل الأول أصعب من أن يحاول أحد القيام به، لا سيما وأن أهمية الكنيسة كانت تتعاظم يوما بعد يوم. ولم يكن أمام مؤرخي العصور الوسطى أي بديل عن كتابة التاريخ العلماني والتاريخ الكنسي سويا، على الرغم من أن المؤخوعين لا يتفقان.

قدم أوغسطين النموذج ونظام تقسيم الزمن لمن خلفه من المؤرخين. وكان هذا أيضا موضوعا دينيا. الا أن هناك موضوعين تاريخيين يسريان في كتابه عن «مدينة الله». وقد جغل أوغسطين من أحدهما مادة لمجادلة الوثنيين في اعتراضهم على المسيحية بقولهم إن الاله المسيحي فشل في حماية مواطني الامبراطورية الرومانية من الغزوات الجرمانية، ورد أوغسطين بأنه لا يجب لوم المسيحية على سقوط روما، وأشار إلى أن التاريخ الوثني قد سجل أخبار الحروب الأهلية والخارجية، والمجاعات والمصائب من كل نوع. وعلى أية حال، كان البؤس المحدق بالحياة في عصر الوثنية أشد وطأة منه في العصر المسيحي. أما موضوعه الثاني، فمؤداه أن البشر قد شادوا مدينتين عبر عصور العالم السنة؛ وهما مدينة الله التي تواجه مدينة الشيطان. لقد كان هابيل الحرجل العادل، وقابيل الذي قتله بمثابة النموذج الأصلى الذي أخذت عنه هذه الفكرة. فالأخوان هما سكان المدينتين في كل العصور. وعلى الأرض تداخلت المدينتان، ولكنهما فالأخوان هما القيامة. وحينئذ ستكون هناك مدينة الله التي تضم في رحابها الناجين

من الموتى، على حين تضم مدينة الظلام من حلت بهم اللعنة.

وما يعرضه كتاب أوغسطين هو رؤية للتاريخ، وليس مخططا تفصيليا للتدوين التاريخي. ومفهومه عن المدينتين مربك ومحير لأنه لا يجعل الكنيسة المرئية قرينا لمدينة الله: وذلك لأن كثيرين من المسيحيين منتمون إلى مدينة الظلام. فضلا عن أن كتابه «مدينة الله»، كان طويلا جدا وكثير الاستطراد بحيث لم يلق من الشعبية والرواج مثلما أحرزته كتبه الأخرى في العصور الوسطى. وقد أثر هذا الكتاب، الذي نقله أوروسيوس Orosius تلميذ أوغسطين في صورة مشوهة، على مؤرخي العصور الوسطى.

أما كتاب «التاريخ ضد الوثنيين»، الذي كتبه أوروسيوس، فقد قدم لنا المخطط التفصيلي لتدوين التاريخ، وهو المخطط الذي افتقدناه في «مدينة الله». ذلك لأن أوروسيوس ــ الذي كان كاهنا أسبانيا من مريدي أوغسطين ــ أخذ على عاتقه مهمة تجسيد أفكار أستاذه عن التاريخ العالمي. ويقدم كتابه الذي قدمه إلى أوغسطين سنة 1 كلاع تفسيرا فجا لفكر أوغسطين، وهذا هو السبب في أن الكتاب حظى بشعبية واسعة. وقد رسم أوروسيوس صورة فظيعة للتاريخ كسجل لجرائم البشر وحماقاتهم، وذلك في إطاول التناول التصويري الذي عالج به الموضوع الأول في كتاب «مدينة الله» أولذي يرد على الوثنيين القائلين بأن الآله المسيحي فشل في حماية روما ومواطنيها من غزوات الجرمان]. وهذه الحماقات والجرائم، التي يرتكبها الحكام أساسا، تقود إلى الحروب الدامية. وينظر المؤرخ من برجه العالى إلى ما يتخلف عنها من أشلاء متناثرة هنا وهناك. ولكي ننصف أوروسيوس، نقول إن التواريخ القديمة التي قرأها كانت كلها تقريبا تحمل كلمة «الحرب» في عناوينها.

وكان تقسيم أوروسيوس للزمن على أساس الممالك الأربع هو أكثر أجزاء كتابه أصالة. فقد جعل الوحش الرابع في رؤيا دانيال كناية عن الامبراطورية الرومانية، ولكنه استأنسه؛ وذلك لأنه كان يعتقد أن الامبراطورية هي فقط التي تستطيع حماية الناس ضد البرابرة، كما كان يأمل في أن تظل هذه الامبراطورية قائمة حتى تمتص غزواتهم. وكان أستاذه موقنا من أن اختفاء روما كقوة عالمية لا يعنى بالضرورة نهاية العالم؛ فثمة دول أخرى يمكن أن تحل محل الامبراطورية، كما يمكن أن تكون الدول الأصغر حجما من الامبراطورية أقل منها جشعا، لأنها أقل قوة. ومن المحتمل أنه لو كان علماء العصور الوسطى قد قرأوا «مدينة الله» قراءة متأنية، لما أخذوا بآراء أوروسيوس دون مناقشة. وذلك لأن ما حدث بالفعل هو أن كتابه «التاريخ ضد الوثنيين» قد أذاع فكرة أن سقوط روما سيكون نذيرا بقدوم المسيح الدجال. فالقرون

العشرة التى فى رأس الوحش الرابع فى رؤيا دانيال تعنى أن عشرة ملوك سوف يقتسمون الامبراطورية فيما بينهم، ثم يأتى المسيح الدجال ليصبح سيدا عليهم، كما تسيد القرن الحادى عشر القرون العشرة الأخرى. وسوف يقترن قدومه بالمتاعب التى تنبأ بها القديس يوحنا اللاهوتى فى سفر الرؤيا فى العهد الجديد دلالة على ما سيبتلى به العالم قبيل البعث الثانى للمسيح.

ووفقا لفكرة اوروسيوس، كان عصره جزءا من فترة الملكة السرابعة. إذ كانت الامبراطورية الرومانية مازالت تحتفظ بوحدتها، وسوف يكون تقسيمها نذيرا بيوم القيامة. وكان أوروسيوس مفرطا في ثقته بمغزى التاريخ بدرجة جعلته «يلعب دور الرب مع شخصياته». وهو الأمر الذي جعله ينال حظوة أكبر لدى القراء الذين يبحثون عمن يحدد لهم ما يفكرون فيه. ويتميز «التاريخ ضد الوثنيين» بكونه كتابا شاملا سهل الفهم، مما جعله أوسع الكتب انتشارا في العصور الوسطى.

لقد كتب اوروسيوس التاريخ كما لو كان قصة مفعمة بالمصائب والرزايا. وتبعه ف ذلك كل من قلدوه. وثمة أسقف عاش في القرن الرابع هو فريكولف الليزى Freculph كتب محذرا قراء مدونته بقوله:

« إن معظم كتاب التاريخ، لاسيما الاغريق والرومان، يبداون روايتهم بنمرود بن بعل الذى حكم شعوبا كثيرة، وهدفهم أن يصفوا ما تصير إليه الحروب، وتحطيم الملوك، والبؤس الذى حاق برعاياهم، لكى يعلمونا أن الحروب التى يشنها الملوك لا تؤدى إلا إلى إلحاق الضرر بهم».

فالحروب قاسية عابثة، لكن الحكام، بوصفهم حمقى أو مجرمين، لا يكفون عن التجارب. هذه هى وجهة نظر أوروسيوس. وعلى أية حال، فإنه على الأقل جعل التاريخ جديرا بالتسجيل. وكان لكتابه «التاريخ ضد الوثنيين» تأثيره من حيث تدعيم رؤية أيوسيبيوس لعالمية التاريخ. كذلك علم أوروسيوس قراءه أن الجغرافيا تنتمى إلى التاريخ. وقد أوضح كل من قيصر وسالست أهمية الجغرافيا في رسائلهم التاريخية المحدودة؛ ولكن أوروسيوس عرض لها على نطاق عالمي الاتساع (بقدر ما كان «العالم» يعنى بالنسبة له). إذ أنه بدأ كتابه بمسح جغراف للقارات الثلاث التي بعرفها: أوربا وآسيا وأفريقيا.

وقد ترجم الملك الفرد ملك وسكس King Alfred of Wessex تاريخ أوروسيوس إلى الانجليزية كجزء من برنامجه لتعليم شعبه، باعتباره واحدا من النصوص التى اعتقد انها ضرورية لتعليم الشعب. ولأن جغرافية أوروسيوس كانت ترتكز على البحر المتوسط، فقد الحق بها الفرد معلومات شيقة عن بحر الشمال ومناطق البلطيق، قدمها

له أحد رؤساء البحارة. وقد تبنى الملك قول أوروسيوس بأن الجغرافيا هي الخلفية التي يقوم عليها التاريخ.

كذلك ترجم الفرد كتاب بوبئيثيوس (١٠) «سلوى الفلسفة »، وهو الآخر كتاب لا غنى عنه. إذ يمضى بوبثيوس بنا إلى آخر تلك المفاهيم الكبرى التى ورثها مؤرخو العصور الوسطى عن أواخر العصر القديم. و «سلوى الفلسفة » ليس كتابا في التاريخ، ولكن المؤرخين أخذوا عنه موضوع عجلة الحظ. وقد كتب بوبثيوس هذا الكتاب باعتباره ضحية لتقلب الحظ. فقد عمل في خدمة ثيودوريك ملك إيطاليا الأريوسي المذهب، وكانت له مكانته الباهرة كموظف مدنى ثم ألقى به ثيودوريك في غياهب السجن، متهما إياه بالمشاركة في المؤامرة التي حيكت ضد الأريوسية، لأن بوبئثيوس كان كاثوليكيا ورومانيا رغم أنه عمل في خدمة حاكم من القوط الشرقيين. ومات في سجنه سنة ٢٤٥. وقد وضم كتاب «السلوى» في شكل حوار بينه وبين الفلسفة التي جسدها في صورة سيدة وضم كتاب «السلوي» في شكل حوار بينه وبين الفلسفة التي جسدها في صورة سيدة

⁽١٠) Anicius Manlius Severinus Boethius عتبسه البعض آخر الأبساء وأول المدرسيين Scholastics، وهو سليل عائلة رومانية أرستقراطية نشأ يتيما ولكنه نبغ منذ وقت مبكر في مجال العلم والسياسة، كان فيلسوفا ورجل دولة. وبدأت علاقت السياسية بثيودوريك الأول Theodoric I ملك القوط الشرقيين في إيطاليا منذ وقت مبكر، ربما سنة ٤٠٦ او سنة ٤٠٤ حين دخل ثيودوريك إلى روماً. كان خبيرا في الميكانيكا، والموسيقي والرياضة، والمالية. بيد اننا لا يجب أن ننظر إليه باعتباره ظاهرة منعزلة عن عصرها، لأنه كان متماشيا بارائه الفلسفية مع روح العصر الذي عاش فيه؛ فقد عاش تحت حكم ملك قوطى شرقى كان يؤمن بالمثال الروماني على نحو يفوق ايمان أسلافه الرومان انفسهم، ولذا عمل على إرساء دعائم القانون والنظام في ربوع إيطاليا، كما كان ميالا إلى نشر السلام رغم الاضطرابات العاصفة التي عرفتها أوربا في ذلك الحين بسبب الغزوات الجرمانية، وقد استعان ثيودوريك في سبيل ذلك بمجموعة من المفكرين ذوى الإصول الأرستقراطية الرومانية مثل كاسيودوروس Cassiodorus ويؤيثينوس (أنظر: Cantor, Med. hist. pp. 123-28) ولكن معارضة بؤيثيرس لبعض تصرفات واجراءات ثيودوريك، ثم اشتراكه في المؤامرة التي حيكت للاطاحة بحكم القوط الشرقيين في إيطاليا أودت به إلى السجن في بافيا حيث نفذ فيه حكم الاعدام سنة ٧٤٥. واثناء السجن الف كتابه الأشهر وسلوى الفلسفة De Consolatione Philosophiae وأسلوب الكتاب مزيج من الشعر والنش أما مضمونه فيوضح أفكار صاحبه الفلسفية التي يبدو فيها تأشره بالرواقية والافلاطونية الجديدة، وقد أثار هذا الكتاب الذي لم ترد فيه أية أشارة للمسيح أو الكتاب المقدس عدة تساؤلات حول عقلية بوئثيوس اكانت عقلية مسيحية أم وثنية (انظر: Rand, Founders of the (Middle age, pp. 135-80)، وقد الف بوثيثيوس عددا من الكتب في اللاهوت والعقيدة. كما الف في الرياضة والموسيقي وكتب شروحا وتعليقات على شيشرون وبوفيري فضلا عن ترجمته لكثير من اعمال أرسطو إلى اللاتينية (انظر: اسحق عبيد، من أرلاك إلى جستنيان، ص ١٦٢ .. ص ١٦٤، وانظر نص الترجمة المتعة للكتاب الأول من سلوى الفلسفة في نفس الكتاب، من ٢١٧ _ من ٢٢٨، والنص اللاتيني من ۲۰۷ ... من ۲۰۸).

تواسيه وتفرج من كربته. فهى تشرح له أن الحظ قد أوقع به، ثم تستطرد لتصف ربة الحظ التى تتجسد هى الأخرى فى صورة سيدة. وهذه الربة المتقلبة تدير عجلتها، فهى تفسد أحباءها وتبالغ فى تدليلهم أنا، ثم توقع بهم إذا ما عن لها ذلك أنا أخر. ومن العسر إلى اليسر يتقلب أحباؤها والعكس، فالحظ كالمرأة «متقلب دائما». وتتسامل الفلسفة لماذا يتبرم بوئثيوس من سلوك ربة الحظ العادى؟ أن الرجل العاقل يرى فى النجاح أمرا عابرا.

وصارت عجلة الحظ «أكليشيه» دون أن تفقد ما فيها من عوامل الاثارة إذ أن بوئثيوس كان حريصا على أن يقدم ربة الحظ بوصفها أداة فى أيدى العناية الالهية، فالكبرياء الضائعة والسقوط الذى يعقبها أمر قدره الله. إلا أن عجلة الحظ اقترحت نظرية للسببية داخل الاطار المسيحى. فإذا كان أوروسيوس قد أرسى سيادة التاريخ العالمي فى مجال التدوين التاريخي، فإن بوئثيوس قدم السبب التقريبي لظهور الاسرات الحاكمة، والعائلات والأفراد، وسقوطهم. وكان الحظ الذى قدمه فى هذا المجال جديرا بما ناله من شعبية. وإذا كان المؤرخ المحدث لا يستنجد بربة الحظ التي تدحرج عجلتها (لتفسير العلاقة السببية بين الظواهر والأحداث التاريخية)، فإنه لايزال يلجأ إلى الصدفة فى بعض الحالات، حين لا يجد تفسيرا آخر فى متناوله. لقد كان مناك عنصر لا يمكن حسابه فى الصراع الدائر فى البلاط هو الذى دمر بوئثيوس. وهذا العنصر موجود أيضا فى الخصومات والقضايا الناشبة بين العائلات المتنافرة. وتعتبر عجلة الحظ تدعيما لذلك العامل المحير الذى لا يمكن رصده فى شئون البشر.

كانت سير القديسين hagiography، أى كتابة قصص حياة القديسين ومعاناتهم (استشهادهم) حرفة مزدهرة طوال العصور الوسطى، وهى ليست داخلة في نطاق هذا الكتاب، بيد أن الدارس في حاجة لمعرفة قواعدها وتقاليدها، إذ كان لابد للمؤدخ في العصور الوسطى أن يقرأ أو أن يستمع إلى سير القديسين، وغالبا ما كان المؤرخون يكتبون في هذا الموضوع، وبالتالى كان لابد لسير القديسين أن تترك بصماتها على المؤرخ وهو يدون تاريخه أو مدونته.

وقد اتخذت تقاليد كتابة سير القديسين شكلها منذ أوائل القرن الرابع. فثمة سيرة يونانية للناسك القديس أنطونيوس (ت. ٣٥٦) كان الغربيون يقرأونها في ترجمة لاتينية. كما كتب سولبيكيوس سفيروس Sulpieius Severus سيرة القديس مارتان التورى، الذي كان أسقفا وناسكا، باللغة اللاتينية حوالي سنة ٣٩٧. وهنا نجد سيرتين نموذجيتين، احداهما لناسك، والأخرى لاسقف. كان العرف يحتم أن يكرس المؤلف السيرة لصديق له، وربما يكون قد كتبها بناء على طلبه. وحينئذ يعتذر في لباقة لكونه لا يكتب بأسلوب رشيق. وبقدر ما ناله من تعليم كانت تتجلي لباقته. وكان سولبيكيوس

ينتمى إلى الصفوة المتعلمة، فدقق ف أسلوبه، ولذا جاء مستواه عاليا.

وكان عرض حياة القديس عادة ما يسنير على نهج القواعد القديمة المتبعة في كتابة التراجم أو المراثى البلاغية. إذ كان بطل السيرة يوضع داخل إطار نموذج مقرر سلفا: فهو إما قديس منذ نعومة أظفاره، وإما خاطئ اهتدى إلى طريق التوبة. وكان لدى المؤلف مجموعة قياسية من المعجزات ينبغى عليه أن ينسج على منوالها مثل «حلم الأم الحامل» الذى يتنبأ بمستقبل الجنين الذى لم يولد بعد، وهو موضوع يعود في أصله إلى العصر الوثنى القديم. كذلك كانت للشياطين أدوارهم المعهودة في غواية البشر. وكان كاتب سير القديسين في العصور الوسطى يحذف التفاصيل التافهة مثل التواريخ ولا يهتم بالتسلسل الزمنى، مثلما كان يفعله سلفه كاتب المراثى في العصر القديم. ونادرا ما نجد استثناء لهذه القاعدة. ذلك أنه كان من المعتقد أن ذكر هذه التواريخ قد يكسر التدفق البلاغي، بل إنها قد تنتزع القارئ أو المستمع من قراءته المقدسة. فماذا تعنى التواريخ وما هي أهميتها في تبجيل أحد الرجال المقدسين؟

وقد أدت الخلفية الثقافية لسوابيكيوس إلى تقديمه لبعض الملاحظات الكلاسيكية فى الأسلوب والمحتوى على السواء. فقد عارض القديس مارتان فى أن الأبطال والحكماء الوثنيين يمكن أن يكونوا قدوة حسنة للمسيحيين، وفى الوقت نفسه كان معجبا بفضائل الوثنيين الطيبين، كما أنه أدخلهم فى نسيج قصته. وهو يدمج السوابق الواردة فى الكتاب المقدس بالسوابق الوثنية. فالقديس يصير بطلا باعتباره «جنديا من جنود المسيح»، والحكيم هو من يعلم الحكمة المسيحية. كذلك كانت للبطلات من النساء أدوارهن فى قصته، فثمة شهيدات، وناسكات، وراهبات فى ثنايا كتابه.

وثمة سؤال يطرح نفسه عند هذه النقطة: لماذا احتاج مؤرخو العصور الوسطى إلى نماذج يقلدونها في شتى الموضوعات التى عالجوها؟ لماذا لم يستطيعوا أن يكتبوا ما كانوا يعتقدون أنه مناسب دون أن يلجأوا إلى اختيار نموذج يطوعون رواياتهم وفق قواعده؟ إن التفكير والتأمل في هذين السؤالين للحظة يكشف لنا أننا لا نزال نستخدم النماذج، ابتداء بالمقالات التى نتعلمها في المدرسة ونحن صغار. وذلك لأن الأنماط الجديدة تتطور في بطه. فمثلا، استغرق الأمر وقتا طويلا حتى يتخلى «التاريخ السياسي» القديم عن مكان بجواره للتاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي. لأن النمط الجديد يبدأ في شق طريقه إلى الظهور بمجرد أن تجبرنا الظروف الجديدة على رؤية الماضي بعين جديد، ومن ثم ترغمنا على قبول ما لا يكون مألوفا لدينا. ويمكن أن نشهد عملية التطور نفسها في العصور الوسطى الباكرة. فقد ابتكرت أنماط جديدة في مجال التدوين التاريخي إلى جانب الأنماط القديمة. وتم تدعيم النماذج الكلاسيكية

والمسيحية بنماذج جديدة، كان من المكن نسخها بحيث تلائم الحاجات الجديدة. لقد كانت أوربا بعد الموجة الأولى من الغزوات البربرية مختلفة جد الاختلاف عن عالم العصر القديم المتأخر بحيث لم يعد ممكنا أن يكتب تاريخها بنفس أساليب العالم القديم.

كانت سيرة القديس موضوعا شبه تاريخى. وقد جعلها انتشارها وقواعدها الراسخة تظهر في صورة الجار الذي يعتدى على املاك جاره، أعنى التدوين التاريخى. وقد اتخذ هذا التعدى طريقة واحدة أساسا، إذ كان تأثير كتابة سير القديسيين على المؤرخين أكبر مما أخذه كتاب هذه السير من المؤرخين. ذلك أن سير القديسين كانت تطرح نموذجا مغريا للكتابة التاريخية التى تتحلل من ذكر التواريخ.

الفصل الرابع

التراث البربرى والعصور الوسطى الباكرة

لم يعرف العالم القديم مؤلفا عن تاريخ أحد الشعوب البربرية. وكتاب تاكتيوس المعروف باسم Germania كتاب وصفى أكثر منه كتاب تاريخ. ولم يكن اليهود، شعب الشائد وأصحاب التوراة، يعدون من الشعوب البربرية. ولكن الغزاة البرابرة الذين داهموا الامبراطورية الرومانية دخلوا حلبة التدوين التاريخى حين شادوا ممالكهم على أنقاض الامبراطورية. وأنجبوا أربعة من كبار المؤرخين هم: جوددان Jordanes (ت ٥٠٥٤) مسؤرخ القوط، وجسريجورى التورى Gregory of Tours (ت ١٩٥/٥٩٥) مؤرخ الفرنجة، وبيديه Bede (ت. ٥٣٥) مؤرخ الانجليز، ثم بولس الشماس Paul The Deacon (ت ٢٩٩٩) مؤرخ اللمبارديين. وقد بقيت تواريخهم عبر السنين بشكل أو بآخر. وكانت مؤلفات بيديه أكثرها شيوعا. إذ درج الكتاب اللاحقون على الاقتباس منها، واختصارها، والنسج على منوالها.

وظلت وحدة التاريخ قائمة لم تنكسر: ذلك أن الغزاة حين اعتنقوا المسيحية، واعموا انفسهم مع مثل العالم القديم. وكان الرومان قد ضربوا المثل ف تزييف الأصول الجنسية. إذ أن فرجيل قد أحضر اينياس واتباعه الطراوديين إلى سهل لاتيوم لكي يشيدوا لانفسهم مملكة، وذلك لكي يمجد الرومان الأوائل. كذلك زعم جوردان ـ الذي اعتمد على مؤلف تاريخي مفقود لكاسبودوروس _ أن القوط ينتمون في الأصل إلى سلالة ورد ذكرها في التراث الكلاسيكي وفي الكتاب المقدس: فهم ينبحدرون من نسل العملاق ماجوج الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس، ومن نسل الاسكيثيين Scythians (وهم شعب يعرفه مؤرضو العصور القديمة). أسا جريجوري التوري فقد قنع بالأسطورة القائلة بأن الميروفنجيين ينحدرون من نسل أميرة فرنجية اغتصبها وحش بحرى اثناء استحمامها. وسرعان ما ابتكر المتعلمون ما يسد الفجوة بين الاثنيناء فأرجع الفرنجة أصلهم إلى يافث بن نوح الذي زعموا 'انه الجد الأعلى للطرواديين، وقد جاب الطرواديون - أجداد الفرنجة الأوائل على زعمهم - أنحاء البلاد خارج طروادة كلاجئين حتى استقر بهم المقام في غالة. وكان بيديه عالما من طراز راق فلم يزور في أصل شعبه، وذكر لنا ببساطة معلوماته عن الأصول الحقيقية للانجليز، والسكسون، والجون Jutes، كما سجل مزاعمهم بأنهم يُنحدرون من سلالة الهـة الشمال. وقـد اعترف بواس الشماس أيضا بالأصل الشمالي للمبادريين رغم تقبله لفكرة أنحدار

الفرنجة من نسل الطرواديين باعتبارهم (اسلافنا الذين سلموا الزمام إلينا). وفي كل من هذه الحالات كانت المسافة بين الأصول المزعومة وأماكن الاستيطان الحالية تستدعى اختلاق الروايات الخيالية. وسرعان ما قيل إن بروت Brut الطروادي كان قد فتح بريطانيا قبل قدوم الرومان بزمن طويل.

وقد استمر هذا النمط من التفكير التاريخي واختراع الأصول العريقة للشعوب الجديدة سائدا بحيث صارت كل بلدة أو إمارة تقحم نفسها في أحداث التاريخ القديم، رغم أنه قد لا يكون لها تاريخ على الاطلاق، وعلى سبيل المثال وجد من يزعم بأن الملك اللاتيني تورنوس Turnus هو الذي بني مدينة تورني Tournai وأن مدينة كراكاو Cracow اشتقت اسمها من الكلمة التي تعنى «مدينة اغريقية»، حيث إن البولنديين ينتمون إلى أصول يونانية: إذ أن أسلافهم هزموا الاسكندر الأكبر، ثم شقوا طريقهم بالحرب صوب الشمال حتى استقروا في بولندا. هذه الخيالات قد تثير فينا مشاعر الدهشة، بيد أننا يجب أن نتذكر أن أصول البرابرة لا تزال مجهولة حتى اليوم. وثمة فروض في هذا المجال يطرحها العلماء المحدثون تبدو غير مقنعة مثل تلك الفروض التي كان يطرحها مؤرخو العصور الوسطى تماما.

هل تسببت الغزوات الجرمانية في القضاء على الامبراطورية الرومانية؟ هذا السؤال الذي فرض نفسه على مؤرخي العصور الوسطى، كان سؤالا خطيرا. إذ كانت نهاية الامبراطورية تعنى انقطاع الاستمرارية. والأكثر مدعاة للازعاج، أن سقوط روما نذير بقدوم المسيح الدجال على نحو ما تقول تعاليم أوروسيوس. وكان على المؤرخين الجرمان أن يعالجوا هذه المشكلة. فقد كانت شعوبهم قد دمرت الامبراطورية الرومانية في الغرب فعلا. فهل كان في مقدورهم أن يوضحوا أن الاستمرارية لم تنقطع لكي يتجنبوا الانفصال عن العالم الكلاسيكي من جهة، وإذكاء مشاعر ترقب نهاية العالم من جهة أخرى؟ لقد عثر كل من مؤرخينا البرابرة الاربعة عن الاجابة المناسبة لهذا السؤال. وتمثل أحد حلول المشكلة في التطلع شرقا صوب بيزنطة باعتبار أن الامبراطورية ما زالت حية في الشرق. وذلك لأنه من الناحية النظرية، كمان حكم الامبراطورية الرومانية القديمة mperium، رغم أنه من الناحية الفعلية، كانت المالك الجرمانية الجديدة مستقلة، كما كانت قد فقدت أي اتصال وثيق يربطها بأباطرة بيزنطة. وقد تبني هذه النظرة كل من جوردان، وجريجوري التوري، وبولس الشماس، بيزنطة. وقد تبني هذه النظرة كل من جوردان، وجريجوري التوري، وبولس الشماس، بيزنطة. وقد تبني هذه النظرة كل من جوردان، وجريجوري التوري، وبولس الشماس، على حين اختلفت درجات تعاطفهم تجاه الامبراطورية دفئا أو برودة.

وفى أسبانيا ترددت أصوات تعترض على هذا الرأى، وهو الأمر الذى يساعدنا على تفهم الحل الذى طرحه بيديه للسؤال. فقد كتب ايسيدور الأشبيلي تاريخ أسبانيا

القوط الغربيين الذى افترض فيه أن الامبراطورية الرومانية قد اختفت كقوة عالمية. كما أنه تقبل تقسيمها إلى عدة ممالك منفصلة باعتباره أمرا واقعا، ولم يعتبر نهاية الامبراطورية كارثة إذ أنه يبدو أن ايسيدور كان يعتقد أن تقسيم الامبراطورية إلى عشر ممالك كما جاء فى رؤيا دانيال قد يستمر افترة غير محدودة. وكان هدوء أيسيدور الواضح قائما على أساس فكرته القائلة بأن الكنيسة قوة عالمية. فقد أخذت الكنيسة مكان الامبراطورية، بل إن المسيحية تخطت فى انتشارها حدود الامبراطورية القديمة. لقد شهد ايسيدور كيف فشل جستنيان فى محاولة استرداد الغرب تحت حكم بيزنطة، ولم يكن بوسعه أن يتمسك بالخرافة القائلة بأن الامبراطورية الرومانية واحدة غير قابلة للتجزئة، لأن هذه صفة خاصة بالكنيسة وحدها.

أما بيديه فكان أكثر ابتعادا عن الامبراطورية حتى من ايسيدور. كما كانت بيزنطة نائية جدا بحيث لا تستحوذ على اهتمامه. وكان مؤمنا بفكرة عصور العالم الستة التى حفظها التراث. ولكنه لم يأخذ بترتيب الزمن على أساس الممالك الأربع. وكان متفقا مع ايسيدور في فكرته القائلة بسمو الوحدة الدينية على الوحدة السياسية. كانت بريطانيا ولاية رومانية. وفي ذلك الحين كانت البعثات التبشيرية قد نشرت المسيحية في ربوعها كما تم تنظيم الكنيسة الانجليزية على أساس كونها ابنة لكنيسة روما، كذلك كانت البعثات التبشيرية الانجليزية تقوم بتنصير الفريـزيين الـوثنيين. ففيم يهم سقوط الامبراطورية الرومانية إذن؟. إلا أننا سنرى ان هذا الأمر كان مايزال مهما بالنسبة للبعض. لقد دفن المؤرخون الانجليز والأسبان الملكة الرابعة قبل الأوان.

وثمة مشكلة ملحة أخرى فرضت نفسها على المؤرخين الجرمان. إذ أنهم كانوا يميلون إلى التاريخ المقدس أكثر من ميلهم إلى التاريخ العلمانى، فهل كان ممكنا أن يسير تاريخ الشعب الجرمانى وفق هذا التقسيم، أم كان من الواجب إدماج النوعين في بعضهما البعض؟. لقد كان التاريخ الجرمانى يمنع أن تفصل مادت إلى قسمين. فاعتناق المسيحية، كاثوليكية كانت أم أريوسية، كان منعطفا هاما في تاريخ الشعب، يؤثر على طريقة حياة أفراده وعلى مؤسساتهم وعلاقاتهم بجيرانهم. وأدمج كل من جوردان، وجريجورى التورى، وبولس الشماس التاريخ الدينى في كتاباتهم باعتباره جزءا أساسيا في نسيج رواياتهم. أما بيديه فقد بذل محاولة للفصل بين النوعين، إذ أنه ركز اهتمامه على الكنيسة كما جعل لكتابه عنوان «التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى». وعلى أية حال، فقد جاء التاريخ العلمانى في سياق هذا الكتاب. والعنصر الدنيوى في تاريخ بيديه أكبر منه في تاريخ أيوسيبيوس وذلك لأن ثروات الملوك الانجليز وما يتميزوا به من روح الايثار تركت تأثيرها الكبير من حيث كثرة أوقاف الكنائس والاديرة، كما أثرت بشدة في الحياة العملية لرجال الكنيسة. وهكذا قدر للمزج ما بين

التاريخ الديني والتاريخ الدنيوى أن يظل باقيا.

كذلك بقى تراث من التوتر الذى لم يحسم. إذ تناول المؤرخون البرابرة فى كتاباتهم مجموعتين متصادمتين من القيم. فقد كان المؤرخ يشعر بالفضر بالماضى البطولى لشعبه، مما يدفعه إلى أن يسجل الأعمال الباهرة التى أتاها القادة العسكريون الوثنيون. كما كان يإمكان المؤرخ، يصفته احد رجال الكنيسة، أن يجعل من اعتناق المحارب الناجح للمسيحية مجدا تكتسبه الكنيسة. بيد أن المشكلة تمثلت فى أن التعميد نادرا ما كان يؤدى إلى ممارسة الفضائل المسيحية. وإذا كان المؤرخ يجد أنه من الأيسر عليه أن يربط نفسه بشعبه، مغتفرا للحاكم خطاياه المجافية لتعاليم الكنيسة بشرط أن تكون المملكة قد ازدهرت إبان فترة حكمه، وربما كان التدين فى الحاكم بشعرف إلى تطرف قد يعانى منه شعبه إذا ما أدار الحاكم ظهره للعالم ليدخل أحد يتحول إلى تطرف قد يعانى منه شعبه إذا ما أدار الحاكم ظهره للعالم ليدخل أحد الاديرة أو ليقوم برجلة حج إلى الأراضى المقدسة.

كانت كتابة سيرة أحد القديسين مهمة أسهل من تسجيل أعمال أحد الملوك. إذ كان من المكن أن يجمع الملك بين الحكمة والبطولة في إطار مسيحى. إلا أن القديس غالبا ما يكون من رجال الكنيسة. والملوك الذين رفعوا إلى مراتب القديسين قلائل، والملوك هم الذين يصنعون التاريخ، واسوف نرى كيف كان مؤرخو العصور الوسطى يعانون من مشكلة الكتابة عن الملوك المسيحيين. إذ كانت رؤية أوروسيوس التاريخ تبدو جيدة فقط لمن يكتبون تاريخا عالميا. لأن تسجيل تاريخ شعب ما كان يعنى التحيز والابتهاج بالنصر على الأعداء. وكان النموذج الذى قدمه العهد القديم بمثابة طوق النجاة من هذه الورطة. فقد كان باستطاعة المؤرخ أن ينتحل دور الاسرائيليين في العهد القديم لشعبه، وأن يجعل لأعدائه دور الأمميين الذين يستحقون الاسرائيليين في العهد القديم لشعبه، وأن يجعل لأعدائه دور الأمميين الذين يستحقون الدمار. وبمثل هذه الشهولة يمكن أن يتحول الاله المسيحى إلى إله لاحدى القبائل، يحارب في جانب المؤرخ وشعبه. لكن حماسة المؤرخ التي كان يخص بها شعبه كانت تضفى مسحة من الاثارة على ما كان سيبدو بدونها مجرد إغارات صغيرة أو نزاعات على الحدود.

وخلال القرنين السادس والسابع ساءت ظروف الدراسة أيا كان نوعها. وفي داخل الممالك الجرمانية أخذ نموذج العصور الوسطى الباكرة في الظهور رويدا رويدا. وانحصر التعليم في الكاتدرائيات والأديرة حيث كان الاسقف مسئولا عن التعليم في حدود أسقفيته، وواجبه الأساسي أن يدرب الاكليروس التابعين له. وقد يقوم هو بالتدريب في المدرسة الكاتدرائية التابعة له. وكانت هناك كاتدرائيات عديدة بنيت في علواصم ولايات الامبراطورية الرومانية القديمة مثل فيرونا Verona، ورافنا عليون عديدة غنية عن العصر

الروماني. وكان الأسقف النابه يشجع نسخ النصوص، فقد كان توفير الحماية الخاصة للناسخين مطلوبا عن ذي قبل، لأن تجارة الكتب على نطاق عام كانت قد وصلت إلى مرحلة الجمود. وإلى جانب الكاتدرائية لعب الدير دوره في صون الثقافة والحفاظ عليها. كانت هناك «أديرة مدن» «City monstaries» مثل دير فولدا Fulda ودير القديس جول St. Gall، ومونت كاسينر Monte Cassino وكان مقدمو الأديرة يعتبرون أن المكتبة وحجرة النسخ الموجودة بالدير جزءا لا يتجزأ من «دولتهم الصغيرة داخل الدولة ». ولم تقف الفوضي السياسية، أو مصاعب السفر، حجر عثرة في طريق اتصال العلماء ببعضهم البعض. إذ إستمر التبادل الثقافي قائما بين مراكز التعليم الرئيسية في شتى أنحاء العالم المسيحي.

وظهرت أنماط جديدة من التدوين التاريخي تلبية للاحتياجات الجديدة. وكمانت الحوليات هي أكثر أشكال التدوين التاريخي في العصور الوسطى بدائية. فقد بدأت في إطار متواضع على شكل جداول لحساب تاريخ عيد الفصح، وهو عيد لا يزال غير ثابت الميقات، ولكن طريقة حسابه قد أرسيت قواعدها، فما علينا إلا أن ننظر في مفكرتنا اليومية لكي نعرف موعد حلوله. إلا أن طريقة حساب موعد هذا العيد في تلك الفترة الباكرة كانت مسئلة يحاول كل فرد أن يحلها بنفسه. فقد تم إرساء قواعد حساب موعد العيد بعد فترة طويلة، كما حدث بالنسبة لاتخاذ سنة ميلاد المسيح فاصلا لعد سنوات قبلها B.C (أي قبل ميلاد المسيح) أو بعدها A.D (أي بعد الميلاد). وكانت هناك عدة طرق للحساب، كما كان الكتاب يستخدمون عدة طرق في أن واحد أحيانا. وكان عيد الفصح بموعده غير الثابت هو الذي يحدد مجرى السنة المسيحية بأسرها، وما يتخللها من أعياد واحتفالات. ولذا كانت الكنائس، في الاديرة وخارجها، في حاجة إلى جداول تبين تاريخ عيد الفصح وتؤكد الخدمات التي سوف يتم وترتيبها سلفا. وكانت هذه الجداول تجمع سويا لتكون تاريخا يغطي عددا من السنين.

وكان لابد أن تكون في الجداول مساحات خالية تدون فيها الملاحظات على الأحداث. وكان الشخص الذي يستخدم هذا الجدول يسجل في بعض الأحيان أخبار عاصفة أو إعصار أو مناسبة ذات أهمية محلية أو موت شخصية عظيمة. أما المرحلة الثانية في تطور الحوليات فقد تمثلت في تسجيل الملاحظات بشكل منفصل عن الجدول. وحينئذ كان لابد للحوليات أن تحتفظ بالتواريخ إما في نظام معين، وإما باتخاذ بدايات معينة لها. وقد يستعير رهبان أحد الأديرة الحوليات من رهبان دير آخر، وربما يضيفون من لدنهم إلى الأصل ويستمرون في ذلك على مر السنين. وهذه الممارسة أرهقت الباحثين المحدثين: ذلك أنه ينبغي، لكتابة تاريخ سليم، فصل الجزء الأصلي من الحولية، أو الكشف عن المصدر الأصلى الذي أخذ عنه جميع كتاب الحوليات. وقد شبه هذا العمل

بتقشير البصلة: فقد كانت أية مجموعة حولية تخفى جلدا أخر خفيا. وتتسم الحوليات الديرية بالجمود والخشونة من حيث الموضوع، كما أنها ليست كلاسيكية (رغم اسمها)، وعادة ما تكون اشتقاقية وغير أصيلة، ومع هذا فإنها قد أبقت التدوين التاريخي حيا في أوساط لم يكن فيها أحد يحاول أن يكتب تاريخا أدبيا طموحا. إذ كان التعليم متدهورا كما أن الدافع إلى كتابة مثل هذا التاريخ لم يكن موجودا.

وثمة مؤلف أخر كان له تأثيره في مجال التدوين التاريخي هو «كتاب البابوات وأمة مؤلف أخر كان له تأثيره في مجال التدوين التاريخي هو «كتاب البابوات يمارسون أعمالهم باعتبارهم أساقفة روما ورؤساء الكنيسة اللاتينية على حد سواء (۱) وتتضح كفاءة الوظيفة الأولى بصورة أكبر في المراحل الأولى من الكتاب. فقد سجل الكتبة (الذين كانوا أساقفة أيضا في العصور الوسطي) العاملون في الوظائف الكتابية في اللاتيران (المقر البابوي) تعاقب البابوات على الكرسي الرسولي، كما كتبوا تراجم أولئك البابوات. ونحن نشير إلى «كتاب البابوات » باعتباره كتابا واحدا من قبيل التيسير؛ إلا أن اسم الكتاب يدل على الجمع وليس على المفرد. وهو أشبه بغابة من الأشجار ـ تزداد كثافة في بعض أجزائها وتقل كثافتها في أجزاء أخرى ـ منه بشجرة ذات فروع. وقد وصلنا هذا الكتاب في عدة روايات مختلفة، إذن كان جامعوه في العصور الوسطى الباكرة مجرد كتبة عاديين، وكانوا يكتبون دون أن يسجلوا أسماءهم على أساس أنهم موظفون بابويون. كما كانت لبعض كتاب التراجم أغراض دعائية، إذ أنهم أرادوا تبرير السياسة البابوية في مواجهة القوى الأخرى. بيد أن اهتماماتهم كانت محلية بالدرجة الأولى. وفي هذا

⁽۱) كان أسقف روما يعتبر نفسه في البداية نائبا للقديس بطرس، وفي العصور الوسطى لم يكن هناك من ينكر هذا الأمر الذي يعد من أكثر الحقائق التاريخية وضوحا؛ ذلك أن القديس بطرس تولى أسقفية انطاكية سنة ٣٤ ثم نقل كرسيه الأسقفي إلى روما سنة ٤٠ م. وفي سنة ٣٤ رسم خليفتاه لينوس Linus وكليتوس Cletus أسقفين في روما، ومنذ البداية أخذ القديس بطرس وخلفاؤه يعملون على ترجيه الكنيسة، وتنظيم احتفالاتها ويحددون ملامح النظام الكنسي ويؤسسون الاسقفيات.

ومن ناحية أخرى كان وجود جسد القديس بطرس (الصخرة التي بني عليها المسيح كنيسته) في مقبرة داخل روما ذا أهمية فائقة بالنسبة للكنيسة الغربية. وكان الاعتقاد السائد أن صاحب هذا الجسد سوف يقوم يوما ما بحراسة أبواب السماء، وأنه يمثل حلقة الوصل بين الوجود الدنيوى والوجود السماوى. وكانت هبة قنسطنطين تتضمن قسما قطعه الامبراطور على نفسه بأن يحافظ على الهبة التي منحها وقفا لجسد القديس بطرس. (عن هبة قنسطنطين ودورها في محاولات تأكيد الزعامة اللبابوية في الغرب انظر: 9-155 (Cantor, Med. Hist., pp. 195) ومن الدراسات التي أجريت حولها انظر: على الغمراوى: المدخل، ص ٩٧ ـ ص ١٠٠ وانظر الترجمة الانجليزية لنص هذه الوثيقة التي تعتبر أشهر تزوير في التاريخ في كتاب «كانتور» المسمى: . 9-131 (The Med. World, pp. 131).

وهكذا كانت للبابا سلطة واسعة اعتقادا بأنه نائب القديس بطرس، وكان من يعمى أوامره ==

.....

= إنما يعصى أوامر القديس بطرس سواء في الشئون الدنيوية أو الكنسية. وكانت وحدة الكنيسة الغربية ترتكز على روما بفضل القديس بطرس. ورغم أن ذلك في حد ذاته كان كافيا للحفاظ على سلطة البابوية طوال العصور الوسطى الباكرة، فإن كاتب «هبة قنسطنطين» كانت له أهداف أكبر من ذلك. فقد كان يريد للبابا أن يصبح «أسقفا عالميا» انطلاقا من المفاهيم الكلاسيكية والامبراطورية الموروثة عن الحكومة، كما رأى فيه حاكما مستقلا ونشيطا في عالم عملى، وليس مجرد أيقونة حية.

ومنذ البداية كان البابوات يحلمون بمدينة الله حيث يقوم البابا بتنصيب اتباعه من الملوك ويأمرهم بالدفاع عن العقيدة. وقد لعب البابا جريجورى الأول العظيم Gregory I The Great (ت 3.7) دورا هاما في تأكيد زعامة البابوية لغرب أوربا. إذ أنه تولى عرش القديس بطرس في وقت كانت الكنيسة فيه اشبه ما تكزن بسفينة يصدر عنها صرير الغرق. والواقع أن البابوية لم تمارس أى دور قيادى فعال منذ عهد جلاسيوس الأول Glasius I (٤٩٦ - ٤٩٦) كما كان الأعداء يحدقون بها من كل جانب. ورغم أن جريجورى لم يتمكن من التغلب على المشكلات التي جابهته، إلا أنه أرسى دعائم السياسة التي سار عليها خلفاؤه في علاج تلك المشكلات. (عن جريجورى الأول وحياته، وإدارته للحكومة البابوية، ومراسلاته ومؤلفاته انظر:

Margaret Deansly: A hist. of The Med. Church, (5th ed., Metheum, London 1974) pp. 15-28. ومن الترجمة الانجليزية للنصوص بعض مؤلفاته انظر:

Robert Brentano, The Early Middle Ages, (Macmillan, London 1964), pp. 114-120.

وكان جريجورى الأول مدركا لكونه اكثر من مجرد أسقف، بل هو نائب المسيح على الأرض باعتباره أسقف روما، وقد تجسدت هذه النظرة في اللقب الذي اتخذه لنفسه وهو «خادم خدام الرب Servorum Dei «Servorum Dei الذي وجد لنفسه السند والدعامة فيما جاء بانجيل مرقص (١٠: ٣٤ - ٤٤) «فلا يكون هكذا فيكم، بل من أراد أن يصبير فيكم عظيما يكون لكم خلدما، ومن أراد أن يصبير فيكم الولا يكون للجميع عبدا ». بمعنى أن صاحب المسئولية الأكبر، يجب أن يتمتع بسلطة غير مقيدة لكى يقوم بأعياء العمل المقدس الموكل إليه.

هذه الفكرة عن الحكومة البابوية، بجانب المفاهيم الكلاسيكية الامبراطورية القديمة عن الحكومة تفاعلنا سويا بحيث أن طموح البابوات لم يقف بهم عند حد ارتضاء نيابتهم للقديس بطرس. بل إنهم التفدوا لانفسهم لقبا آخر يتضمن سلطة أعلى ومجالا أشمل وهو لقب «نائب المسيح» الذي بدأ اللبابوات يتخذونه لانفسهم ابتداء من حوالى منتصف القرن الثانى عشر، وزعم البابوات أن هذا اللقب يختص بهم دون غيرهم، بعد أن كان القساوسة والملوك ينتحلونه لانفسهم دون البابوات في الملفى. وبعد جريجورى السابع (١٠٧٧ – ١٠٨٥) تضامل اعتماد البابوات على القديس بطرس. إذ كان الاعتماد الكل على هذا الحوارى مقبولا في زمن كانت فيه المدينة البابوية مدينة مقدسات ومزارا للحجاج، ولم يكن لها سوى سلطان ضئيل على الشئون العملية، ولكن الظروف تغيرت بغضل ازدياد الدور الذي تلعبه البابوية في الشئون السياسية.

والحقيقة أن كثيرا من بابوات القرنين التاسع والعاشر، وأوائل القرن الحادى عشر قد أمسكوا بزمام الشئون السياسية بقبضة قوية : ولم يكن يضعف من هذه القبضة سوى المطروف المحيطة بهم. ولكن الحكومة البابوية أمست واقعا حيا ملموسا. وكان كبار الأساقفة هم حلقة الـوصل بـين = الكتاب ظهر البابوات كأساقفة لروما. وقد كان الرومان يعتمدون على أساقفتهم، باعتبار أنهم من الملاك الأثرياء، في إطعام شعب المدينة إبان المجاعات، وفي الحفاظ على عمران المدينة بصيانة مرافق الرى والصرف. وقد تحمل البابوات مسئولياتهم؛ ذلك أنهم كانوا يفخرون ببناء الكنائس الرومانية وزخرفتها. ويمكن اختيار ترجمة البابا هنريوس الأول Honorius I (٦٢٨ – ٦٢٨) كمثال على التراجم البابوية، فهذه الترجمة تسبجل عطاياه التي أغدقها على الكنائس الرومانية، وما قام به من إصلاحات فيها، وتحدد بالضبط وزن ما أنفق على كل منها من المعادن النفيسة. وثمة ملحق وضع في وقت لاحق لترجمة هنريوس يقرر أنه أقام طاحونة في مكان يعرف باسم «مياه تراجان»، وأنه أصلح القناة المحفورة هناك. ولا يمكن لمن يقرأ الترجمة أن يخرج منها باستنتاج أن هنريوس لعب دورا هاما في تنظيم الكنيسة الباكرة في إنجلترا، لأن ذلك كان أبعد ما يكون عن نطاق اهتمام كاتب ترجمته.

وقد ذاع صبيت دكتاب البابوات » لدرجة أن العلماء كانوا يعكفون على قراءته كلما القتضت ظروفهم أن يذهبوا إلى البلاط البابوى. ثم نسخت منه عدة اقسام وانتشرت في انحاء أوربا. وقد الهمت تراجم البابوات المؤرخين ـ الذين كانت قراءاتهم تتضمن سير القديسين أساسا ـ أفكارا جديدة. إذ أن البابوات لم يكونوا في العصور الموسطى الباكرة قديسين أو شهداء، وإنما كانوا رجالا عادين يعالجون مشاكل عملية، باستثناء جريجورى الأول. وقد أثبت «كتاب البابوات » جدارته للقراء بأن سجل أعمال رجال الكنيسة الذين لم تكن لهم أية مزاعم قدسية. وكان هذا الكتاب هو النموذج الذي صيغت على نهجه أعمال الأساقفة ومقدمي الأديرة. وقد عرف بولس الشماس «كتاب البابوات» وكان ماثلا في خاطره حين طلب منه شارلان أن يكتب تاريخ أسقفية ميتز. وقد وضع كتابه المسمى «تاريخ ميتز» النموذج الذي حذا المؤرخون اللاحقون حذوه. وكان هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية يبدأ بذكر تأسيس الأسقفية أو الدير (وغالبا ما يبدأ بذكر الأسطورة المتعلقة بالتأسيس). ثم ينسخ الكاتب ما يتيسر له من المصادر، ويتطرق إلى ذكر الأحداث الأقرب إلى عصره. وكان يستخدم عهود الأساقفة

البابوية والكنائس المحلية. ويبدو أنه منذ القرن السابع برزت فكرة أنه لا يجب أن بياشر كبير الاساقفة مهام منصبه إلا برسامة البابا له، وأيا كان تاريخ مولد هذه الفكرة فإنها قد صارت أمرا مسلما به في القرون التالية في شتى انحاء العالم المسيحى الغربي. وفي روما وجدت (ارشيفات) يعمل بها الموظفون الكنسيون وفق نظام هيراركي hierarchy يذكرهم بما يجب أن تكون عليه الحكومة البابوية: انظر 5-72 Cantor, Med. Hist., pp. 17-5

R.W. Southern, Western Society and the Church in the Middle Ages, Penguin. 1976; pp. 94-105; Geoffrey Barraclough The Medieval Papacy, (Thomas and Hudson, London, 1968) pp. 27-37.

أو مقدمى الأديرة المتعاقبين في اطار التسلسل الزمنى الذي وضعه. وقد يسر هذا النموذج على المؤرخين المتأخرين سبيل الاضافة إلى القصة التاريخية والوصول بها إلى عصرهم.

وكان مجال هذه «الاعمال» ومداها يختلف تبعا لاهمية كل اسقف أو مقدم دير. فريما يكون منهم من كان يشارك في شئون العالم المسيحي ككل، وربما يكون منهم من لم ييرح موطنه. وفي الحالة الأولى نرى كيف كانت السياسة العالمية تبدو في نظر المؤرخ المحلى. وفي الحالة الثانية قد نسمع الكثير عن المدن والريف. ويقترب بنا هؤلاء المؤرخون المحليون تجاه التاريخ الاجتماعي والاقتصادي أكثر من غيرهم. فليس هناك مؤرخ واحد كتب تاريخ «العامة»، مما يجعل العلماء المحدثين يعتمدون على الدليل الوثائقي أكثر من اعتمادهم على المصادر الأدبية عند دراستهم لحياة فلاحي العصور الوسطى. بيد أن كتاب «الاعمال» كانوا يجدون المناسبة لذكر أحوال سكان الريف، وسكان المدن، وملاك الأراضي والرحالة؛ لأن عاداتهم وخصوماتهم، وتمردهم، وكرمهم، وما يقترفونه من سرقات كانت تؤثر على المجتمع الذي يعيش فيه أولئك الكتاب.

لقد لحق التاريخ المحلى بالرسائل التاريخية كبديل عن التاريخ العالمي أو تواريخ الشعوب. كما كان له مرادفه العلماني الذي تمثل في «أعمال» الأمراء، أو تواريخ العائلات الدوقية.

هذه الاعمال تقودنا إلى نوع ثالث من مراكز الدراسة والعلم، ذلكم هو بلاط الأمير. إذ كان الحكام البرابرة يستمعون إلى الروايات التى تحكى عن أسلافهم الأمجاد، وزاد اهتمامهم بهذه القصص بفضل ما حدث بعد اعتناقهم المسيحية. فقد كرس بيديه كتابه «التاريخ الكنسي للشعب الانجليزي» لواحد من ملوك نورثمبريا. وفي فرنسا كان أمناء القصر، الذين انتزعوا السلطة من الميروفنجيين، يضمون المؤرخين إلى أفراد الحاشية. وقد ولدت تلك البداية الواهية لحركة الاحياء الثقافي التى ارتبطت باسم شارلمان (ت ١٩٤٨) تحت سقف بلاط جده الفرنجي شارل مارتل (ت ١٩٧١). وعمل شارلمان ومستشاروه بكل جهدهم على تكوين فئة من الاكليروس المتعلمين، لكى يعوضوا النقص الواضح في اعداد الكتب والمدرسين. وآتت جهودهم اكلها في شكل انتاج وفير من الكتابات الثقافية التى بدأت في السنوات الأخيرة من حكم شارلمان، واستمرت حتى منتصف القرن التاسع. ومن المعلوم الآن أن «النهضة الكارولنجية» بدأت منذ وقت مبكر، كما استمرت لفترة أطول مما تعودنا أن نظنه (۱۰).

⁽٢) عن هذا المضموع انظر:

وساهمت الكاتدرائيات، والاديرة والبلاط الامبراطورى جميعا في حركة الاحياء. وكانت هذه المشاركة تعنى أن العلمانيين من أبناء الطبقة الراقية صار بإمكانهم أن يساهموا في الحركة الأدبية وحركة التأليف. فقد كانت المدارس الديرية والكاتدرائية تقبل الدارسين من خارجها. وثمة اثنين من مؤرخي القرن التاسع كانا من العلمانيين وهما: اينهارد Einhard ونيتهارد Nithard، الأمر الذي أسبغ على التدوين التاريخي الكاروانجي صفة الثراء التي اشتهر بها. فقد أمست كتابة اللاتينية وقراءتها احتكارا لرجال الكنيسة إثناء القرن التاسع: ذلك أن العلمانيين كانوا قد فقدوا الرغبة كما لم يكن لديهم الوقت اللازم للدراسة. وشخصوا إلينا من خلال ذلك العصر في صورة قراء أو مستمعين على أحسن الفروض، وكانوا يحتاجون لمن يترجم لهم عن اللاتينية، كما أنهم لم يؤلفوا أية كتب.

لقد أضافت «العصور المظلمة» ـ كما نسميها جحودا منا لفضلها ـ الكثير من المضوعات التى نشتغل بها اليوم. إذ كان لدى المؤرخ مجال للاختيار أوسع من ذلك الذى كان متاحا قبل خمسمائة عام. كان المؤرخ، كالفنان، قادرا على أن يلون الحائط بصور مدونة تاريخية عالمية، أو تاريخ عالمي، أو تاريخ أحد الشعوب، كما كان يستطيع عوضا عن ذلك أن يرسم قصة كنيسته أو ديره، أو أن يكتب ترجمة لأحد الشخصيات. أما الكاتب الأقل ترسعا فكان يمكنه أن يحدد نفسه في إطار الحوايات المحلية.

لقد حانت اللحظة التي يتحتم عناها أن نحدد الفروق الرئيسية بين مؤرخي العصور الوسطى، والمؤرخين المحدثين. وأوضح هذه الفروق هـو تصور العصور الوسطى للزمان والمكان. فالزمان عند مؤرخ العصور الوسطى ممتد بين يوم الخليقة وبين يوم القيامة، فقد بدأ الزمان وسوف ينتهى، وهو يصير عبر فترات محدودة بشكل واضح. أما المكان عنده فهو محكوم بحدود التاريخ القديم، وحدود الكتاب المقدس في الماضى، وبامتداد العالم المسيحي في الحاضر. كانت ثمة قصص يرويها الرحالة عن شعوب العالم الخارجي، بيد أنها لم تكن تعد من قبيل التاريخ. ولم تكن الشعوب غير المسيحية تدخل التاريخ عادة سوى حين يدون المؤرخون المسيحيون أنباء الحروب التي نشبت على الحدود، أو الغارات، أو البعثات التبشيرية التي كانت ترسسل إلى الوثنيين. وهناك فارق واضح آخر هو أن مؤرخ العصور الوسطى كان يمتلك من أدوات البحث التاريخي قدرا أقل بكثير مما هو في متناولنا. إذ كان يعتمد على المصادر الادبية

⁼ وعن النهضة الكارولنجية انظر نفس المرجع .48-36 pp. 36 وكذلك: د. سعيد عاشور، أوربا العمسور الوسطى، جد ٢، ص ٣٠ ـ ص ٩٠.

Cantor, Med. Hist., pp. 189-191.

والسماع، وكان الكاتب المدقق يحاول أن يستخدم الآثار للتدليل على ما يقول؛ إلا أنه لم يكن يستطيع استحضار المناهج العلمية لكى يستخدمها في تحقيق ما شاهده أو رآه أو سمعه.

وتكمن العقبة الرئيسية في طريق فهمنا للتدوين التاريخي في العصور الوسطى في غياب المنظور. فقد كان لفن التصوير في العصور الوسطى بعدان، وكان الفنان يرسم على وجه مسطح. ودارس الفن الوسيط يتعلم كيف تقبل التسطح في التصوير كعرف سائد في العصور الوسطى: وبذلك لا يحط من تقديره للصورة. وينبغي بالمثل أن يتعلم دارس التدوين التاريخي الوسيط أن يدرس دون الاستعانة بمنظور يرى به العرض التاريخي حقيقة أن مؤرخ العصور الوسطى كان يستطيع أن يميز بين مداحل الخلاص الانساني، ولكن هذه المراحل كانت مراحل دينية. ولم يكن مدركا للتغير والتطور في التاريخ الدنيوي. وكان يرى الاستمرارية في العادات والمؤسسات، على حين نراها نحن متغيرة غير ثابتة، كما كان يجعل الأباطرة الرومان يتكلمون ويتصرفون مثل حكام العصور الوسطى. ومن ناحية أخرى، كان المؤرخ الذى نال قدرا من التعليم اللاتيني الكلاسيكي يميل إلى جعل حكام العصور الوسطى يتكلمون ويتصرفون كالقياصرة. إذ أن المؤرخ ف العصور الوسطى لم يكن يتجه إلى العهد القديم التماسا للسوابق والنماذج فقط، بل كان يعيش في كتاب مقدس ممتد. فقد كان الكاتب الذي يدون سيرة أحد القديسين يشعر أنه يضيف صفحة جديدة إلى قصة الانجيل، كذلك كان الكاتب الذي يسجل أعمال أحد المحاربين يعتقد أنه يواصل سرد قصة أبطال العالم القديم وأبطال الكتاب المقدس. لقد التحم الماضي بالحاضر، وتشابه الحاضر مع الماضى في عيني مؤرخ العصور الوسطى الذي لم يكن لديه أي احساس بالتغير الزمني.

كان فنان العصور الوسطى، أيضا، يفتقر إلى هذا الاحساس بتغير الزمن. وهنا نجد تشابها بين المؤرخ والفنان. فلم يكن الفنان يتوخى أن يكون عمله صائبا من الناحية التاريخية وهو يرسم الشخصيات أو المبانى، وذلك لأنه كان يلبس شخصياته ملابس العصور الوسطى، كما كان يخلط أحيانا بين طراز الملابس المختلفة. فالفنان بيورى بيبل Bible الذي عاش في القرن الثانى عشر، يصور « أرميا النبي » وهو يرتدى ثياب النبوة _ التي صورها بيورى في شكل العباءات الفضفاضة التي عرفتها العصور الكلاسيكية _ جالسا فوق سحابة، وفي النصف الأسفل من الصورة مشهد الاستيلاء على بيت المقدس الذي تنباً به النبي. هذا المشهد يحمل سمات وخصائص القرن الثاني عشر؛ وهو ما يعنى أن الفنان قد رسم السلاح، والثياب، والحصون بأسلوب العصر الذي يعيش فيه. فقد كانت للحادثة حرارتها الحية، لمجرد أن الفنان

كان يراها كما لو كانت تحدث في الحاضر.

وفى عصرنا الحالى يعتقد المؤرخ أن مهمته أن يتتبع التغير وأن يفسره. وهو يبحث أيضا عن الاستمرارية في العملية التاريخية، إلا أنه يعتبرها بمثابة خيط معتد عبر النموذج التاريخي المتغير. إذ أن صيرورة الزمن هي مصدر خوف المؤرخ المحدث. وإذا ما ارتدت الشخصيات التاريخية ملابس عصر مختلف، ونطقت بعبارات لا تتصل بهذا العصر أو تنتمي إليه، تصبح قراءة الرواية التاريخية عملية مؤلة ومعذبة. ونظرتنا إلى التاريخ باعتباره سجلا للأحداث المتغيرة تتناقض مع قصور وعي مؤرخي العصور الوسطى بحقيقة الزمن كعنصر متغير. وقد تبدو لنا أفكارهم هزلية وساذجة، إلا أنه ينبغي علينا أن نحاول تفهم هذه الأفكار في ضوء ظروف العصور الوسطى. وعندها سنرى أن غياب وعيهم بالزمن أمر يتوافق مع الواقع الذي عاشوه.

وكانت فكرة العصور الوسطى عن «الماضي» فكرة معقولة في جملتها، من حيث أن ملامح هذا الماضي الأساسية لم تتغير. ذلك أن الماضي القديم، كما عرفت العصور الوسطى، كان متوافقا في كثير من ملامحه مع مجتمع العصور الوسطى حتى القرن الخامس عشر على أقل تقدير. فلم يكن الانتاج آليا، كما كانت غالبية السكان تشتغل · بالفلاحة، بينما انحصر التعليم في نطاق الصفوة، كبيرة كانت أم صغيرة، وظل الاعتقاد في الغيبيات موجودا بشكل أو بآخر. كما أن العالم الجديد (القارات الجديدة) لم يكن قد اكتشف بعد. فضلا عن أن التطورات والتغيرات التي طرأت في مجالات الزراعة، والصناعة والنقل حدثت بشكل بطيء لا يثير الدهشة. أما اليوم، فإن التأمل والتروى يجبرانا على التحقق من أننا نعيش في عصر آخر غير العصر الذي عاشه أجدادنا. كذلك فإن غياب المنظور الزمنى ليس وقفا على العصور الوسطى وحدها. فغالبا ما يواجه المبتدئون صعوبة تحديد التسلسل الزمني قبل عصر الاكتشافات أو الثورة الصناعية. وهو ما يعنى أن الاختصارين ق.م .B.C و.م .A.D يعنيان شيئًا واحدا بالنسبة لهم. كما أن الأطفال الذين يتمتع آباؤهم بقدر من العقلانية وتتاح لهم فرصة مشاهدة الآثار، يتميزون بوعيهم بالزمن. بينما ينمو وعى غيرهم بالزمن بشكل تدريجي، وقد لا ينمو على الاطلاق. وفي العصور الوسطى كان الناس يشعرون بالألفة تجاه ماضيهم، بينما نشعر نحن أننا غرباء عن ماضينا. وعلى المؤرخ أن يبذل جهده للتأقلم مع روح العصور الوسطى، ثم عليه أن يحزم متاعه ويتأهب مرة أخرى كما لو كأن يريد زيارة العالم القديم. أما مؤرخو العصور فكانوا يسافرون إلى هذا الماضي بدون متاع.

الغصل الخامس

التراجم الملكية

تشترك التراجم الملكية في سمة عامة هي: انها مؤلفات دعائية. صحيح أن أغراض المؤلفين وأساليبهم كانت تختلف من واحد لآخر، بيد أنه كان عليهم جميعا إيجاد القالب الذي يمكن أن تصب فيه جميع الوقائع المختلفة. ذلك أنه كان يجب تقديم الأمير إلى القراء أو المستمعين في الصورة التي يريدها له كاتب ترجمته.

ولنبدأ باينهارد (۱) الذي كتب سيرة شارلمان. وكان اينهارد رجلا قصير القامة، والف كتابا قصيرا أيضا، إلا أن لهذا الرجل تاريخا طويلا، ذلك أن تأثيره يفوق حجمه بكثير (۱). وكان اينهارد رجلا علمانيا بعكس كتاب التراجم اللاحقين. وقد يسرت جركة الاحياء الكارولنجية قدرا طيبا من التعليم لمن كان على صلة بالبلاط من العلمانيين. وكان لدى اينهارد من المؤهلات ما مكنه من كتابة قصة حياة شارلمان. إذ أنه عمل في خدمة الامبراطور حتى تقدم به العمر، ثم خدم خليفته دلويس التقى « من بعده. ولم يبدأ اينهارد من فراغ؛ إذ كان تدوين التاريخ مشروعا تتبناه الدولة، لأن حفظ الموليات الملكية كان قد بدأ بالفعل. وكلف اينهارد بأن يكتب سيرة شارلمان، وكتبها الموليات الملكية كان قد بدأ بالفعل. وكلف اينهارد بأن يكتب سيرة شارلمان، وكتبها

Einhard and Notker the Stammer, Two lives of Charlemagne (translated with an introduction by: Lewis Thrope, Penguin Books, 1974), pp. 12-27

وانظر الترجمة الانجليزية لكتاب اينهارد: (المترجم) (المترجم)

⁽١) Einhard (ت ١٠٠٠) كان سليل اسرة مرموقة واحد في مينجو Maingau إحدى المقاطعات الشرقية في مملكة الفرنجة آنذاك. وتلقى تعليمه في دير فولدا Fulda في هيي بعد حوالي الشرقية في مملكة الفرنجة آنذاك. وتلقى تعليمه في دير فولدا Fulda في هيي بعد حوالي ستين ميلا إلى الشمال الشرقي من فرانكفورت وبعد سنة ١٩٧١ أرسله مقدم الدير إلى مدرسة البلاط في قصر شارلمان بنخن Aachen ويفضل ما اجتمع في شخصي من ذكاء وحكمة ومثابرة، قلما تجتمع في شخصي رجل واحد، لمع نجمه بسرعة في البلاط وصار مستشارا وصديقا شخصيا لشارلمان. وبعد موت شارلمان سنة ١٨٤ ظل اينهارد مقربا إلى ابنائه وخلفائه، وقد كتب اينهارد عدة مؤلفات كما نظم بعض الاشعار، ولكن أهم مؤلفاته هو سيرة شارلمان Vita Caroli الذي يعتبر مصدرا هاما من مصادر العصر الكاروانجي، انظر:

⁽٢) شبهه بعض الباحثين بالنطة التي تفرز عسلا شهيا رغم ضالة حجمها.

فعلا فيما بين عامى ٨٢٩ و٨٣٦. ولأنه كان تلميذا نجيبا لأيسيدور الاشبيل، فإنه أعفى نفسه من أن يكون «مجرد جامع» لأخبار الفترة المبكرة والوسيطة في حياة البطل الذي يكتب سيرته، لأن هذه الفترة لم تعيها ذاكرته. وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التي أجريت على «حياة شارلمان» أن مؤلفها لم يتألق كجامع، لأنه لم يتناول مصادره بحرص، ولكنه كان قادرا على أن يكتب كشاهد عيان على الفترة الأخيرة من حياة الامبراطور شارلمان.

وربما یکون اینهارد قد اخذ ببحث دون جدوی عن نموذج مسیحی یتخذه دلیلا يقتفى أثره وهو يكتب عن حاكم علماني. فقد كانت التراجم المألوفة لديه هي سير القديسين التي لم تكن لتناسبه على الاطلاق. وكان ثمة نموذج كلاسيكي متاح لاينهارد هو «سير القياصرة» التي كتبها سويتونيوس. واتخذ أينهارد من سويتونيوس دليلا ومرشدا في كتابته لحياة شارلان التي اشتهرت باسم «السيرة الثالثة عشرة» لأنها اعتبرت بمثابة إضافة تكميلية لسير القياصرة الاثنى عشرة التي كتبها سويتونيوس. وسار أينهارد على نهج سويتونيوس في بناء الكتاب وفي أسلوب الكتابة حتى أنه تخلى عن الاقتباس من عبارات الكتاب المقدس بحيث جاءت اللغة اللاتينية التي كتب عا نقية من شوائب الاقتباس من الكتاب المقدس. ولابد أنه تكبد مشقة جسيمة لكى يتجنب ما قد يعتبره المتخصيصون في الدراسات الكلاسيكية تشويها للغة. وقد نجح اينهارد في ذلك لأنه أخذ بعض الفقرات من النموذج الذي قام بتقليده، وتمثلت النتيجة ف أنه كتب نسخة أخرى من الأميل اللاتيني الذي اعتمد عليه. كما أنه أختار من التفاصيل الواردة في مختلف السير ما يمكن تطويعه لخدمة ما يكتبه عن شارلالن. إلا أنه أحيانا لم يكن يجد في هذه السير ما يساعده؛ ذلك أن القيامبرة كانوا رجالا متعلمين، على حين بدأ شارلان يتعلم الكتابة في مرحلة متأخرة من عمره، ولم يتقدم كثيرا في هذا المضمار. ولم يتردد أينهارد إطلاقا في تسجيل هذه السمة البربرية التي اتصف بها شارلمان، وكان كاتبا مبدعا بقدر ما كان مقلدا، فقد رسم لنا صورة مقنعة للامبراطور المسن. بيد أن اختيار اينهارد لسويتونيوس نموذجا، جعل كتابه لغزا يستعصى على أفهام المؤرخين المحدثين للأسف. ذاك أنه قلد دليله في تجنب التعليق على الأحداث أو الحكم على القيم. وفي مقدورنا أن نفسر صمت أينهارد على النحو الذي يروق لنا. فأننا لا نعرف أفكاره عن موقف شارلان من الكنيسة لأنه يصف تدين الامبراطور وتقواه ف مصطلحات كلاسيكية، ولا يضيف سوى كلمة «مسيحى» كصفة «للدين »، وهنا سؤال يطرح نفسه؛ هل دفعه حبه للقديم إلى أن يجعل دين بطله قريبا من ديانة القياصرة بقدر ما يمكنه؟ أم أن هناك ما هو أكثر من ذلك؟ وهل استخدم اينهارد النموذج الذي اختاره لهدف أكثر إيجابية ؟ أم أنه اختار هذا النموذج باعتباره

واسطة يعبر من خلالها عن القيم البطولية العلمانية لكى يحط من قدر القيم المسيحية ؟

إن أهم دليل يجيب عن السؤال الثانى بالايجاب يبرز من ثنايا الرواية التى كتبها اينهارد عن تتويج شارلان على يد البابا يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠٠. وقد تم استقراء أمور كثيرة من هذا الحادث. فأينهارد يجعل المبادرة للبابا ويصور شارلان في صورة من لا يرحب بقبول التاج. وتقول رواية أينهارد أنه أخذ بالمفاجأة وأنه لم يكن ليذهب إلى الكنيسة في ذلك اليوم لو كان يعلم بما يدبره البابا. وربما يفهم من عبارة أينهارد هذه أن شارلمان كان يفضل الحصول على اللقب الامبراطورى دون أن يفيد رجال الكنيسة من ذلك، اعتقادا منه بأنه لا يليق بالفاتح العظيم أن يأخذ التاج من يد أحد

وفي سنة ٧٥١ حدث تحول خطير لصالح البابوية إذ طلب ببين الثالث Pepin III مساعدته في الحصول على التاج الفرنجي. فقد كان ببين يمثلك السلطة الفعلية من خلال منصبه كعمدة للقصر الملكي، بينما كان الملك الميروفنجي قد تحول إلى شخص لا قيمة له على الاطلاق، إذ كان الملك الميروفنجيون قد جردوا من سلطاتهم وأملاكهم، بل كان الملك يركب عربة تجرها الثيران مثل أي فلاح، ولكنه كان مايزال يحتفظ باللقب الملكي الذي تحول التقاليد الفرنجية القوية دون استيلاء ببين عليه. ومن ثم لجأ إلى البابوية التي لم تبخل عليه بالاجابة المطلوبة. وتم ارتقاء ببين للعرش الفرنجي خلال احتفال ديني متقن وقام بونيفاس Boniface _ بوصفه ممثلا للبابوية _ بمسحه بالزيت المقدس بنفس طريقة ترسيم الاساقفة. وكانت هذه نقطة تحول هامة في تاريخ البابوية وعلاقتها بالملكية، فقد منابة اعتراف من ملك الفرنجة بسيادة البابوية على ملوك أوربا الفربية. هذا المبدأ الذي تمت صياغته في أشهر عملية تزوير في تاريخ العصور الوسطى فيما عرف باسم «هبة قنسطنطين Donatio لنفسها الزعامة على غرب أوربا.

إلا أن الأعوام الثلاثين التالية جاءت رياحها بها لا تشتهيه سفن البابوية، إذ تأكد أن الزعامة الحقيقية في يد شارلان (٨٦٨ – ٨١٤) لا في يد البابا. ولم يلق شارلان بالا إلى «هبة قنسطنطين» أو «هبة ببين» التى كتبها أبوه اعترافا بفضل البابوية وتأكيدا لحقوقها. ولما كان شارلان يمارس حقوقه كملك وقسيس rex et Sacerdos فقد التف حوله رجال الكنيسة الفرنجية، ولم يتبق للبابوية ف =

⁽٣) جاء تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث Leo III سنة ٨٠٠ كاخر درجة في سلم تصعيد البابوية لمحاولات تأكيد سيادتها على ملوك أوربا الغربية. وترجع الخيوط الأولى لهذه المحاولات إلى ايام النزاع الايقوني، ففي أواخر عشرينيات القرن الثامن حرم الامبراطور البيزنطي ليوالايسوري استخدام الصور والتماثيل (الايقونات) في الكنائس على اعتبار أنها من مظاهر الوثنية وعبادة الاصنام. لكن البابوية اتخذت موقفا معارضا عنيفا من تصرفات الامبراطور، ولم تسلم بحقه في التشريع لمثل هذه المسائل الدينية الهامة. ووجدت البابوية نفسها في مأزق حقيقي آنذاك بسبب ضعف الملكية الميروفنجية من ناحية، ووجود الجيش البيزنطي في إيطاليا على مقربة منها من ناحية أخرى. وحين طلبت البابوية في سنة ٧٣٩ من شارل مارتل Charles Martel حمايتها من الامبراطور البيزنطي واللمبارديين رفض بسبب ما كان يواجهه من مشاكل داخل الملكة الفرنجية.

رجال الكنيسة. وربما لم يكن اللقب الامبراطورى يفيده في شيء على الاطلاق. ذلك أن فتوحاته وأملاكه التي ورثها عن اسلاقه أسبغت عليه من القوة والمجد ما يكفيه كملك، فما حاجته إذن للقب الامبراطورى؟ كما يخبرنا اينهارد أن لقبه الجديد سيكون حجر عثرة في سبيل بناء علاقات طيبة مع البيزنطيين الذين كانوا يعارضون أي حاكم غربي يغتصب اللقب الذي اعتبروه وقفا عليهم. وكل ما يمكننا أن نقوله عن موقف اينهارد دون خشية أو تردد هو أنه اختار للسيرة التي يكتبها نموذجا علمانيا أخذه عن سويتونيوس ولم يبذل أية محاولة لصبغها بالصبغة الكنسية. أما مسألة مدى علمانية قيمه، فهي مسألة تختلف فيها الآراء. كما أنه يصعب علنا أن نحدد إلى أي مدى كانت قيمه أنعكاسا لقيم شارلمان. إذ أننا لا نعرف ما إذا كان شارلان قد ائتمنه على أسراره أم لا.

هذا الكتاب اللغز كان له تأثيره على التراجم التى كتبت فيما بعد، ولكن طبيعة هذا الكتاب في حد ذاته وقفت حائلا دون تقليد التراجم اللاحقة له تقليدا حرفيا. فقد كان خلفاء اينهارد من القساوسة لا من العلمانيين، ولذا كانت رؤيتهم للأمور أقل علمانية. كما أن موضوعهم قد اختلف أيضا. فلم يكن ثمة شارلان آخر، فضلا عن أن رجال الكنيسة وسعوا من نطاق تدخلهم في الشئون السياسية بعد موته، ولم يؤد انهيار

Einhard, pp. 80-82; Cantor, Med. Hist., pp. 191-9

انظر:

Margaret Deanesly, A hist., of the Med. Church, pp. 64-5

Barraclough, The Med. Papacy, pp. 52-5.

ترسانتها الروحية سوى سلاح وحيد هو أحقية البابا في منح اللقب الامبراطوري أو منعه. وبدأ
 البابا يستعد لنقل هذا اللقب من القسطنطينية إلى المملكة الكارولنجية، فقد كانت هذه هي الوسيلة
 الوحيدة لتأكيد سيادة البابوية.

وحدث قرب نهاية القرن الثامن أن أضطر ليو الثالث إلى القرار هربا من وجه الايطاليون الذين نسبوا إليه عدة تهم وعبر جبال الالب ليستنجد بشارلمان حامى الرومان Patricius Romanorum الذي أرسل البابا في حراسة مسلحة إلى روما ثم لحق به حيث عقد محاكمة على النمط الجرماني برئاسته وتمت تبرئة البابا مما نسب إليه. وهوما يعنى أن البابا صار مدينا بوظيفته لشارلمان. بيد أن البابا كان قد قرر أن يمضى في الشوط إلى مداه. فانتهز فرصة ركوع شارلمان أمام مقبرة القديس بطرس ووضع التاج على رأسه فجأة، وصاح الحاضرون من رجال الكنيسة والعلمانيين صيحة كانوا قد تدربوا عليها جيدا: «شارل أوغسطس. أميراطور الرومان. عظيما مانحا للسلام، له الحياة والنصر».

انظر ایضا: فیشر: تاریخ اوربا العصور الوسطی (ترجمة زیادة والعرینی، الطبعة الخامسة، دار المسارف) من ۸۶ من ۹۰ وکندلسك سعید عناشنور: اوربنا العصندور النوسطی، ۳ج ۱، من ۱۹۲ من ۱۹۲ من ۱۹۲ من (المترجم)

امبراطوريته إلى ذلك النوع من التفكك المستحسن الذى وجده اينهارد في «سير القياصرة» التي كتبها سويتونيوس.

ذلك أن الانهيار قد حدث بسرعة، كما أن حياة «لويس التقي» أبن شارلمان تثير الشفقة لا المديم والثناء؛ فقد تركت مشاكله ومتاعبه وما لقيه من إذلال وتحقير مسحة من الحزن على صفحات تاريخه. وكان ثيجان Thegan ، أول من كتب تاريخه، مساعدا لاسقف تربيه Trier كما كان شريكا قويا للويس. وقد أغفل ثيجان الاطار الذي وضعه سويتونيوس لكتابة التراجم واتخذ لنفسه صيغة قصصية يمكن من خلالها تقديم العرض الدرامي. وبدلا من أن يتجنب لغة الكتاب المقدس، كما فعل أينهارد، تمرغ في تعبيرات هذا الكتاب. فالنص اللاتيني للعهد القديم حافل بمجموعة من الكلمات التي لا تبارى في التعبير عن مشاعر الحزن والغيظ، واستغل ثيجان هذا النص إلى أقصى حد، وبدلا من أن يبقى هو في الخلفية كما فعل اينهارد، يبدو حضوره وأضحا فيما يسوقه من عبارات التعجب والابتهال. وقد راقه تدين لويس باعتباره من رجال الكنيسة. واسهب ثيجان في وصف موقف الامبراطور المخزى أمام الباب، كما أطنب في الحديث عن التزامه الاخلاقي. إذ كان لويس اكثر تزمتا وتدينا من أبيه، فهو لم يضحك أو يظهر أسنانه البيضاء من خلال ابتسامة حتى في أيام الأعياد، عندما كان كل من حوله يستمتعون بالموسيقي ومشاهد التمثيل. وأدى السؤال عما إذا كان ينبغى أن يقاسى مثل هذا المسيحى الطيب المصائب والكوارث، إلى أن طرق ثيجان باب التحليل التاريخي. واخذ يهتم بالبحث عن السبب الانساني والسياسي في الظاهرة التاريخية. وانتهى إلى أن الامبراطور اختار مستشاريه من الاشرار ذوى الاصل الوضيع فخانوه. لقد حارب لويس مبدأ الهيراركية (تدرج المرتب في النظام الكنسي). على حين اعتبر ثيجان أن عظماء الرجال هم المستشارون الطبيعيون لأى حاكم.

وقد اتضح التناقض بين اينهارد وثيجان امام عينى معاصرهما «ولقريد سترابو Walafrid Strabo» فهو الذى نشر «حياة شارلمان» وكتب لها مقدمة اثنى فيها على تعليم اينهارد وشخصيته وحصافته السياسية، وهى الصفات التى جعلته كاتبا ثقة. ويتلمس سترابو العذر لثيجان في أن كتابته أقل من مستواها من كتابة اينهارد، كما يحاول تبرير هذا: إذ يرى أن ثيجان لم يكن لديه الوقت الكافي للكتابة نظرا لكثرة مشاغله كأسقف، كما أن حبه للعدالة ومشاركته للويس جعلته يبدو مبالغا؛ أما اينهارد فإنه كتب «ترجمة» رشيقة الأسلوب وجديرة بالثقة.

وثمة معاصر لثيجان ولكنه أصغر عمرا كتب «ترجمة» أخرى للويس التقى. فقد توفف كتاب ثيجان قبيل موت الامبراطور سنة ٨٤٠. ووصل المؤلف الثانى بكتابه إلى العصر الذي يعيش فيه، وقد كتب تحت اسم مجهول وكل مانعرفه عنه أنه كان قسيسا

وفاحدا من أفراد الحاشية. ويسميه المؤرخون المحدثون «الفلكي Astronomer لاهتمامه بالكواكب والنجوم. ويضعه منهجه ككاتب تراجم في منتصف الطريق بين اينهارد وثيجان. فهو يحذو حذو اينهارد في قلة اقتباسه من الكتاب المقدس. كما أن قيمه كانت أكثر علمانية من قيم ثيجان؛ ذلك أنه يستنكر هوان الامبراطور في تبجيله للبابا. بيد أنه كان موزعا بين طريقين. فقد تخلي عن طريقة اينهارد في بناء الترجمة واختار للترجمة التي يكتبها صبيغة قصصية في اساسها. كما أنه يورط نفسه أحيانا في المحسنات البديعية مما يعكر صفاء لغته ونقاءها. فالشيطان _ تلك الشخصية التي لم تعرفها الآداب الكلاسيكية _ يتسرب إلى ثنايا قصته لكي يحرض أبناء لـويس على الثورة ضد أبيهم.

وهناك كاتب تراجم آخر في العصور الوسطى حاول تقليد أينهارد، هو أسير Asser أسقف شيربورن Sherborne الذي اتخذ «حياة شارلمان» نموذجا نسج على منواله «حياة الملك الفرد» (٨٩٣) إلا أنه لم ينجح في ذلك. فقد تسرب تأثير «سير القديسين» إلى كتابه لانه حاول تصوير الملك الانجليزي في صورة الرجل المقدس. كانت الناحية القصصية عند اينهارد غاية في الجفاف، وأراد أسير أن يسبغ عليها مزيدا من القدسية وأن يجعلها أكثرة مدعاة للشفقة. ويقول أسير إن الفرد مثل شارلمان تعلم الكتابة في أواسط عمره، بهدف تعليم شعبه بعد نهاية الحروب الدانمسركية. وهذه المقارنة التي تحمل بصمات الكتاب المقدس تضفي مسحة من الرزانة على قصة ألفرد في سبيل التعليم والقراءة. ويشبه آسير «باللص التائب» الذي شملته رحمة المسيح، ثم نعم بمسرات الفردوس في وقت متأخر. وهو يفرض نفسه على الترجمة التي كتبها والصورة التي يرسمها على نحو ما فعل ثيجان تماما. أذ يحكى لنا كيف أنه شجع الفرد على القراءة وعلى جمع ما يلزم «لكتابه التافه» وتعلو في سياق قصة «أسير» تلك النغمة التي تشي بالحماية التي يبسطها رجل الكنيسة إذا ما تحدث عن أحد العلمانيين، حتى ولو كان رجلا موهوبا تقيا مثل الفرد. وكانت نتيجة هذا أن أخرج لنا عملا مختلفا تماما عن «حياة شارلمان».

ومن حسن طالع كتابة التراجم أن أينهارد ضلل مقلديه. فلم يكن بوسع القسيس أن يكتب مثلما يكتب المؤلف العلماني، ولا أن يضحى بالدراما وعامل الاثارة بالتخلى عن السرد القصيصى والتعليقات العاطفية، ولما لم يكن بوسع المؤلف أن ينسخ ويقلد، تعين عليه أن يبتكر. وهو ما يعنى أن مقلدى اينهارد قد اضطروا إلى أن يكونوا مبدعين.

وكاتب التراجم التالى الذى نقدمه، لم يفكر نهائيا في اينهارد. فقد كتب هيلجالد

Helgad الذي كان راهبا في دير فليرى Fleury على نهر اللوار Loire، قصة حياة الملك الفرنسي «روبير التقي» عقب موته سنة ١٠٣١. وقد قلد هيلجالد سير القديسين في صياغة كتابه الذي كان مفروضا أن يقرأ بصوت عال في المحافل الدينية للحض على الفضيلة. وفي هذا الكتاب يبدو «روبير» في صورة ملك مسيحي مثالى. إذ أنه يقوم بما تميز به من تواضع ورحمة وحسن عقيدة بالدفاع عن الكنيسة والشعب وحمايتهما ضد الاشرار. كما كانت فضائله عظيمة بدرجة جعلته جديرا بأن تتم المعجزات على يديه. وقد حصن هيلجالد نفسه ضد النقد بأن سمي كتابه «الخلاصة»؛ لأنه لم يرو كل شيء. إذ كان يسمح لنفسه بحذف مالا يروقه. فقد أغفل التاريخ السياسي والعسكرى تماما. فملوك آل كابيه الأوائل في فرنسا لم يفعلوا شيئا سوى الحفاظ على عروشهم. كما أن روبير لم يكن ملكا فاتحا، فضلا عن أن صحة عقيدته في حاجة إلى إعادة النظر والتمحيص. ولم يذكر هيلجالد شيئا عن متاعب الملك الزوجية أو عن قرار الحرمان الذي وقعه البابا عليه.

ثم يظهر سبويتونيوس واينهارد فجأة في سياق الكتاب. فقد لجأ هيلجالد إليهما لسد الفجوة التي لاحظ وجودها في سير القديسين التي ترسم صبورا مسطحة خالية من عناصر الاثارة والتشويق. لقد زار هيلجالد البلاط في زيارة عمل لصالح ديره، وقابل روبير شخصيا، وهو يستعين بذاكرته في الوصف الحي لخصائص روبير الجسمانية. بل إنه يحكى لنا كيف كان الملك يمتطى جواده. وهنا تبرز الصورة التي رسمها باعتبارها نصرا للملاحظة داخل إطار تقليدي.

لقد كانت الامبراطورية تقدم لكتاب التراجم مادة أوفر من تلك التي كانت الملكية الفرنسية في القرن الحادي عشر تقدمها لهم، إذ أن حدودها كانت أرحب، لأن الامبراطور الألماني كان يحكم دوقيات اللورين وجزءا من لمبارديا وبرجنديا، كما كان يبسط حمايته على البابوية. وكانت الشعوب التي تعيش على حدوده الشرقية خاضعة لنفوذه بدرجة أو بأخرى. ولدينا ترجمة كتبها قسيس البلاط فيبو Wipo للامبراطور كونراد الثاني Conrad II سنة ٢٤٠١. وقد كرسها فيبو لهنرى الثالث ابن كونراد. وكان هدف الترجمة أن يعيد احياء التدوين التاريخي الامبراطوري الرسمى الذي كان قد انهار خلال سنى حياته. وكان المفروض أن يقدم كتابه المسمى «حياة كونراد» تقريرا لهنرى الثالث عن سياسة أبيه وحملاته العسكرية. بل إن فيبو كان يخطط على أساس أن يكتب سجلا لأعمال هنرى حتى يفيد منها كتاب التراجم اللاحقون. ولأن فيبو كان قسيسا في بلاط كونراد، فإنه استطاع أن يكتب كشاهد عيان، إذ كانت أمامه فردس طيبة للملاحظة وجمع المعلومات من مصادرها الأصلية. وفي بعض الأحدان كان قصيه عن البلاد، ولكنه يخبرنا بذلك بقوله إنه اعتمد على مصادر موثوق بها.

وكان لفيبو هدف دينى مثل هيلجالد، بيد أنه كان أكثر منه طموحاً. فقد صاغ هيلجالد كتابه «حياة الملك روبير» على نسق سيرة أحد القديسين، كما أنه اغترف من طبق اينهارد لكى يجعله أكثر أثارة. أما فيبو، الذى كان يشعر بأهمية موضوعه، فقد جند المديح الكلاسيكى للحاكم في خدمة هدفه كمبشر وواعظ. ففى رأيه أن كونراد جدير بالمديح والثناء: ذلك أنه أحرز الانتصارات على أعدائه، كما أخمد حركات التمرد والعصيان. وقد زعم فيبو أن الأعمال المجيدة لأى حاكم مسيحى حقيقة بأن يبشر بها ويثنى عليها، لقد كانت أعمال الابطال الوثنيين محل احتفال وثناء، كذلك لقيت أعمال ملوك بنى اسرائيل الحفاوة والمديح. فيالها من بلادة لاتغتفر أن نهمل قصص الملوك والأباطرة المسيحيين! وأهتم كونراد بالصالح العام، كما أنه أدى مهمته على نحو بلغ من جودته أن سبب موته حزنا عاما لم يسمع عند موت أى امبراطور قبله. ويخلص فيبو من هذا إلى أن كاتب الترجمة مبشر بالانجيل أيضا فيقول:

«إن ملوكنا الكاثوليك المدافعين عن العقيدة يحكمون دون خشية الخطأ، طالما انهم يحافظون على قانون المسيح وعلى السلام الذى اودعنا اياه في انجيله. ومن ثم فإن الترويج الإعمالهم الطيبة عن طريق الكتابة الايقل عن التبشير بانجيل المسيح».

إلا أنه استدرك بقوله إن أعمال الحكام السيئة تستحق التسجيل على سبيل التحذير.

ومما يؤخذ على فيبر أن معلوماته كانت في حاجة إلى بعض المراجعة مثل هيلجالد. فقد كان تعاطف كونراد تجاه الكنيسة أقل من تعاطف أسلافه من الأباطرة السكسون. بيد أنه يحق لكاتب ترجمته أن يفخر بأن «ترجمته» قد ارتقت مثل هذا المستوى العالى. فقد كان فيبو يكتب بجدية. كما كان يتجنب التفاصيل التى اعتبرها غير ذات قيمة؛ فليس ثمة ثرثرة أو استطراد رغم أنه أورد بعض القصيص عن خصائص سلوك كونراد لابراز أخلاقياته. وبرهن على أنه باستطاعة كاتب الترجمة الملكية أن يضيف من لدنه إلى سير القديسين التى كانت بمثابة امتداد للكتاب القدس.

ولو أن كاتب سيرة هنرى الثالث قد وجد المثال الذي يحتذيه، فربما كانت «سيرة كونراد » هي هذا المثال، وكانت هذه الترجمة غير ذات جدوى بالنسبة لكاتب ترجمة هنرى الرابع حفيد كونراد. إذ كان عهد هنرى هذا متناقضا مع عهدى أبيه وجده من جميع الوجوه، فقد مات أبوه وهو بعد طفل، وقد جلبت عليه المتاعب التي واجهها في حداثته مأساة شخصية، كما جلبت الكارثة على الامبراطورية أيضا، فقد تمرد عليه بناؤه، كما كانت انتصاراته هشة. وبينما كان باستطاعة كاتبي ترجمة لويس التقي

أن يركزا على حقيقة أن لويس، رغم كل ما صادفه من عثرات، ظل على الدوام ابنا وفيا الكنيسة، فإن هنرى الرابع، على عكس ذلك، تعرض للحرمان الكنسى والطرد من رحمة الكنيسة على يد البابا جريجورى السابع. لقد سمح هنرى لنفسه أن يتوج بيدى البابا الذي عينه بعد أن طرد جريجورى من روما. بيد أن تلك كانت آخر أوراقه، ذلك أن البابا المضاد الذي عينه لم يكن سوى القائد الكنسي لحزب الامبراطور. ورغم أن النهاية العادية لحكم أى امبراطور تتمثل في التتويج المجيد لابنه ووريثه، فإن وريث هنرى كان متمردا حين مات الامبراطور المسن، الذي جاء الموت راحة له في خضم المسائب التي أحدقت به.

ولا بد أن الأمر تطلب قدرا كبيرا من الشجاعة لكتابة دحياة هنرى الرابع». إذ لم يكن لدى المؤلف أية سوابق يهتدى بها في عمله. ولم يكن بمقدوره أن يقدمه في صورة الفاتح، أو الشخص المقدس، أو حتى الرجل الحكيم. لأن سياسته آلت إلى الفشل. وأيا كان حجم الكتاب فإنه لم يكن كافيا لقولبة المعلومات التى جمعها الكاتب في النموذج الذى أعده لكتابه. فضلا عن أن ذلك لم يكن ليحسن صورة هنرى بحيث يمكن تقديمه في صورة الضحية التى قضت عليها مؤامرة حاكها البابا. لأن ذلك كان سيؤدى ضمنا إلى تعتيم صورة جريجورى السابع على سيؤدى ضمنا إلى تعتيم صورة جريجورى السابع. لقد جلب جريجورى السابع على نفسه عداوة الكثيرين، ولكن خليفته أوربان الثانى Urban IIكثر منه حنكة في النواحى السياسية، بحيث أن الرأى العام تحول إلى الجانب البابوى مرة أخرى في الوقت الذى مات فيه هنرى الرابع سنة ١٠١٦. وكان لا بد من تناول مشكلة التقليد العلماني (٤). بشكل حذر.

⁽٤) مشكلة التقليد العلمانى تجسيد للصراع بين الملكية والبابوية عُلى تبوا المكانة العليا في غرب الوربا في العصور الوسطى. إذ كان الحكام العلمانيون يرون أن من حقهم تعيين رجال الدين في المظائف الكنسية داخل أراضيهم باعتبار أن هذا حق موروث. بينما تمسك البابوات بمهدأ سمو «نائب المسيح وخليفة القديس بطرس» على الحكام العلمانيين، وبالتالي رفضوا حق الملوك في تعيين رجال الدين أو التقليد العلماني.

وقد تفجرت المرحلة الأولى من هذا الصراع بين الملكية والبابوية في الربع الأخير من القرن الحادى عشر لتستمر على مدى خمسين عاما في المانيا، ثم تنتقل إلى انجلترا. ففي ذلك الحين اندلع الصراع بين الامبراطور الالماني هنرى الرابع Henry IV والبابا جريجورى السابع Gregory VII ولنبدأ القصة من أولها.

في سنة ١٠٧٥ كان هنرى الرابع قد أصبح أقوى حاكم في غرب أوربا بعد انتصاره الساحق على أسنة ١٠٧٥ كان هنرى الرابع قد أصبح أوربا بيد أن الراهب هيلدبراند الذي كان قد السكسون، وبدا وكأن زعامة غرب أوربا قد صارت من نصيبه، بيد أن الراهب هيلدبراند الذي كان قد اعتلى عرش القديس بطرس تحت أسم البابا جريجورى السابع القى القفاز في وجه هنرى الرابع مما جره إلى ميدان الصراع ضد البابوية، فلم يكن الامبراطور غافلا عما حدث في روما أبان انتخاب جريجورى ولكنه أثر أن يترك الشئون الايطالية ريثما يتفرغ لها، ولكن «الشيطان القدس» سع

......

= (جریجوری) لم یشأ إلا أن یتحدی الامبراطور بقراره ضد التقلید العلمانی، وتهدید هنری بالعزل إذا لم یمتثل.

ويرى بعض الباحثين أن هذا التصرف من قبل البابا يكشف عن أن البابوية لم تعد ترى في «هبة قنسطنطين» ما يكفى لتحقيق زعامة البابوية وسيادتها على غرب أوربا بالشكل الذي يرضى جريجورى ومعاونيه. ذلك أن هذه الوثيقة يمكن أن تفسر المبالح الامبراطورية، إذ أن الدراسة المتأنية لنصوصها توضيح أن الامبراطور هو الذي يمنح السلطة للبابوية على الكنائس الأخرى، وكانه يضيع التاج الامبروطوري على مفرق البابوية بنفسه، ولم يكن جريجوري السابع ليقنع بهذا المركز للبابوية. وتكشف رسائله عن مكانة البابا كزعيم للعالم المسيحي بتفويض، أو هبة، من المسيح نفسه وليس من أي حاكم علماني.

وأيا كانت دواقع جريجورى السابع لهذا التصرف فإن هنرى الرابع راى في حرمانه من حق تعيين رجال الدين ما يهدد نظام الحكم في مملكته. وكان طبيعيا أن يتصدى لهذا التصرف البابوى في حزم. واتخذ الصراع لنفسه ميدانا في إيطاليا حيث تنافس كل من البابا والامبراطور حول تأكيد حقه في تعيين اساقفة بعض الاسقفيات الشاغرة. وتمثلت الضطوة التالية في تصعيد الصراع بأن عزل كل منهما الآخر، فضلا عن قرار الحرمان الذي وقعه البابا على الامبراطور، ولم يكن جريجورى السابع يخشى الجيش الامبراطوري بفضل حلفاء البابوية الاقوياء في ايطاليا (ماتيلدا ملكة تسكانا، والنورمان). ثم تحرج موقف هنرى الرابع بثورة أمراء المانيا واساقفتها عليه وفرض الاقامة الاجبارية بأحد الاديرة عليه، وانذاره بالخلع من عرشه وتعيين ملك آخر إذا لم يصدر قرار العقو البابوي عنه قبل فبراير سنة ٢٧٧.

ولم يجد هنرى الرابع بدا من الاستسلام. فذهب إلى البابا الذى كان قد احتمى بقلعة كانوسا Canossa. وتشكل الاحداث التى جرت بهذه القلعة الجبلية واحدا من أعظم المشاهد الدرامية في التاريخ الأوربى. فقد ظل الامبراطور التعس واقفا يعانى الاذلال والبرد القارص ثلاثة أيام حتى سمح له البابا بالمثول بين يديه، ثم غفر له بشكل مهين. وهكذا استرد الامبراطور عرشه بعد أن فقد كرامته وهيبته. بيد أن أحداث كانوسا، من ناحية أخرى لم تكن مكسبا للبابوية، إذ أثار مسلك جريجورى السابع العنيف استياء المعاصرين كما تأجج في نفوسهم التساؤل حول النوايا الطيبة والمستوى الاخلاقي للبابوية، وهو التساؤل الذي بذر بذور الشك حول البابوية، وهي البذور التي نمت سريعا إبان القرن التالى.

ووقفت معظم المانيا ـ باستثناء السكسون ـ بجانب هنرى ضد رودلف ملك سوابيا الذى تم تعيينه بدلا منه. وإعلن البابا تاييده للملك الجديد وإعاد فرض قرار الحرمان على هنرى الرابع. بيد أن الرياح جاءت بما لا تشتهيه السفن البابوية. إذ مات رودلف. وام تسمع ظروف ماتيلدا ملكة تسكانيا والنورمان بحماية البابا ثم سقطت روما في ايدى قوات هنرى الرابع حيث تم تعيين البابا الجديد كليمنت الثالث. واستنجد جريجورى بالنورمان الذين اقتحموا المدينة الخالدة سنة ١٠٨٤. وانشبوا فيها مخالب النهب والتدمير مما فرض عليه أن يرحل معهم عنها حيث مات مريضا في سالرنو سنة فيها مخالب النهب والتدمير هما فرض عليه أن يرحل معهم عنها حيث مات مريضا في سالرنو سنة

= Cantor, Med. H'st pp. 293 304, 312-16.

وثمة كاتب مجهول أخذ على عاتقه مهمة تبرير تصرفات الامبراطور. وكل مانعرفه عن هذا الكاتب المجهول أنه كان يعيش في فلك الامبراطور. قرب نهاية حكمه، وأنه كتب مؤلفه هذا بعد موت هنرى الرابع مباشرة، وكان على معرفة جيدة بالكلاسيكيات اللاتينية وبالكتاب المقدس، وبسير القديسين، ومن ثم فمن المحتمل أنه كان قسيسا. والسيرة التي كتبها تأخذ شكل مرثية جنائزية. إذ أن شعب هنرى قد ارتدى ملابس الحداد حزنا عليه وتعبيرا عن تعاطفهم معه في السراء والضراء. ويطلق الكاتب لشاعره العنان لكي يهدىء من سورة حزنه على سيده. فقد تمرغ الشرف الامبراطوري تحت الأقدام، ذلك الشرف الذي بلغ مكانة سامية في عهود أسلاف هنرى. وهو أمر يدعو إلى الحزن والأسى، فلماذا حدث؟. يرى المؤلف المجهول أن ماحدث ليس نتيجة لخطايا هنرى، صحيح أنه انغمس في لهو الشباب وعبثه، ولكنه تاب إلى حياة الفضيلة فيما بعد. ووجد المؤلف السبب التاريخي لما حدث ف المتاعب التي واجهت هنري قبل أن يبلغ سن الرشد، وفي التدهور الداخلي الذي كان قد بدأ في مملكته. كما أن الرجال الأقوياء معتادون على الشد والجذب، ولا يلائمهم السلام وما فيه من دعة لأنه يحد من طموحهم؛ ومن ثم فهم لايركنون إلى حياة السلم طويلا. ولذا فقد تفجر العصبيان ضد هنرى بمجرد أن أرسى دعائم القانون والنظام، فضلا عن أن هناك سببا انسانيا يفسر لنا تمرد أبناء هنرى عليه، وهو أن أعداءه قد أغروهم بما بذلوه من وعود كما لعبوا على أوتار المواجهة بين الشباب والمسنين.

وقد غاص المؤلف المجهول في أغوار مشكلة السببية لمسافة أبعد مما وصل اليها شيجان في كتابه «حياة لويس التقى» ويود المؤرخون المحدثون لو أنهم تعمقوا أكثر من ذلك في سبيل الكشف عن أسباب تدهور السياسة الألمانية خلال سنى حداثة هنرى، بيد أن الكتاب يتوقف بهم عند مجرد التخمين، وقد مارس كاتب ترجمته قدرا ضئيلا من الخداع بابراز الأعمال القليلة الناجحة التى أتاها هنرى. كما صور توبته في كانوسا كما لو كانت انقلابا سياسيا، فقد سبق أعداءه بالحيلة وذهب إلى جريجورى لينال عفوه، واستبدال اللعنة بالبركة، ثم عاد إلى ألمانيا ليسحق المتمردين. ومن المؤكد أن هذه كانت حركة بارعة من هنرى، رغم أنها لم تكن ناجحة بالقدر الذي يصوره المؤلف المجهول، فمازال السبب في أن هنرى لم يستطع أن يستمتع بانتصاراته قط خافيا. إذ لازم النحس والهزيمة خطواته، وقد هون المؤلف المجهول من سياسة هنرى

⁼ أيضًا سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ٣ج١، ص٣٣٨ ـ ص ٣٩٤، كذلك انظر لمزيد من التفاصيل:

Southern, Western Society, pp. 100-106; Margaret Deanesly A hist of the Med, Church, pp. 98-103; Barraclough, The Med. Papacy, pp. 77-93.

المعادية للبابوية ولم ينتقد البابا جريجورى السابع بشكل مباشر. وتولت «عجلة الحظ» الاجابة عن السؤال المشكلة. إذ أن الحظ حول هزائم هنرى إلى انتصارات، ولكن ربة الحظ لم تلبث أن القت به كسير الفؤاد. ويطرح العلماء الألمان آراءهم عن دور الحظ فى كتاب «حياة هنرى الرابع». ففى رأيهم أنه يمكن تفسير دور الحظ على أساس أنه يقدم لنا رؤية شاملة للتاريخ. إذ أن الصورة التى رسمها بوئيشوس للربة المتقلبة ارتبطت بالمفهوم السائد في بلاد الشمال، والذي يعتبر أن الحظ مرتبط برئيس القبيلة الذي كانت هزيمته تفسر على أنها سوء حظ الناس جميعا. أما مشاكل هنرى فكانت تبدو فظيعة في نظره هو وحده. وثمة رأى آخر أقل تطرفا يرى أن المؤلف المجهول لجأ إلى الحظ كسبب ثانوى، لأنه لم يقصد أن يؤلف كتابه في الموضوع، كما أن كتاب لا يلقى الضوء على دور الحظ أو يبينه. بل إنه، على العكس، يستخدم الحظ بشكل الذي لاينتهى، ولكى يستثير شفقة القراء وتعاطفهم. كما أنه يزيد من إحساسنا الذي لاينتهى، ولكى يستثير شفقة القراء وتعاطفهم. كما أنه يزيد من إحساسنا الذي لابنتهى، ولكى الرأى الثاني. إلا أن المؤلف المجهول كان فنانا على أية حال، إذ انه حقق لهنرى سمعة طيبة، ورغم أنه لم يخطط لكتابة تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أنه أمعن التفكير والتأمل في مشاكل السببية.

كانت للملكات تراجمهن أيضا. وأكثر هذه التراجم إشراقا هي «الثناء على الملكة إيما». وكلمة «ثناء» أو «مديح» عنوان مستحدث للكتاب، ولكنه يعبر عن قصد المؤلف في مديح الملكة. وإيما Emma هي أرملة الملك أيثيلريد Aethelred، ثم زوجة الملك الدانمركي كنوت Cnut. وقد كلفت أحد الكتاب ـ ربما كان قسيسا في كنيسة سان أومير St. Omer أو راهبا في دير سان برتين St. Bertin المجاور ـ بكتابة مديح لها ولهائلتها. وكان والد إيما دوق نورماندي، كما أنها أمضت ثلاث سنوات من عمرها في إقليم فلاندرز. ولما كانت تعرف أن كنيسة سان أومير تمتلك تراثا أدبيا، فقد رأت أن أي راهب أو قسيس فيها سيكون طويل الباع في مجال الدعاية. وهناك في حياتها الكثير مما يشكل عقبة في سبيل من يرد أن يكتب مديحا لها، لا سيما إذا كان سيكتب عن حياتها إبان الفترة من ١٠٤٠ إلى ١٠٤٢. إذ كان من الواجب أن تتحل الملكة بفضائل المرأة؛ وذلك بأن تكون زوجة محبوبة وأما عطوفة. ولكن إيما كانت قد تزوجت مرتين، وكان زوجها الثاني عدوا لزوجها الأول. وكجزء من الصفقة، وافقت على أن يتنازل وبات واضحا أنها تتجاهل أولادها من الملك الانجليزي في سبيل مصلحتها الخاصة. والواقع أن فرصتهم في العرش كانت ضئيلة على أية حال.

وقد تجاهل المؤلف المجهول أى ذكر لزواج إيما الأول. وحاول أن يوهمنا أنها لم تكن

أرملة حين اتخذها كنوت عروسا له، وأن أبناءها من ايثيلريد كانوا أصغر من أبنائها من الزواج الثانى، وأن هذا هو السبب في أنهم لم يطالبوا بأية حقوق تجاه أبناء كنوت. ولما كان من المتوقع أن يعرف الحقيقة عدد كبير من القراء، فقد استخدم المؤلف المجهول كلمات حريصة اختارها بحذق بحيث لا يستطيع أحد أن يمسك عليه كذبة مختلقة. واستخدم نفس هذا الأسلوب الفنى لتشويه الحقائق في أجزاء أخرى من كتابه. وهو يكرر ذكر «الكليشيه» الذي وضعه في المقدمة من أن «على المؤرخ أن يقول المحقيقة»، ثم يفسر هذه العبارة ببراعة بأنها تعنى «لا شيء غير الحقيقة» ورغم أنها «ليست الحقيقة الكاملة». وحين لا يكون لديه ما يدعو إلى التضليل يقدم لنا صورة صحيحة وكاملة عن الانجليز وبلادهم في نطاق إمكانياته كرجل أجنبي يعتمد على ما يسمعه من الأخرين.

أما إيما نفسها فتختفى خلف سحابة من الاستعارات والكنايات البلاغية، ولكن المؤلف الذى مدحها استطاع أن يكتب في أسلوب ينبض بالحيوية عن مشاهداته الشخصية، مثال ذلك ما كتبه عن كرم كنوت وتقواه الواضحين إبان زيارته لسان أومير. وصوره الشهيرة التى وصف بها المشاهد البحرية مستقاة من قراءاته لفرجيل من ناحية، ومن قدرته على الابداع الخيالى من جهة أخرى. وربما يكون قد سمع وصفا لأساطيل الفيكنج، رغم أنه من المحتمل ألا يكون قد رأى واحدا منها. فقد استولت على خياله. وثمة صورتان عن أساطيل الفيكنج التى تبهر العين بمقدماتها المذهبة وأسطحها الملونة تتألقان بين صفحات كتابه، كما تبرز من بين السطور تلك الكائنات الخرافية، والدرافيل المحفورة على مقدمة السفينة، والتنين والعجول التى تبدو كما لو كانت حقيقة، وراية الغراب السحرية التى ترفرف على الاساطيل الدانمركية. كلها تشى بقراءاته حول هذه الموضوعات.

وفى كتاب «حياة لويس السمين» الذى كتبه سوجير Suger مقدم دير سان دينيس (ت ١٩٥١)، تختفى الدراما، والخيال، والكتابة المتألقة. ونجد أنفسنا أمام ترجمة مملة ورتيبة تركزت على مسرح صغير هو جزيرة فرنسا Ile - de - France. كانت حسنات لويس السادس (١١٠٨ ــ ١١٣٧) أكثر من حسنات روبير التقى، إذ أنه كان ملكا من الدرجة الثانية. ويتمثل عمله الرئيسي لصالح الملكية الفرنسية في إخماد التمرد الذى قام به البارونات. على حين فشلت سياسته في نورماندى والفلاندرز. وعلى أية حال، كان سوجير داعية نابغة، إذ أنه لوح بعصاه السحرية، وإذا بالبيرة التافهة تتحول إلى شمبانيا فوارة. وجاء السحر ببركة سان دينيس الذى يبسط حمايته على دير سوجير وعلى الأسرة المالكة في فرنسا. وكان سوجير رجلا عظيم الهمة، إذ كان يدير أراضى الدير بكفاءة عالية، ويشيد الكنائس ويزينها كما كان بمثابة الساعد الأيمن

للملك. وركز فى كتابه على دور لويس فى حماية الكنيسة وحمل راية سان دينيس، وقد أظهر الملك إخلاصه لدينيس منذ نعومة أظفاره على عكس أبيه فيليب الأول الذى كان يشعر أنه غير جدير بهذا الشرف، وقد وجد سوجير مكانا له، إذ تنتهى قصة حياته بدفنه هناك.

ويستمد سوجير تأثيره من صراحته وليس من مبالغته. فما هو الداعى لأن يلفق اللويس صورة قديس؟ كان يكفى أنه حارب من أجل سان دينيس، وأظهر مدى ما يتحمله الملك من مشاق في سبيل حماية شعبه من الأعداء. ويبالغ سوجير حين يزعم أن لويس لم يفشل بسبب غروره قط؛ إلا أنه يقول على لسانه في أواخر عهده أنه كان بوسعه أن يحقق من الانجازات أكثر مما حقق. وقد واجه الامتحان الأكبر سنة ١١٢٤ حين لوح الملك الألماني هنرى الرابع مهددا بغزو فرنسا. فدعى لويس أفصاله الاقطاعيين إلى الاجتماع لكي يتبعوه للدفاع عن المملكة. ولكنهم وقد شعروا بمدى ضعفه ـ سلكوا مسلكا غريبا، ذلك أن معظمهم لم يلب الدعوة أو يكلف خاطره مشقة الاعتذار. وعاد الملك بخفي حنين. ويبدو من المصادر الألمانية أنه كان يخطط الشن غارة تأديبية، ولم يكن يخطط لغزو واسع النطاق، كما تكشف هذه المصادر عن أن تمردا نشب في مؤخرة جيشه مما جعله يتقهقر. ولكن سوجير يصور الأمر على أنه انتصار رائع للفرنسيين على الألمان. إذ انتصر سان دينيس في شخص الملك لويس. كما أن سوجير قد شارك في هذا النصر باعتباره مقدم دير سان دينيس، ومستشار الملك وكاتب ترجمته.

ويمكن أن نرى الاستمرارية واضحة في هذه السلسلة المتتابعة من التراجم الملكية. ففي المحل الأول، ليست هناك ترجمة واحدة بينها أخذت على عاتقها مهمة عرض الحقائق والتواريخ: إذ لم تكن هذه المسئلة واردة على الاطلاق. إلا أن سلوجير الواقعي كان أكثر كرما من غيره. وقد اختلط المديح الكلاسيكي بالتراث المسيحي في سير القديسين، الأمر الذي أدى إلى تقليل حجم المعلومات الصحيحة التي كان ينبغي توفرها في الترجمة. ورغم أن النموذج السويتوني كان يتيح قدرا أكبر من الدقة، فإنه لم يكن يرضى الذوق السائد في العصور الوسطى بالمرة. إذ انتصر التراث البلاغي على هذا النموذج. ولا يمكن أن نتوقع الموضوعية من قبل كاتبي التراجم سلواء كانسوا يكتبون بقصد المديح أو بقصد التبرير. وما يحمد لهم هو أنهم يتذكرون النصيحة التقليدية للمؤرخ بأن يذكر الحقيقة وأن يكتب عن الأحداث كشاهد عيان بقدر ما يستطيع. وهم يبقون الحقيقة وأضحة بشكل عام، ويفضلون الحذف والاختيار على الكذب المكشوف، وتبرق أضواء الحقيقة الكاشفة فجأة لتضيء معظم قصصهم التقليدية. ويجب أن نعجب بنبوغهم كرجال دعاية، لأنهم جميعا يبذلون ما بوسعهم التقليدية. ويجب أن نعجب بنبوغهم كرجال دعاية، لأنهم جميعا يبذلون ما بوسعهم التقليدية.

من أجل الحكام الذين فشلوا في تحقيق ما كان مرجوا من أي بطل مسيحي

والتطور ف ميدان كتابة التراجم واضح وحافل بالمعانى. فالكنيسة تتولى أمر كتابة التراجم. وتظل الترجمة التى كتبها اينهارد حالة فريدة. إذ كان الحكم على الحاكم وعرض صورته يتم وفقا للمقاييس التى كان رجال الكنيسة قد تواضعوا عليها. ونحن نعجب بشخصية الملك المخلص التى تتجسد فى لويس التقى، وبشخصية الملك المسيحى فى الفرد، وبشخصية القديس فى روبير التقى، والمبشر الانجيلى فى كونراد، وبالمحسنين الكريمين فى إيما وكنوت، وبحامل راية سان دينيس فى لويس السادس. أما هنرى الرابع المنكود فيبدو فى ترجمته فى صورة من لا يعادى الكنيسة أو البابوية.

ونلمس التقدم نفسه حين نترك التراجم إلى أنماط أقبل تخصصا في التدوين التاريخي. إذ كان الكتاب من رجال الكنيسة الذين يرون التاريخ من خلال عدسات كنسية، ولكن المؤرخ العام لا يلتزم بالخط الجاهز كما يفعل مؤلف الترجمة. وسنجد مزيدا من تغير الاهتمامات، وكثيرا من وسائل تناول المادة التاريخية. كما سنجد عدة مفاجآت.

القصل السادس

التاريخ، المدونة، البحث التاريخي (٩٥٠–١١٥)

توقف التدوين التاريخي، باستثناء الحوليات، في أوربا فيما بين أواخر القرن التاسع، وأوائل القرن العاشر. ذلك أن الصروب التي اندلعت نتيجة لتصدع الامبراطورية الكاروانجية، وغارات الفيكنج، والهنغاريين، والمسلمين جعلت التأليف الأدبى أمرا صعبا. وفجأة ظهر عالم من الطراز الأول هو فلودورد Flodoard قسيس ريمس Rheims (ت ٩٦٦). وكان فلودورد كاتب حوليات دؤوبا؛ ولكنه كتب أيضا · «تاريخ كنيسة ريمس »، كما كتب أشعارا في تمجيد انتصار المسيح وقديسيه. وكان، مثل بيديه، مؤرخا باحثا. إذ كان هدف كل منهما أن يكون أشمل من مجرد جامع للأخبار التاريخية وهو يدرس الماضي البعيد. كما كتب كل منهما في لغة لاتينية كنسية واضحة لكي يصل إلى أوسع جمهور ممكن من القراء، وجمع فلودورد الأدلة والبراهين على تاريخ ريمس الباكر. فاعتمد على بعض الروايات الشفوية، وعلى كتابات الكتاب اللاتين الكالسيكيين، فضلا عن سير القديسين. وتم اكتشاف الملف الذي جمعه أثناء الاعداد للكتابة منذ زمن قريب. ومنه يتضح كيف أضنى نفسه سعيا وراء الدليل التاريخي؛ إذ كان يقتني نسخة من نقش مسجل على مذبح كنيسة فوزجيس Vosges,، وذلك لأن أحد كبار أساقفة ريمس السابقين كان قد كرس نفسه للكنيسة. وقد سناعدته إحدى زياراته لروما على نقل المرثيات المنقوشة على إحدى مقابر البابوية لكى يستخدمها في قصيدة من قصائده. وقدم فلودورد عرضا حاناقا لتاريخ ريمس المتأخر اعتمادا على معلوماته التي استقاها من تجاربه الشخصية.

والمفاجأة التالية هي ما يمكن أن أسميه «تاريخ الصالونات Salon history». وهو نمط من الكتابة يثير الدهشة والاستنكار، كما يبدو من اسمه. وهناك كتاب ثلاثة، وهم لويد براند Liudprand وويدوكند Widukind، وريشر Richer، الذين كانوا متخصصين في الكلاسيكيات، كما اشتركوا في كونهم هازلين متعصبين. وكانوا يكتبون في لغة لاتينية كلاسيكية الطابع. وكان «لويد براند» يرصع لغته اللاتينية بعبارات وكلمات يونانية، وقد خطر ببال المترجم الذي نقل مؤلفاته إلى الانجليزية أن يترجم هذه العبارات والكلمات اليونانية إلى الفرنسية. مما يعطينا انطباعا عن أدبه. ويفضل كل من «ويدوكند» و «ريتشر» استخدام كلمة «معابد» الكلاسيكية عوضا عن كلمة «كنائس»، كما يطلق على الجيوش المعاصرة له اسم «فرق legiones» اللاتينية. وعلى

العموم، فإنهما لم يقتبسا من الكتاب المقدس؛ ذلك أن «لويد براند» لا يستخدم عبارات الكتاب المقدس إلا حين يضطر إلى وصف مناسبة كنسية. ويبدو أن أحدا من الثلاثة لم يكن يتمتع بأية حاسة نقدية، رغم أنهم جميعا عاشوا في عصر شهد أحداثا جساما، ولم يعايشوا هذه الأحداث كمتفرجين، وإنما كرجال ذوى مواقف سياسية واضحة. بيد أن الحقيقة القائلة بأنهم كانوا يرددون الأساطير لا تعنى أنهم كانوا من السذج؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا ليفى ساذجا لأنه يخبرنا بالقصص المتداولة عن تاريخ روما الباكر. كذلك فإن قصص لويدبراند البذيئة تذكرنا بفولتير.

بدأ لويدبراند (ت ٩٧٢) حياته وصيفا في بالاط الملك «هوف Hugh» بإيطاليا، ثم ترقى فيما بعد في خدمة أوتو الأول الذي كان له فضل رسامته أسقفا على كريمونا Cremona. وقد اختار لكتابه الأول عنوانا هي «واحدة بواحدة». إذ أنه كتبه نكاية في أعدائه. وأهدى هذا الكتاب إلى راهب أسباني كان قد قابله في بلاط أوتو بألمانيا، واقترح عليه أن يكتب مؤلفا تاريخيا عن عصره، وهو يوضع في مقدمته أن هدفه تسلية قرائه. لأن دراسة الفلسفة تستدعى التسلية عن طريق الكوميديا أو قراءة التواريخ المتعة للرجال الأبطال. فالطلاب الذين أرمقتهم متابعة شيشرون «سينعمون بالانتعاش في فيض العبارات المتدفقة منى». ويزيد حقده على خصومه في حلبة الصراع السبياسي الايطالي من استمتاعنا بحوليته المخزية. كما تثيرنا تعليقاته الدنيئة اللاذعة إذ يقول: «يحب الايطاليون أن يكون لهم سيدان، وذلك لكي يضربوا احدهما بالآخر». ورغم أن لويد براند كان لمبارديا، فإنه لم يكن يريد لنفسه سوى سيد واحد هو « أوتو» وله مؤلفان صغيران؛ احدهما عن « اعمال أوتو» الذي يكيل فيه الثناء على الامبراطور، بينما يبالغ ف تشويه صورة الحزب المعادى له، والثاني عن « السفارة القسطنطينية »؛ وهو عبارة عن ذكريات ساخرة عن رحلته إلى القسطنطينية، إذ كان يكره البيزنطيين وطعامهم، وعاداتهم، وسائر مظاهر حياتهم. والأذى الذي نتج عن خوضه في الأوحال مايزال باقيا مستمرا. إذ أن المؤرخين لم يبدأوا في التشكك في الصورة التي رسمها للأحزاب المتنازعة في روما إلا منذ زمن قريب. فالبابوات والنساء هم مادته الاخبارية الدائمة، وهي «توليفة» برهنت أن لها سحرا لا يقاوم.

أما ويدوكند، فكان يفضل المعارك على مكائد البلاط. كان راهبا في أحد الأديرة السكسونية في كورفي Corvey، وهو دير اسسته الأسرة الملكية. وكانت تربطه بالأسرة الألمانية الحاكمة علاقة وطيدة، إذ أنه أهدى كتابه المسمى «أعمال السكسون» إلى الأميرة الراهبة ماتيلدا Matilda ابنة أوتو الأول. وهذا المؤلف ينقسم إلى كتب ثلاثة، لكل منها مقدمة أكثر تملقا من سابقتها. وهدف ويدوكند من هذا الكتاب أن يسلى الأميرة ماتيلدا ويرفع من قدرها بتمجيد أسلافها. وهو يبدأ بأصول السكسون ويمضى

متسلسلا حتى موت أوتو سنة ٩٣٧، وإسنا نعرف تاريخ وفاة ويدوكند؛ لأن تواريخ نصوص كتبه متضاربة، إلا أنه يبدو أنه بدأ في الكتابة أثناء حياة أوتو. والصورة التى يرسمها للسكسون تقدم لنا مزيجا من التراث البطولي الجرماني، والتراث الكارولنجي الذي خلفه اينهارد. ويضيف ويدوكند روايته الشخصية إلى التراث الروماني القديم. فقد رسمت شخصية كل من هنري الصياد Henry The Fowler وأوتو الأولى على نسق شخصيات الأبطال الأسطوريين. إذ يبرزان كمحاربين عظيمين، وصيادين كريمين كثيري البذل والعطاء لمن حولهما من المحاربين، وذلك في إطار يفوق الاطار البشري. وتحمل الصورة التي يرسمها ويدوكند لأوتو بصمات كل من سويتونيوس وإينهارد. إذ نجد أوتو وقد تحول، مثل يوليوس قيصر، إلى الانشغال في وضع «قوانين مقدسة وبشرية» بعد أن سحق أعداءه في الداخل وفي الخارج.

أما السمات الأصبيلة في كتاب ويدوكند فتتمثل في إحيائه لنمط من القياصرة متطور عن ذلك الذي كتب عنه سويتونيوس. إذ جاء بالقياصرة _ الجنود الذين عرفتهم الفترة المتأخرة من العصر القديم، والذين جاء بهم الجيش إلى العرش الامبراطوري. ولم يكن أولئك القياميرة مدنيين مثل القياصرة الاثنى عشر الذين كتب عنهم سويتونيوس. ويقرر ويدوكند أنه تم تتويج هنرى الصياد أولا ثم أوتو ثانيا في ميدان المعركة، وصار كل منهما امبراطورا بعد أن أحرز انتصاره العظيم. وهو يتجاهل الحقائق بمنحهما اللقب الامبراطوري في أعقاب مناداة الجيش بذلك. ولابد أن هذه الحقائق كانت معروفة لرجل له مثل هذه الصلة الموثيقة بالبيت الملكي. ذلك أن هنري لم يتوج امبراطورا فضلا عن أنه لم يستخدم اللقب الامبراطورى قط، بينما تعين على أوتو أن ينتظر إلى ما بعد تتويجه في روما سنة ٩٦٢؛ ولم يكن يستخدم اللقب الامبراطوري بشكل منتظم قبل ذلك الحين، وحتى بعد نصره المؤزر الذى أحرزه في ليخفيك سنة ٥٥٥. ويستطرد ويدوكند متجاهلا تتويج أوتو امبراطورا على يد الباب ف روما. وقد حذف هذه الواقعة عن عمد. فمن المؤكد أنه كان يعلم أنها قد حدثت، كما أنه لم يتورع عن تسجيل انتصارات أوتو على الرومان العصاة. ولابد أن الأميرة ماتيلدا كانت تعرف ذلك أيضا. ويغطى ويدوكند ما قام به من حذف بأن يحذرها بأنه لا ينوى اخبارها بالقصة الكاملة لما قام به أبوها من أعمال. ويبدو تجاهله لواقعة التتويج في روما غريبا، لا سيما وأنه وصف تتويج أوتو على يد كبير أساقفة ريمس في أخن، بعد أن خلف هنرى الصياد على العرش سنة ٩٣٦. ولابد أن السبب في ذلك راجع إلى أن ويدوكند كان يكره الارتباط بالرومان. وربما يكون اينهارد قد شجع فيه الاحساس بأنه لا يجب تتويج القائد العسكرى البطل بيد أحد القساوسة، حتى ولو كان ذلك القسيس هو خليفة القديس بطرس نفسه، ولما كان أوتو قد حصل على لقبه الامبراطورى في

ساحة الوغى، فلم يكن ثمة ما يدعو لأن يقدمه إليه أحد رجال الكنيسة. أما التتويج الملكى في أخن فكان أكثر ملاءمة وتوافقا؛ ذلك أنه كان يقوى حلقة الوصل بين أوتو، وشارلمان.

وقد دارت مناقشات طويلة حول ما قام به ويدوكند من حذف، كما طرحت تفسيرات عديدة لكتابه، واختلف العلماء في تقدير أهمية انحياز اينهارد العلماني في التأثير على هذا الكتاب. إلا أن النقطة الحقيقية في الموضوع هي أن ويدوكند استكشف منطقة جديدة في التاريخ القديم، وهي الفترة التي حكم الأباطرة ـ الجنود أثناءها، كما اكتشف اطارا أمكن من خلاله أن يحتفظ للسكسون بصلتهم بالقياصرة دون التضحية بأمجادهم كقادة محاربين.

أما ريتشر (ت. ۹۹۸) فكان راهبا في دير سان ريميجيوس St. Remigius في ريمس، كما تتلمذ على يد جربرت الذي صار البابا سيلفستر الثاني Sylvester فيما بعد. وكان جربرت أشهر أساتذة اللغة اللاتينية ف عصره. وأهدى ريتشر كتابه إلى جـربرت باعتباره تلميذا معجبا به. كما أبدى تعقله بعدم الاعتذار أو شرح هدف الكتاب على نحو ما جرت به العادة أنذاك. وكان جربرت هو الذي طلب كتاب «التواريخ» مما أوضيع أن تدوين التاريخ مجال متحضر، وليس ثمة ما يضطر المرء إلى الاعتذار عن تقليده ليوليوس قيصر. وقد سار ريتشر على نهج قيصر من حيث إنه بدأ كتابه بوصف لجغرافية بلاد الغال، وعادات السكان وتقاليدهم، ثم رسم صورة عامة لتاريخهم الباكر. وتناول تاريخ بلاد الغال بالتفصيل بعد سنة ٨٨٨، وهي السنة التي شهدت انهيار الامبراطورية الكارولنجية النهائي. ولأن درجة الصدق فيما يرويه ريتشر ضئيلة، فقد أضر ذلك بالطريقة التي انتهجها في كتابه الا وهي طريقة إضفاء السمة الكلاسبكية على التأليف التاريخي. ويمكننا أن نراقب منهجه أثناء عمله ف هذا الكتاب، فهو يعتمد في البداية على فلودورد كمصدر، ذلك أن كتابات فلودورد كانت بمتناول يده في ريمس، وهذا ما يقوله ريتشر نفسه. وقد أعاد كتابه مؤلفات فلودورد لكي «يحسف» الأسلوب السهل الواضح الذي كتب به الأخير، وأخذ يعبث بالمضمون كيفما يحلو له. وكان من الممكن اعتباره معاصرا للأحداث ثم شاهد عيان بعد توقف المصدر الذي يعتمد عليه؛ إلا أننا لا نثق به على الاطلاق. إذ كان منحازا من الناحية السياسية، كما قادته الصداقة والمصلحة إلى تأييد, هوف كابيه Hugh Capet ضد الكارولنجيين الفرنسيين. والأسوأ من هذا، أن تعليمه أضله عن الطريق الصحيح. كما أنه يستعرض معلوماته الجيدة بأن يخترع أمراضا يقتل بها شخصياته، أو هو متهم بذلك على الأقل، إذ أنه ليس باستطاعتنا التثبت من حقيقة هذا الأمر. إلا أننا يمكن أن نتأكد من استغلاله لسالست؛ ولكن نتيجة هذا الاستغلال جاءت فأضحة مشينة. إذ أن غرامه بالمؤرخ الرومانى قاده إلى أن يغير توقيت الحصار حول إحدى المدن من فصل إلى فصل، لأنه أراد أن يقتبس وصف مشاهد الحصار من كتاب «الحرب اليوجورتية» لسالست. كما أنه يجعل هوف كابيه «يشعرع القوانين ويصدر المراسيم» عند انتخابه ملكا سنة ٩٨٧. غلى حين أن الكابيين الأوائل لم يكونوا من المشرعين. وكل ما فعلوه في هذا الاتجاه هو تقنين انتقال ملكية الأرض. ولكن بما أن القياصرة الرومان كانوا يصدرون القوانين، وكذلك كان آل أوتو؛ فقد تعين على هوف كابيه أن يرتدى العباءة الامبراطورية والوشاح وأن ينافسهم في ميدان التشريع. وقد كشفت الهجمات النقدية التي شنها العلماء المحدثون على كتاب «التواريخ» الذي ألفه ريتشر عن أنه نموذج لأحط أنماط الحذلقة. كان ريتشر قصاصا موهوبا مثل ويدوكند ولويد براند، لا سيما حين كان يصف مغامراته الشخصية، فهو ممثل هزلى جيد.

وثمة امرأة مؤرخة نضيفها إلى الوهم المسمى بتاريخ الصالونات، وهى هروتسويتا Hrotswitha التى كانت راهبة في دير جاندرشيم Gandersheim بسكسونيا. ويعرفها دارسو الدراما في العصور الوسطى من خلال اعدادها لكوميديات Terence في روما سنة ١٩٠٩ مسيحى. كما كتبت قصيدة تاريخية عن أوتو الأول عقب تتويجه في روما سنة ١٩٠٩ ولما كان الكتاب المتعلمون نادرين في ذلك الحين، فإن وجود كاتبة متعلمة كان يعد مثالا فريدا أنذاك. بيد أنها كانت داخل زمرة من الرجال. وتتضوع الصفحات بأريج ما، إذ أن هروتسويتا قد كتبت في أسلوب خفيف متأنق. ورغم أن رواياتها لم يبق منها سوى شذرات، فإن ما تبقى منها يوضح لنا أنها كانت تشعر بارتباط عاطفى مع روما المسيحية. وكانت قصة الحب التى عاناها أوتو هى أشد جوانب حياته جاذبية بالنسبة لها: فقد أنقذ أوتو الملكة أدلهيد Adelheid من ذلك القاسى الذى كان يضطهدها، ثم تزوجها وجعلها تشاطره حكم الامبراطورية، والواقع أن القصيدة التى كتبتها هورتسويتا «رواية خيالية تنبض بالحياة».

ولكى نتذوق نمطا مخالفا لأولئك المؤرخين الأدباء ينبغى علينا أن نتصول صوب المدونة التاريخية الديرية. ويوضح بندكت Benedict ـ الذى كان راهبا بدير سان أندرو St. Andrew في مونت سوراكتي Monte Soracte (إلى الشمال الشرقي من روما) ـ والذى تتوقف مدونته عند أحداث سنة ٩٧٢ ـ مدى ما أصاب اللغة اللاتينية في الأوساط المتواضعة التعليم. وقد أثار هذا الأسلوب اشمئزاز أحد العلماء الألمان، فيوصفه بقوله «إنه أحط درك يمكن أن تهوى إليه اللغة التي استخدمها شبيشرون». إذ أن بندكت هذا لم يكن يلتزم بئية قواعد نحوية، كما أنه استخدم كلمات دارجة باللهجة العامية. وربما يكون الناسخ الذي نقل كتابه قد ارتكب بعض الاخطاء، بيد أن الأصل غير صحيح بكل تأكيد. وتتوافق خشونة الأسلوب تماما مع

المضمون. وقد رأينا أوتو بعيون لويدبراند، وهورتسويتا وويدوكند التى تشى باعجابهم به. أما بندكت فيحكى لنا عما يبدو وكأنه غزو قام به هذا الملك السكسوتى ورجاله الذين مارسوا أعمال السلب والنهب، وتفوح من ثنايا رثائه «للمدينة الباسلة»، التى استولى عليها الأجانب، رائحة هيامه الشديد بهذه المدينة. والحقيقة أن كتاباته تثير الأسى والحزن في النفوس بشكل يجعلها بعيدة عن مجال الأدب.

وفى القرن الحادى عشر ازداد نشاط التدوين التاريخى واتسع. إذ تـزايد عـدد الرهبان الذين كتبوا المزيد من المدونات التاريخية. كما توسع كتاب التراجم البابوية في نشاطهم؛ فلم يعد اهتمامهم مقصورا على الشئون المحلية. فقد كانت كل الأساليب التي ورثتها العصور الوسطى عن العالم القديم قد ترسخت؛ كما تم ابتكار أنماط جديدة تولدت عن الأنماط القديمة. وبينما كان الكتاب الـذين تعرفنا عليهم لتونا «أصلاء»، نجد أمامنا «أنماطا» تكتفى بالتقليد. أما خلفاؤهم فـلا يظهرون هـذا التطرف سواء في الرقة أو في الخشونة. وعلى أية حال فإن هؤلاء ليسوا كتابا من الطراز الذي يصيب القارىء بالكآبة، لأنهم ينقلون لنا أنباء الحركات الجديدة التي ظهرت في الفترة التاريخية التي عايشوها. وسوف نرجيء الحديث عن نمو المدن والحروب الصليبية إلى الفصول التالية في هذا الكتاب. وسأختار هنا عينة للتواريخ الجدلية التي الفت عن النزاع الذي ثار حول «التقليد العلماني».

وكما رأينا، فإن هذا النزاع قد أجبر كاتب ترجمة هنرى الرابع على التفكير في الأسباب. كما أن برونو Bruno قد ألف كتابه «عن الحرب السكسونية» الدعاية للجانب المضاد. ومن الأمور المتناقضة أن أقل المساهمين في التدوين التاريخي الجدلى شأنا هو أكثرهم مدعاة للتأمل والتفكير. فقد كان برونو أحد أفراد الاكليروس في كاتدرائية مجدبرج Magdeburg، كما كان على صلة بكبير الأساقفة. وعندما مات الأخير انتقل إلى خدمة كبير أساقفة مرسبرج Merseberg الذي أهداه كتابه عن تاريخ الحرب السكسونية سنة ٢٠٨٢. وكان شعار برونو هو «سكسونيا للسكسون». لقدر الحرب السكسون ضد هنرى الرابع السوابي «الذي حاول أن يستعبدهم»، كما اعتقدوا. ومن ثم فإنهم تحالفوا مع جريجوري السابع لأسباب سياسية، لا لأنهم كانوا من دعاة الاصلاح الديني. وقد صدمهم عفو جريجوري السابع عن هنـري الرابع في كانوسا، ورأوا في ذلك العفو «لعبا على الحبلين». فقد خذلهم البابا. كما فشلت حركات التمرد التي قام بها السكسون في الحصول على تأييد جريجوري الكامل للملك الذي انتخبوه بدلا من هنري.

وهكذا وجد برونو نفسه يكره البابا وسفراءه بقدر ما يكره هنرى ومؤيديه، وكان لابد للسكسون، الذين قاتلوا في سبيل حريتهم، أني يكسبوا الحرب، وقد دفع الفشل

الذى لقيه السكسون ببرونو إلى محاولة تقصى الأسباب وتلمس الدليل والبرهان. وكان عليه بادىء ذى بدء أن يبرر عصىيانهم وتمردهم، الذى كان أمرا خطيرا في الرايخ الألماني. كان هنرى طاغية، لماذا؟ ولكي يجيب برونو عن هذا السؤال أشار، مثل كاتب سيرة هنرى إلى حداثة السن كسبب، رغم أنه استخدم هذا السبب على نحو مخالف. فقد أساء المنافقون تنشئة الملك الصغير، الذي لم يصلح من أساليبه ووسائله أبدا. ولكن، لماذا كان السكسون يعانون النكسات والخيبة؟ إن برونو يلومهم في فطنة الأنهم أخلوا بوعودهم لحلفائهم السوابيين حين عقدوا صلحا منفردا مع هنرى. وقد أدت هذه الغلطة من جانب السكسون إلى انقسام الجبهة العامة إلى الأبد. وبعد كانوسا، يقع اللوم على جريجورى السابع الذي شجع العصاة، ثم تخلي عنهم حتى صارت الأمور على هواه. وفي سبيل تدعيم مزاعمه جمع برونو الخطابات المتبادلة بين البابا من جهة وأمراء السكسون وأساقفتهم من جهة ثانية، واستخدم هذه الخطابات لتبرير مزاعمه. وقد وجد جريجوري ما يبرر عفوه عن هنري، إلا أن السكسون أمطروه وابلا من العتاب والاستجداء لكي يمنحهم مساندته الأدبية، لأنه «تخلي عن مساندتهم». واستطاع برونو الحصول على نسخ الخطابات بفضل العلاقة التي كانت تربطه بكل من مجدبرج، ومرسبرج. وثمة سوابق لتدوين الوثائق في سياق المؤلفات التاريخية والمدونات التاريخية الكنسية، بيد أن كتاب «عن الحرب السكسونية » الذي كتبه برونو عبارة عن رسالة على نمط « الحرب اليوجرثية » التي كتبها سالست: ذلك أن برونو كان قد درس سالست جيدا. ولم يكن نسخ الرسائل وتوثيقها في سياق المؤلفات التاريخية الأدبية من الأمور الشائعة أنذاك. وقد دفع اليأس ببرونو إلى الخلط بين مختلف أساليب التدوين التاريخي. فجاء كتابه «عن الحرب السكسونية» خير مثال على ذلك. وهكذا كان النزاع حول مسألة التقليد العلماني حافزا على مراجعة النفس والتجديد.

وكان لانجلترا تراثها في ميدان السجلات التاريخية، وتبدو المدونة الانجلو ـ سكسونية كمثال فريد من نوعه في غرب أوربا، من حيث كونها سجلا متصلا للاحداث التي كتبت باللغة المحلية الدارجة، وربما يكون جمع هذه المدونة وتداولها قد بدأ بعد سنة ٩٩٨. إذ كان الكتاب في مختلف مراكز النسخ ينسخون الروايات السابقة ثم يضيفون إليها ما تجدد من أحداث، وثمة مدونة أخرى، هي «مدونة بيتر بوروف Peterborough Chronicle» استمر تدوينها بشكل متواصل إلى ما بعد الغزو النورماني وحتى سنة ١١٥٠، وقد ساهم المتعلمون من الانجلو ـ نورمان بطاقاتهم المخلاقة في مجال التدوين التاريخي، وهي المساهمة التي تميزوا بها في إحياء التعليم في القرن الثاني عشر، ويتمثل سبب تناولي الموجز جدا لهم في هذه الدراسة في أن الطالب التحدث بالانجليزية يمكنه العثور على ترجمات جيدة ومقدمات طيبة لمؤلفاتهم. وإذا

أساننى سوف اكتفى بمذكر الأسماء الشهيرة فقط، من امشال اوردريك فيتساليس Orderic Vitalis

وقد عاصر كل منهما الآخر، كما مات الاثنان في أوائل أربعينيات القرن الثاني عشر. وعاش اوردریك عمرا اطول من زمیله، إذ انه ولد سنة ۱۰۷۰، ای قبل ولیم بحوالی عشرين عاماً. كذلك عاش كل منهما حياة الرهبان في مطلع حياته، وظل كلاهما من رهبان دير سان أفرول St. Evroul ف نبورمانندي ومالسببوري على التبوالي طوال حياتهما. كما أن كلا منهما جاء نتاجا لزيجة مختلطة، فقد ولد أوردريك لأب فرنسي أو نورماندى وأم إنجليزية. على حين يحكى لنا وليم أنه سليل أسرة أنجلو ــ نورماندية. كان مولد أوردريك بالقرب من شروسبيري Shrewsbury إلا أن أباه وهبه لدير سان أفرول مكرسنا إيام لخدمة الرب، ورباه على هذا الأساس حتى لا يفسده أقرانه «وهذا هو السبب الذي يذكره لنا أوردريك آل انتقاله للعيش في كنف قوم غرباء». ثم عاد أوردريك إلى إنجلترا بعد سنوات في زيارة لجمع مادة كتأبه في التاريخ، ونحن نعرف أنه أقام في ورستستر worcester وكرولاند Crwland، لقد كان كل من أوردريك ووليم باحثا دؤويا، وقاربًا نهما يسعى وراء الكتب أينما كانت، إلا أننا لا نملك دليلا على أن أيا منهما قد قرأ مؤلفات الآخر. ومن حيث كونهما مؤرخين فإنهما يختلفان كما يختلف الجبن عن الطباشير. إذ أن كتاب أوردريك المسمى «التاريخ الكنسي» يستحضر صورة لكليو Clio ربة التاريخ تبدو فيها كما لو كانت امرأة متوحشة ضخمة الجثة تعنف من يناصرها وتهدده بالويل والثبور، بينما استطاع وليم أن يمسك بزمام هذه الربة بحيث صارت طوع بنانه،

ويقدم أوردريك نفسه لقرائه كراهب بسيط. لم يتول منصبا في ديره، كما لو تواته فرصة حضور المجالس الكنسية أو الذهاب إلى البلاط، إلا في أحوال قليلة. وينتهى كتابه وهو يلهج بالشكر والعرفان، ذلك أنه كان مسرورا بكونه أمضى حياته بطولها في رحاب الدير بعيدا عن الدنيا وهرجها. ويتولد في نفوسنا انطباع بأننا أمام رجسل متواضع لا يفرض نفسه علينا إلا بتصديق روايته التي يرويها كشاهد عيان لكني يبين لنا كيف كانت حياته العملية متوافقة مع الرواية التي يحكيها. وهو يحكي لنسا عن رسامته، وعن خروجه النادر من ديره، ثم عن ردود فعله الشخصية تجاه الكوارث، فحين غرائت السفينة البيضاء (١١٢٠) وغرق معها الأمير وليم ابن هنري الأول فحين غرائت السفينة البيضاء (١١٢٠) وغرق معها الأمير وليم أبن هنري الأول عموما هو الذي خلق بداخله مشاعر الجزن والأسي على من ماتوا. وتعكس حواقفه الفردية مدى ما يعر على المؤرخ من جيروف الدهر وتقلباته، كما تعكس إحساسه بالخطة الالهية التاريخ، رغم أنه كان يستطيع أن يترك التعليقات الصائبة اللاذعة بالخطة الالهية التاريخ، رغم أنه كان يستطيع أن يترك التعليقات الصائبة اللاذعة

تسقط من شفتى شخصية تبدو سهلة الانخداع. وهـ و يلوم اللصـ ومفسدى الأملاك الكنسية ـ والديرية منها على وجه الخصوص ـ بطريقة عادية. إلا أنه يتميز بحساسيته المرهفة التي تجعله يكره القسوة أيا كان شكلها، وكانت شفقته على الضحايا، وإدانته للجناة ـ حتى أولئك الذين كان يكن لهم الاعجاب ـ أكبر من أن تكون مجرد لغو فارغ.

ومن المثير للسخرية أن كليو (ربة التاريخ) قد خدعته وجعلته يسجل أعمال النورمان، الذين كانوا أكثر شعوب عصره عنفا واضطرابا. بيد أنه لم يبدأ في تأليف كتابه بهذا القصد. اذ ان مقدم ديره طلب منه ان يكتب تاريخ سان افرول. وانطلق في سبيله فكتب تقريرا تقليديا عن مؤسسى الدير، وعن المحسنين الذين اغدقوا عليه عطاياهم، وعن الامتيازات، ونمو الدير، والرفاهية، ثم تقلبات الدهر والخسائر التي منى بها ديره. الا ان هذا جره الى مجال ارحب وابعد، ووجد اوردريك نفسه مضطرا الى ان يكتب ضمنا عن تاريخ الأسرة النورمانية التي كان الأفرادها علاقة بديره. وحينئذ تحقق من انه يتحتم عليه ان يكتب تاريخ الدوقية، وهو ما لم يكن قادرا على ان يتناوله بمعزل عن تاريخ النورمان ككل. اذ كان النورمان قد غزوا نستريا Neustria واستقروا بها، فقد خرج النورمان من دوقيتهم لغزو جنوب ايطاليا وصقلية حيث القاموا لأنفسهم عدة دويلات، كما قام الدوق وليم بغزو إنجلترا. وقد لعب النورمان دورا رائدا في الحملة الصليبية الأولى، وانتزع بوهيموند الصقلي لنفسه إمارة في انطاكية. وحيثما وجد النورمان كانت الروابط الأسرية والدينية قائمة وطيدة. وهكذا تحول كتاب «التاريخ الكنسي» الى كتاب عن تاريخ العالم المسيحي. ذلك ان المؤلف كتب عن عدة اماكن مسيحية في الوقت نفسه، ووصل بكتابه الى سنة ١١٤١، حين اعجزته الشيخوخة، وهو في سن السابعة والستين عن الامساك بقلمه، وكان قد جمع قبل ذلك تاريخا عالميا يبدأ بتجسد المسيح ويستمر حتى عصره، وقد استخدم هذا التاريخ كمقدمة لكتابه الذي حاول ان يجعل منه كتابا شاملا بقدر ما يستطيع.

وقد فرضت عليه التغييرات التى طرأت على خطته أثناء التاليف أن يكرد وأن يستطرد. ويلتمس أوردريك العدر لنفسه أذا ما جره الاستطراد الطويل خارج الموضوع أحيانا. وقد شجعته طريقة الرهبان في الكتابة على أصطناع ضرورة الاستطراد. أذ كانت المواعظ الديرية تستطرد كثيرا تمشيا مع أسلوب (تكنيك) «القراءة المقدسة» ولابد أن فكرة تحديد المرء لخطته قبل بدء الكتابة، ثم الالتزام بها اثناء الكتابة، كانت تبدو فكرة غير صائبة أمام أي راهب في ذلك العصر. وهذا ما يتضح من كلمات سان جريجوري في كتابه «أخلاقيات العمل»، الذي كان وأحدا من أوسم الكتب انتشارا في العصور الوسطى، إذ يقول:

«.... اذا تقابل نهر، اثناء تدفقه في مجراه، مع وديان فسيحة على ضفتيه، فسرعان ما يحول مجراه اليها، فاذا ما ارتوت الوديان حتى شبعت عاد النهر سريعا الى مجراه، وهذا ما يجب ان يفعله كل من يتصدى للكلمة الربانية....».

لقد كان هدف المؤرخ أن يحض على الفضيلة. وكان من الأوفق لهدفه أن يتوقف بين الحين والحين لكى يحكى عن حياة أحد القديسين، والمعجزات، أو لكى يصف اعتناق أحد الشعوب الوثنية للدين المسيحى.

وعلى الرغم من هذا، كانت لأوردريك خواطره. فقد أراد أن يكتب تاريخا كنسيا، ولكنه خاض في غمار التاريخ العلماني. وحاول أن يميز بين الموضوعين، كما أزعجه كثيرا أنه لم يتمكن من التزام جانب العدالة الحقة في التاريخ العلماني، ويقول في هذا الصدد:

«... إن المؤرخين المهرة يستطيعون كتابة تاريخ لا ينسى عن أولئك الرجال والنساء.... وعلى أية حال فإننا نحن الذين نفتقر الى أية تجربة عن المحاكم الدنيوية، بل قضينا (عمارنا في جولاتنا اليومية في أروقة الأديرة التي نعيش في رحابها، لن يسترعى انتباهنا الا ما يتصل بهدفنا...».

«لقد ترك أبناء وليم الفاتح مادة وفيرة يمكن أن يؤلف منها المتعلمون والمفوهون أسفارا قيمة » ورغم إنكار أوردريك لاهتمامه بالشئون الدنيوية ، فإن كتابه يقدم لنا ما هو أكثر من مجرد الملاحظات الموجزة عن تاريخ الانجلو — نورمان السياسى. بيد أن هذه الملاحظات لا ترضيه ، فقد كان يعتقد أن القصة ف حاجة لأن تروى من جديد في مكانها الصحيح ، وليس باعتبارها ملحقا للتاريخ الكنسى. لقد سنحت لأوردريك فرص عديدة الا أنه فشل في اقتناص اي منها.

وكان ينبغى على النورمان أن يشكروه على المساحة التى أفردها لهم في كتابه، رغم أنها كانت مساحة محدودة. أذ كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها النورمان كشعب مسيحي في مجال تدوين التاريخ. وقد تناول المؤرخون السابقون على أوردريك جوانب جزئية منفصلة من التاريخ النورماني: مثال ذلك دودو راهب دير سان كونتين Dudo of St. Quentin الذي روى قصة اسطورية الملامح عن غزو نورماندي. واستمر المؤرخون من غير النورمان، بصفة عامة، في رسم صورة النورمان بأسلوب مؤرخي القرنين التاسع والعاشر، فقد صوروهم على أنهم شعب من الغزاة البرابرة غلاظ القلوب الذين داهموا المالك المسيحية. ولم يكن هناك ما يحول دون أوردريك والرؤية الواضحة لسمات النورمان وخصائصهم الوطنية. فهل يجعل الفاتح يصف الهل دوقيته بانهم «شعب مشاغب، على استعداد دائم الأثارة الإضطرابات» كما

انهم «قلقين على الدوام تحدوهم الرغبة الجامحة في زيارة الأراضى الأجنبية». وإذا ما انتصروا في الخارج، فإنهم يذبحون بعضهم بعضا بمجرد أن يخلو العرش من وجود حاكم قوى. بيد أنهم يمتازون ويتفوقون كمقاتلين وبناة للكنائس. وقد فضل أوردريك النورمان على من جاورهم من الشعوب بسبب ذلك الاحساس الذي لازمه طيلة حياته بأنه إنجليزي يعيش مغتربا عن وطنه. ولما كان يكتب انطلاقا من تلك القاعدة القياسية التي التزم بها الكنسيون فقد استسلم للأحكام المسبقة، كما غلبه التحيز في روايته للتاريخ العلماني. وبفضل تجربتة الشخصية كان مدركا للفروق القائمة بين النورمان واعدائهم الرابضين على الحدود. والواقع انه كان يكتب كما لو كان حاميا للغورمان.

وتمثلت النتيجة في «تاريخ بربرى» جديد صاغه في إطار كتابه «التاريخ الكنسى». لقد كانت لرجال الشمال في وثنيتهم مآثرهم البطولية في ميادين القتال، ثم أثبتوا بطولتهم وشهامتهم بعد اعتناقهم للمسيحية؛ ورغم هذا فأن اوردريك لم يغفل ذكر أعمالهم الشريرة، ويتمثل عنصر الأصالة في كتابه في انه اقتحم مجالا جديدا.

ومن ناحية اخرى، فان أوردريك هو «مؤرخ الباحث المعاصر» ذلك ان روايته الممتدة وغير المترابطة تضع أمامنا ثروة من المعلومات في موضوعات شتى. ورغم انه بذل جهودا مضنية في سبيل الوصول الى الحقائق، فانه اخطأ في كثير من التفاصيل لأن مصادره قد ضللته. لقد قرأ المدونات، كما طرح اسئلته على من كان يعتقد أنهم عارفون ببواطن الأمور. كما أن دراسته الكلاسيكية، من ناحية اخرى، لم تقف حجر عثرة أمامه وهو يدون اخبار معاصريه وسلوكياتهم. ولم تكن لديه الأنماط الجاهزة التي يستطيع أن يصوغ في قوالبها المتعارف عليها شخصيات السادة النورمان والفرنسيين من ذوى الثروة المتوسطة والمعتدلين في تدينهم. ويقدمهم اوردريك كأفراد حقيقيين كما شاهدهم بنفسه. وهكذا نكون قد مضينا بعيدا عن «تاريخ الصالونات».

وبغض النظر عن اهتمام «التاريخ الكنسى» بالأحداث التاريخية المحلية، فان هذا الكتاب يعكس تاريخ الفكر، اذ انبه يعكس لنا صبورة عن افكار البرهبان السبود (البندكتيين) عن النظم الاصلاحية الجديدة، وكان اوردريك يكره «المتجددات السستر شينية Cisterciat Novelties» (۱) التي كونها الرهبان، الا أنه حاول ان يكون عادلا.

⁽۱) شهد القرن الثاني عشر حركة احياء ديرية عظيمة، ربما بسبب السلام النسبى الذي ساد ربوع اوربا منذ منتصف القرن الحادي عشر. اذ كانت غارات النورمان – التي شكلت مصدر خطر عظيم على الحياة الديرية – قد انتهت، كما ان القوى الاقطاعية التي كانت منغمسة في الصراع ضدهم تفرغت للمساهمة في التقدم الحضاري المطرد آنذاك، فضلا عن نهاية النزاع حول =

كما يعد الكتاب أيضا من مصادر تاريخ النظرية السياسية. فهو يبين لنا مسا كان الراهب النورمانى يتوقعه من الحكام. اذ كان اهم ما يميز الحكومة القوية في نظره هو قدرتها على إخماد الحروب الداخلية وصد الغزوات الخارجية وكان اوردريك يفترض دائما إن المتمردين على خطأ. لأنهم كانوا يضعون مصالحهم الخاصة قبل الصالح العام. اما الحاكم الذى يثقل كاهل شعبه بالضرائب، والذى يعبث بالامتيازات الكنسية، فهو حاكم شرير، ولكن الأسوأ منه هو ذلك الحاكم الذى ليس له وجود فعال والذى يهمل تنظيم باروناته. ورغم أن وجهة النظر التى يطرحها أوردريك تعبر عن رؤية ديرية عامة، إلا أنه يقحمها اقحاما ويدعمها بما يورده من أمثلة. وقد توفرت لديه أمثلة عديدة، ذلك أن حركات التمرد غالبا ما كانت تنشب في نورماندى.

إن كتاب «التاريخ الكنسي» جهد طويل وشاق، ولكنه يمتاز بأنّه يجتذاب القراء لأنه يوضع لهم كيف كان العالم يبدو من أروقة دير سان الهرول. وعلى النقيض من ذلك،

انظر:

Southern, Western society and the Church, pp. 250-65; Margarte Deansly, A hist., of the Med. Church, pp. 117-22.

مسالة التقليد العلماني. وازدهرت الدارس الكاتدرائية. ومن خلال النظام الكلوني بزغت فكرة الاصلاح الكنسي، رغم أن هذا النظام نفسه بأت بحاجة إلى الاصلاح.

وفى تلك الأثناء التي ماجت فيها اوربا الغربية بارهاصات نهضة القرن الثاني عشر. قام الراهب روبير مقدم دير موليم Moleme ببرجانديا Burgandy، ومعه طائفة من الرهبان تعلوهم الرغبة في المعودة بالقاعدة البندكتية الى بساطتها الأولى وانضباطها، بتأسيس دير جديد سنة ٩٨.ك ف سيتو Citeaux (افر سستر شيوم Cistercium). ومن هذا الدير اشتقت الطائفة السسترشية اسمها الذي عرفت به وهو Cistercian Order. وكان افراد هذه الطائفة الذين حازوا شهرة فائقة منذ القرن الثاني عشر، يتهمون البندكتيين المعاصرين بأنهم مرتدون. وقد نشأت هذه الطائفة بقصد الهروب من المجتمع على عكس طائفة الرهبان الأوغسطنيين Augustinians المعاصرة لهم والتي كان افرادها يسعون الى خدمة المجتمع الذي يعيشون في كنفه بشتى السبل، وقد اعتبر السسترشيون انهم فقط الملتزمون بما جاء في القاعدة البندكتية التي وضعها القديس بندكت أساسا للنظام الديري (انظر: ,Cantor, Med. Hist pp. 161-3 وقول (Robert Brentano, the Eatly Middle Ages, pp. 81-94) وقول السسترشيين انهم يحيون طبقا لاساليب الحياة التي عبرفها المجتمع المسيحي الأول، وإن كل ما يرغبون فيه هو البعد عن المجتمع سعيا وراء البساطة. ويعد تنظيم السلطة وتسلسلها داخل الجماعة السسترشية من أفضل اساليب التخطيط التي عرفتها العصسور الوسطى، أذ أن هؤلاء الرهبان قد نظموا انفسهم داخل نظام جدير بالاعجاب رغم انهم كانوا يحيون ف عالم تشابكت فيه السلطات المختلفة مع بعضها البعض وتعقدت وقد انتشرت اديرتهم بمعدل سريع للغاية رغم ان ظروف الانتشار لم تكن متوفرة. وقد اتسم نظامهم الداخلي بالشدة والصدرامة، كما انهم كانوا يختارين اديرتهم بعيدا عن اماكن التجمع السكاني مثل المدن والقلاع.

كان وليم المالسبوري هو «مؤرخ المؤرخ الصديث» لأننا نقراه كمصدر للحقائق والأفكار مثل اوردريك، كما ندرس منهجه ايضا. ويتشابه وليم مع فلودورد الذي ترسم خطاه دون وعى. بينما ترسم خطى بيديه بوعى كامل فى دراسته للماضى كموضوع قائم بذاته؛ وهو ما كان يعنى ان يقوم بعمل اكثر بكثير من البداية والنهاية الميكانيكيتين اللتين كان كتاب التواريخ والمدونات السابقين يتخذونهما. اذ تطلب الأمر بحثا مكثفا في سجلات العصور الماضية. وقد بدأ وليم عمله وهو متسلح بالميزة نفسها التي توافرت الوردريك في نورماندي، اذ كانت مكتبة دير مالمسبوري تضم مجموعة جيدة من الكتب لأن احد مقدمي الدير كان من علماء جيميجي Jumieges كان قد أعاد تأسيس هذه المكتبة. وتولى وليم وظيفة امين المكتبة، مما اتاح له فرصة الاطلاع على الكتب، وفرصة الحصول على نصوص جديدة للمكتبة. وقد اضاف الى مصادر تاريخ بريطانيا التي كانت في المكتبة من خلال المعلومات التي جمعها عن طريق الرواية الشفوية التي سمعها سواء في مالمسبوري او اثناء قيامه برحلاته عبر انحاء البلاد. كما قابل الرجال الذين كانوا شهود عيان، او كانوا يحتفظون بتسجيل للأحداث «التي يتهددها خطر النسيان». وقد خاض ف خضم من المعلومات التي لم يكن قادرا على التحقق من صحتها، وحاول أن يميز الأسطورة عن التاريخ. وكان طبيعيا أن يأخذ بعض الروايات الخيالية والقميص الخرافية على انها حقائق، بيد أن هذا لا يصدق على جميع ما كتبه. وكانت القصيص الطويلة التي نسجت حول الملك أرثر Arthur ملك بريطانيا منتشرة ومتداولة حين بدا وليم يكتب مؤلفاته الا أن هذه القصص لم تخدعه لأنه كان يستبعد حقا ان يكون لسكان ويلز القرن الثاني عشر اسلاف من ذلك النمط الذي تصوره تلك القصص. والحقيقة ان وليم بذل من الجهد الواعي في سبيل الحكم على مادته ونقدها، اكثر مما بذله اوردريك،

ويتميز وليم - كمؤرخ - بحسه النقدى الواضح، وباهتمامه الكبير بالدوافع الكامنة وراء الحادث التاريخى. وهو يستمتع بالمقارنة بين الدوافع المظاهرية وبين الدوافع المقيقية وراء سلوك احد الاشخاص. ولكى نستنبط فلابد لنا ان نخمن: وكان وليم يخمن على نحو ما يفعل المؤرخون حتى اليوم. وكان يعمل على اساس مبدأ يقول إن الناس يتصرفون بوحى من الدوافع التى تثير اهتماماتهم الذاتية. اى انه يجب علينا ان ننظر الى اهتماماتهم وليس الى وظائفهم؛ فالبابا اوربان الثاني، اعلن عن الحملة الصليبية الأولى فى كليرمونت، لمساعدة مسيحيى الشرق على الخسلامى. اما دوافع البابا الحقيقية، على حد تعبير وليم، «فلم تكن معروفة تماما». كان اوربان يأمل فى ان تتيح له المفوضى الناجمة عن الحملة الصليبية فرصة استعادة امسلاك يأمل فى ان تتيح له المفوضى الناجمة عن الحملة الصليبية فرصة استعادة امسلاك البابوية فى ايطاليا، والتي كان انصار الامبراطورية قد استولوا عليها فى غمار النزاع

حول التقليد العلمانى. وبنى وليم تفسيره على اساس من الكلام الذى كان الناس يثرثرون به، أو على اساس رأيه الخاص؛ ذلك ان مؤتمر كليرمونت قد عقد فى وقت كان وليم ما يزال طفلا، وربما لم يكن قد ولد بعد. بيد ان تخمينه لدوافع اوربان الحقيقية يكشف عن الطريقة التى كان ينظر بها الى الاسباب فى العملية التاريخية.

كان وليم يعتقد أن التصرف دون وجود الدوافع الذاتية أمر نادر ومثير للدهشة. فهو يكتب عن الولاء المنزه عن المصلحة باعتباره استثناء. فقد وقف ايرل روبرت امير جلوسستر Gloucester باستمرار الى جوار اخته غير الشقيقة، الامبراطورة ماتيلدا، في حروبها ضد الملك ستيفن، على عكس ما فعل اصدقاؤها المقربون. وكان دافعه الى هذا الموقف هو ولاؤه الخالص لها. واذ تسربت عدوى الشك إلى قرائه، يرتاب وليم فيما اذا كانوا سيصدقون أن الأمير روبرت كان يتصرف دون انانية. ومما زاد في ريبته ان قراءه سيعرفون أن الأمير وليم هو حاميه، ومن ثم اخذ يدفع عن نفسه تهمة النفاق بأن يبرهن على أن ما ذكره هو الصدق. وثمة سؤال يظل يفرض نفسه بالحاح على المؤرخين في كل عصر أذا ما أخذوا يناقشون سبب تصرف الناس على نحو بعينه. وهو سؤال يقول: لصالح من؟ Cui bono. وقد طرح وليم على نفسه هذا السؤال، وأجاب عنه يقول: لصالح من؟ Cui bono. وقد طرح وليم على نفسه هذا السؤال، وأجاب عنه باعتباره دارسا للطبيعة البشرية، ينظر الى الجانب العابس أولا.

أما احساسه بالشكل فقد كان أرقى من احساس أوردريك. إذ أن وليم اظهر مقدرة طبية على الفصل بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي. ويعرض كتابه «اعمال الأساقفة » لتاريخ انجلترا الكنسى، على حين يعتبر كتابه «اعمال الملوك» المرادف العلماني له. وحين يصل الى عصره يخاطر بادانة اشخاص ما زالوا على قيد الحياة حين يروى الحقيقة. كان أوردريك يحتمى في دهاليـز ديره وأروقتـه، ومن ثم كانت اسبابه للخوف من ملاحظة عظام الرجال لما كتبه عن سلوكهم اقل. اما وليم فكان اكثر ارتباطا بالأمراء، ولكنه حل مشكلته بان كتب التراجم الملكية على نهج ما كتبه سويتونيوس، مما مكنه من اعطاء تقرير هيكلي عن الحكام دون أن يحكم عليهم. وقد تناول نموذجه في حذق، تاركا لشخصياته حرية الحركة داخل اطار هذا النموذج. وليس باستطاعتنا أن نختبر ما قاله وليم عن أن هنرى الأول قد انجب عددا كبيرا من الأبناء غير الشرعيين ليكونوا دعامة لعرشه وليس طلبا للمتعة؛ الا أن هذا الكلام يضيفي لمسة ملطفة على صورة ذلك الملك الحاذق، الماهر، البارد، لقد رسم وليم هذه الصبورة بحرص المحبين. وكانت آخر مؤلفاته رسالة أسماها «التاريخ الجديد». وهي تبدأ باستعراض السنوات الأخيرة من حكم هنرى الأول، ثم تقودنا إلى الحرب الأهلية. التي دارت رحاها في عهد ستيفن، ولم يكمل وليم هذه الرسالة أذ وافته المنية سنة ١١٤٣. وهذه الرسالة افضيل اعماله. فقد استطاع أن يوظف معلوماته كشاهد عيان للحوادث التى جرت فى غرب إنجلترا، كما استطاع ان يثبت فيها ادلته وبسراهينه المعاصرة. وهو حريص على أن يخبرنا متى كان حاضرا فيما يعرض له من أحداث، ومتى اعتمد على السماع. وكان روبرت امير جلوسستر هو اقوى معارضى ستيفن كما كان بطل الكتاب والشخصية الغالبة على احداثه؛ وهكذا نجد انفسنا فى خضم التيارات السياسية.

كان وليم يأخذ مبدأ ان المؤرخ يجب ان يكون محايدا مأخذ الجد، فهو يكتب متفاخرا بانه يستطيع ان يكون رأيا غير منحاز عن الغزو النورمانى لانجلترا، اعتمادا على اختلاف جنسية كل من ابويه عن جنسية الآخر. ومن سوء الطالع انه يأخذ بالرواية النورمانية الرسمية بما فيها من انجاز ضد هارولد Harold وبافتراءاتها ضد الكنيسة الانجليزية. وهو ما يصدق ايضا على اوردريك، رغم وعيه بانه انجليزى. ذلك أن هذه كانت هى الرواية الوحيدة المتاحة امام كل منهما. ويقوم تفاخر وليم شاهدا على مثالية حياده، فقد كان من المستحيل تحقيق مثل هذا الحياد لأن مصادره كانت تنحاز الى احد الجانبين، وكان هو يسير على هديها. ويضع كتابه المسمى «التاريخ الجديد» نظرياته موضوع الاختبار. وقد ابتكر روايته عن الحروب الأهلية دون مصدر يرشده. وخرج من الاختبار بنجاح كبير. اذ ان «التاريخ الجديد» يقدم لنا صورة عادلة ومتوازنة عن الشخصيات وعن أسباب الحروب بقدر ما هو متوقع من شخص معروف عنه أنه من أنصار امير جلوسستر. وهو ما يعد مؤشرا على مهارة وليم في الصنطة التاريخية. فقد غرس في نفوس طلاب التاريخ ودارسيه الرغبة في قراءة تقرير غير منحاز، كما حاول ارضاءهم بشرح موقفه، حتى يمكنهم التسامح معه.

ومما يبرر شعبية وليم عند المؤرخين المحدثين ما تمتع به من مواهب كمؤرخ: فهو يبدو لهم «كواحد منا» أو هو «يكاد يكون من زملائنا». وربما تكون متعة المصافحة عبر القرون هي السبب في بعض المبالغة عن مدى عصريته كباحث يدرس الماضي السحيق. ويفسر الحاضر؛ بيد أن شعورنا بزمالة مؤرخ مالمسبوري شعور حقيقي، ومما يزيد في جاذبيته أنه يتمتع بالقدرة على اجتذاب القراء. وهذا هو ما يميزه عن غيره من المؤرخين الأنجلو – نورمان. وكانت هذه من سماته المميزة؛ بل أنه حتى أوردريك لايمكن أن يجتذب القراء طويلا، وأنما يقرأ على عدة مرات. ويتمثل الفرق هنا في أن وليم يقدم المزيد من البحث ومن الامتاع على حد سواء.

وليس هناك من قرائه من يتعب نفسه فى مشكلات التقسيم الزمنى أثناء قراءة مؤلفاته. وتبين لنا اشاراته، التى ترد فى ثنايا سطوره بين الآن والآخر عن تدهور الاخلاقيات والنهاية الوشيكة للعالم، انه اخذ بالفكرة القائلة بأنه يعيش فى العصر المالم. اذ كان المؤرخون قد استقروا على التنبؤ بمستقبل

غير محدود في هذا العصر الأخير. وينزعم كل من اوردريك فيتاليس، وهنرى الهونتنجدوني (ت ١١٥٥) Henry of Huntingdon في كتابه «تاريخ الانجلين» ان دراسة التاريخ تساعد على التنبؤ بالمستقبل وعلى فهم الحوادث الجديدة ابان حدوثها. اما اوردريك فيضع مزاعمه بشكل واضح اذ يقول:

«يحدث احيانا ان تطرح حوادث كثيرة نفسها على الجاهل على انها أمور لم يسمع عنها من قبل، وغالبا ما تنشأ الظروف الجديدة في العصور الحديثة، ولا يمكن للعقليات غير الخبيرة ان تكشف عنها وتوضحها إلا بالرجوع الى الاحداث السابقة المشابهة».

ان راهب سان افرول، وارخون هونتنجدون يفترضان أن نبوءة المؤرخ سوف تمتد لتشمل أرض الوطن، أذ أن الحوادث الجديدة ليست مأخوذة من سفر الرؤيا. ويهتم كل منهما بالنبوءات التي تنسب إلى عرافة ويلز وهي النبوءات التي كانت شائعة في ذلك الحين. وقد مرت بالفعل بعض الأمور والاحداث التي تحدثت عنها تلك النبوءات التي تدخل في أطار طراز «النبوءة بعد وقوع الحدث». ورغم أن ما مر من أمور واحداث قد كذبت النبوءات الا أن احتمال تحقق النبوءات الأخرى في المستقبل كان ما يزال قائما ولكن نبوءات ميرلين Merlin كانت سياسية تتناول المعارك الانسانية والغزوات. والاثارة والاهتمام اللذان اثارتهما تلك النبوءات واذكت نيرانهما يدفعان بنا الى التفكير في تضاؤل الاهتمام بقدوم المسيح الدجال. ذلك إن إهتمام الناس آنذاك تركز حول المعارك التي نشبت بين الملوك الانجليز وجيرانهم، وليس على اقتراب يوم القيامة.

بيد أن اوروسيوس لم يكن قد تخلى تماما عن مكانته في عقلية العصور الوسطى. فان رؤيته البانورامية للتاريخ كانت ما تزال تفرض نفسها متحدية كل رؤية جديدة. وكان المؤرخون يقرأون كتابه «التاريخ ضد الوثنيين» باعتباره مصدر ثقة في التاريخ الباكر، ينبغي نسخه توطئة لكتاباتهم عن الأحداث الأقرب الى عصرهم. ولكن القارىء المتأمل سيجد فيه ما هو اكثر من ذلك؛ اذ كان اورسيوس يشجعه على أن يكتب تاريخا عالميا جديدا، متطلعا بناظريه إلى الأفق البعيد. فهل استطاع أحد آنذاك أن يجعل من تقسيم اورسيوس للزمن تقسيما عصريا؟ لقد أن الأوان لأن يحاول البعض ذلك.

الفصل السابع التاريخ العالمي

وضع بنيدتو كروتشه «التاريخ الفكرى» في أسمى مراتب التدوين التاريخي. «فليس ثمة فترات في التاريخ، هناك مشكلات فحسب». والمؤرخ المفكر هو الذي يعكف على فحص المشكلات وامعان النظر فيها. ولا يمكن أن يكون هناك تاريخ عالمي بالنسبة لأى مؤرخ جدير باللقب الذي يحمله، لأنه لا يستطيع أن يدير عقله ف أن واحد في كافة وجوه التاريخ وجوانبه. والكاتب التافه فقط هو الذي يكتب تاريخا من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهو ما سيجد المرء نفسه مدفوعا إليه إذا ما حاول أن يكتب تاريخا عالميا. وفي الوقت الذي تصدق فيه مقولات كروتشه عن المؤرخين المحدثين، فإنها لا تنطبق على أولئك المؤرخين الذين عاشوا في القرن الثاني عشر. ومع تسليمنا بأن التاريخ الفكرى هو أسمى انماط التدوين التاريخي، وبأن المؤرخ الحقيقي هو الذي يحصر اهتمامه في المشكلات التاريخية، فإن هذا المؤرخ نفسه لا يستطيع أن يتجاهل الفترات التاريخية. لقد كانت معالجة التاريخ الفكرى في القرن الثاني عشر تعنى التأمل والتفكير في التقسيم الزمني الموروث عن أوروسيوس، وهو ما يعني أن تطرح المشكلات جانبا. فماذا يكون التاريخ إن لم يكن تاريخا عالميا؟ فقد كان انكار عالمية التاريخ في القرن الثاني عشر انكارا بالتالي لحقيقة المسيحية. ولكن، هل كانت التقسيمات الباكرة للزمن إلى عصور ستة أو ممالك أربع تقدم الاطار الصحيح لكتابة تاريخ الفترة ما بين القرن الخامس، والقرن الثاني عشر؟ حقا أن اعداد المؤرخين قد تزايدت كما زاد عدد كتاب المدونات التاريخية، وكتاب التراجم، ولكن أحدا منهم لم يتطوع لكى يكون أورسيوس آخر. فالواقع أن هذه كانت مهمة ثقيلة الوطأة بما تحمله من صعوبات.

كانت المشكلة في جدورها راجعة إلى التغير الذي طرأ على أحوال الغرب أنذاك. إذ كانت هناك أسباب فلسفية تفسر لماذا كان التغير يعنى التدهور والاضمحلال. فنحن نبتلى بالتدهور منذ اللحظة التي يبدأ فيها وعينا يتكون داخل رحم الأم. وهذه العقيدة جزء من فلسفة سان أوغسطين عن الحياة. أن التوازي بين حياة الانسان وعصور العالم، التي أخذت تمضى في صيرورتها حتى وصلت بالعالم إلى عشية عصره السادس والأخير، جعل من الطبيعي أن يفترض الناس في العصدور الوسطى أن التغيرات التاريخية سوف تمضى نحو الأسوأ. وكان من السهل أن تروى القصص عن التدهور،

بل إن ذلك كان أمرا ممتعا للغاية، وكإن المؤرخون يتلذذون وهم يلقون باللوم فى كل اتجاه، وعلى النقيض من ذلك، كانت التغيرات نحو الأفضل هى التى تستوجب الشرح والتفسير؛ إذ كيف يمكن حدوثها فى فترة التدهور والاضمحلال؟. بيد أن البدع كانت تظهر فى جوانب الحياة. وكان من الممكن وصف بعض هذه التيارات الجديدة بأنها «سيئة»، ولكن ذلك الوصف لم يكن يصدق عليها جميعا، إذ كان بعضها «جيدا» دون جدال. ومن ثم فإنه كان محيرا.

« ... والواضح امام الجميع لكى يروا كيف أن أمورا كثيرة، وأشياء ذات أهمية كبرى نحتاج إليها في حياتنا هذه، وهى مفيدة لكل من الصالح والطالح على حد سواء، كما أنها جميلة في حد ذاتها، تم انجازها ولا يزال يتم على أيدى رجال طيبين ورجال أشرار أيضا...

ومنذ ذلك الحين تولدت فروع جديدة في التعليم، وأنماط عديدة من الحرف، فضلا عن العديد من وسائل البحث العلمي الدقيق، وفنون البلاغة، ومختلف المناصب والوظائف، إلى جانب البحوث التي تفوق الحصر في ميادين الأدب والفن والعمارة...».

يا لها من دلائل تلك التى توحى بها هذه السطور التى كتبها أحد مقدمى الأديرة السسترشية ـ وهو المدعو وليم راهب سان تييرى William of St. Thierry ، أحد المعجبين بسان برنار ـ فى كتابه «الـرسالـة الذهبيـة» الذى وجهـه إلى الرهبان الكارتوسيير، (١) فى مونت ديو Monte Dicu (١١٤٨ – ١١٤٨). وقد اعتزل وليم ورفاقه العالم؛ لكنه أيقن أن العيش فى رحاب العالم فى زمن مثل زمنه أمر يبعث على النشاط ويحفز الهمم. ذلك أنه لم يكن هناك من علماء أوائل القرن الثادى عشر من يستطيع أن يغمض عيني، عن التغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى تجرى من حوله.

⁽۱) تأسست هذه الطائفة التي عرفت باسم النظام الكارتوسي Carthusian Order سنة ١٠٨٤. إذ ان سان برونو الألماني الذي كان استاذا بالمدارس الكاتدرائية في ريمس زهد حياة المدن فترك ريمس ودهب ليعيش وحيدا في بقعة موحشة بالقرب من جرينوبل Cirenoble، حيث تجمع حوله عدد من النساك. وفي سنة ١٠٨٤ جمعهم في دير بالقرب من قرية كارتوسية Cartusia ـ التي اشتقت الجماعة اسمها منها ـ واطلق على الدير اسم جراند شارتريز Cirande Chartreuse ، لكنه اشترط عليهم ان يعيشوا داخل الدير في صوامغ منفصلة، ولا يجتمعون إلا في صلاة المساء أو على الطعام في أعياد معينة. وكان كل راهب يعد طعامه بنفسه، وله جزء خاص في حديقة الدير يتولى العناية به. كما كان عليه أن يقرأ صلواته في صومعته، وداخل هذا النظام امتازت الحياة بالصرامة الشديدة، والوحدة، والصمت إذ كان مثلهم «Dheata solitudo: O sola heatitudo المناه المعادة والسعادة هي

وكان طبيعيا أن تؤدى التغيرات الاقتصادية إلى أن يسىء شرار الناس استغلالها. إذ كان من المفروغ منه ألا يوافق أي من رجال الكنيسة على نمو المدن وعلى طلب سكان المدن للامتيازات، لأن ذلك سيؤدى _ في تصورهم _ إلى أن ينقلب النظام الذي وضعه الله رأسا على عقب. وقد أدت الثروة المتنامية إلى الرفاهية وإلى انتشار طراز الملابس الخليعة وانتشار عادة تصفيف الشعر، كما ازدهر الربا. ومن الواضيح أن «التنوع في الوظائف والمناصب» الذي ذكره وليم كان راجعا إلى نمو الحكومة الدينية والعلمانية على حد سواء. وقد أدت الوسائل الأكثر عقلانية في استخراج أموال الرعايا إلى مزيد من القهر والفساد، ذلك أن الموظفين بدأوا في تنمية ثرواتهم من هذا السبيل. وصار المحامون والبيروقراطيون - بتصرفاتهم المشيئة - هدفا للمصلحين الأخلاقيين. ولكن، من ذا الذي كان يستطيع أن ينكر أن بعض الحركات الجديدة كانت «طيبة »؟ لقد أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى مشاعر البهجة والسرور في نفوس رجال الكنيسة. وكانت الجماعات الدينية الجديدة مثل: الرهبان النظاميون الذين أسسهم سان فيكتور، والسسترشيون أو الرهبان البيض، والرهبان المعروفون باسم Premonstratenians ، وجماعات النساك والزاهدين بمثابة نماذج لمحاولات البحث عن الكمال، بما فيها من تحير وارتباك في الاختيار بين الطرق المؤدية إلى الكمال المنشود. كان الاصلاح الديني ف العصور الوسطى الباكرة محصورا في مجال الرهبان والنساك فحسب، أما الآن فقد صار هناك من ينافس الرهبان السود^(٢). إذ كان أعضاء كل

Cantor, Med. hist., pp. 165-71, The Med. World, pp. 99-110

Robert Brentano, The Early Middle Ages, pp. 81-94

وكذلك سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص ١٦٤ ـ ص ١٦٩ ـ

العزلة »، ومات برونو سنة ١١٠١ واخذ الكارتوسيون ينتشرون بالتدريج في انحاء أوربا، ولكن انتشارهم لم يكن على نطاق واسع مثل الانتشار الذي لقيه السسترشيون، وذلك بسبب قسوة النظام الكارتوسي وصرامته. وقد أخرجت الطائفة الكارتوسية عددا من العلماء الذين حازت كتاباتهم الاعجاب في أوربا العصور الوسطى، أشهرهم هوف اlugh (ت ١٢٠٠).

Margaret Deanesly, A hist., of the Church, pp. 122-24. : انظر (المترجم)

⁽٢) تقصد المؤلفة بالرهبان السود الرهبان البندكتيين، وقد عرفوا باسم الرهبان السود بسبب لون ردائهم. وكان سان بندكت St. Benedict قد وضع «القاعدة البندكتية» للدير الذي أسسه في مونت كاسينو Mont Cassino بالقرب من نابولى. وبنهاية القرن التاسع صارت هذه «القاعدة» قانونا لكل أديرة غرب أوربا. ونظرا للمساهمة الفعالة من جانب البندكتيين في مجالات الدين، والتعليم، والحكم، والاقتصاد، فإن الفترة ما بين ٥٥٠ إلى ١١٥٠ تقريبا كانت تعرف باسم القرون البندكتية، وقد اعتراها الوهن حتى ظهرت مع مطلع القرن الثاني عشر عدة نظم ديرية منافسة مثل تلك التي الشارت إليها المؤلفة في المتن: انظر:

جماعة يزعمون أن ممارساتهم ومثلهم مستمدة من العهد الجديد. وتمثل التحدى الأكبر في ذلك الكم المتزايد من الطلاب والدارسين، حيث زادت أعداد المدارس الراقية المستوى التي تقدم خدماتها التعليمية لصفوة كبيرة العدد. إلا أن الأشرار قد اساءوا استغلال الفرصة هنا أيضا، فقد أخذ كل من الطلاب والمدرسين يضيعون وقتهم في «الاسئلة التافهة» بيد أنه كان من المكن تسخير الدراسة في خدمة الكنيسة إذا ما احسن الانتفاع بها. إذ كانت المدارس تعد القساوسة لرعاية الشعب المسيحي، وتعمق فهمهم للعقيدة الكاثوليكية.

وقد عكف بعض العلماء أنذاك على التفكير في حقيقة ما يجرى من تغييرات، فاكتشفوا أنها تغيرات «طيبة» ومن ثم أفسحوا لامكانية التطور نحو الأفضل مكانا في رؤيتهم للتاريخ. فقد تميز هوف راهب سان فيكتور بباريس ـ باحساسه الشخصى الفريد والذي كان راهبا يدرس في دير سان فيكتور بباريس ـ باحساسه الشخصى الفريد بالتطور التاريخي. فقد بدأ انطلاقا من النظرة التقليدية التي ترى في التاريخ تاريخ الخلاص الانساني، وانتهى إلى استنتاج أنه يجب على الكنيسة أن تشجع نمو المؤسسات الجديدة، وإلا فكيف يتسنى لها أن تقوم برسالتها على الأرض؟ وهكذا توصل إلى أن التيارات الجديدة جزء من الخطة الالهية، وقد شارك جود فرى موكزابه «الكون الأصغر Microcosmos» أي الانسان، عبارة عن مقالة دينية مطولة تبين كيف أن الانسان، حتى الانسان الخاطيء، قد حباه ألله بنعمة القدرة الطبيعية على ابتكار ما يحتاج إليه لكي يعيش حياة كاملة ومتحضرة على سطح الأرض، بل إن جودفري يكاد يطير فرحا بسبب الكم المتزايد من الكتب التي ألفت في شتى ألوان المعرفة.

وقد انبرى انسلم الهافلبرجى Anselm of Havelburg، الذى كان واحدا من «الرهبان البيض» لتفنيد الاتهامات التى وجهت إلى التجديد. وبنى دفاعه على أرضية تاريخية، إذ لم يعد يكفى أن يجادل بالقول بأن أسلوب الحياة الذى اختاره لنفسه مستمد من الانجيل، لأنه كان مدركا لأن الاصلاح يعنى التجديد؛ إذ أنه لا يمكن للمرء أن يعود إلى الأخذ بقيم الماضي في حاضره دون تعديل. ومن ثم بنى أنسلم جدله على أساس أن الروح القدس مستمرة في الايحاء بأشكال الحياة الدينية الجديدة، حتى في العصر الأخير من عمر العالم. ثم استجمع شتات شجاعته ليعلن في حسم أن التغير نحو الافضل يمكن أن يحدث حتى في ذلك العصر الأخير.

وفرضت الجوانب الجديدة نفسها على مجموعة أخرى من العلماء هم: المحامون الكنسيون. وهنا كانت المسألة متعلقة بمهنتهم، لأن هذه الأمور المستحدثة كانت

تفرض نفسها على ثقافتهم وتعليمهم وتدريبهم. إذ كان القانون الكنسي يتطور بسرعة مماثلة لسرعة تطور اللاهوت. فقد زادت القواعد التي تحكم القضايا المطروحة في ساحات المحاكم الكنسية والمحكمة البابوية Curia في عددها، كما صارت أكثر تعقيدا. ويعود القانون الكنسي في أصله إلى الكتاب المقدس، والمجامع الكنسية، والمراسيم البابوية (وبينها الوثائق المزورة)، ولكن التفسيرات والأحكام الجديدة التي تقررت لمواجهة المشكلات الجديدة كانت تضاف باستمرار إلى المجموعة الأصلية. وكان المحامون الكنسيون يعملون بحكم وظائفهم في مجال القانون الكنسي، القديم والجديد. ولم يكن بوسعهم أن يغضوا البصر عن الفروق القائمة بين القانون الذي يعملون بمقتضاه، وبين ممارسات الكنيسة الباكرة. إذ لم يكن في العهد الجديد ثمة ما يقابل القواعد التي كانت تنظم مسائل عدم زواج الاكليروس أو حيازة الممتلكات على سبيل المثال. بيد أن هذه القواعد كانت لازمة لحل مشكلات المجتمع المعاصر. كان رجل القانون الكنسى يتقبل بصدر رحب الحقيقة القائلة بأن الحياة المسيحية كانت تخضع للتنظيمات الكنسية، كما كانت تزداد ارتباطا بالبابوية بشكل مطرد. ودائما ما يفخر المحترفون بأعمالهم، لا سيما إذا أضفت عليهم قدرا من الأهمية. وكان المحامون الكنسيون المشتغلون بالقانون الكنسي يؤمنون بمهنتهم إيمانا عميقا، لأنها كانت تعنى ضمنا إحداث التغييرات وتطبيقها في ساحات القضاء. وقد أفادت الكنيسة من التطورات القانونية، أو قل إن هذا هو ما كان رجال الكنيسة يفترضونه وهم يدرسون كتب القانون الكنسى للطلاب.

كان العلماء الذين ذكرتهم من اللاهوتيين أو من رجال القانون الكنسى، ولكنهم لم يكونوا من المؤرخين. وكان هوف راهب سان فيكتور هو الوحيد الذى الف كتابا ف التاريخ. وكان كتابه الذى اتخذ شكل مدونة تاريخية عالمية يستخدم كدليل لطلاب الأداب واللاهوت. وقد جمعه هوف بقصد أن يكون كتابا تعليميا، أى أنه لم يتناوله باعتباره وسيئة يعبر بها عن أرائه في التطور التاريخي. وكان المؤرخون أكثر من اللاهوتيين ورجال القانون الكنسي محافظة ونفورا من الافكار. الجديدة ذلك أنهم كانوا يسجلون ما يطرأ من تغيرات ومتجددات، مع ما تستوجبه من ثناء أو لوم. وقد لاحظ المؤرخ البرجندي رالف جلابر Ralph Glaber (مات بعد سنة ١٥٠٩) فعلا الحماسة السائدة لبناء الكنائس؛ إذ يقول إنه كان يبدو أن الأرض قد اتشحت بثياب بيضاء. الا أنه لم يناقش علاقة هذا التغير بعصر شيخوخة العالم.

كان تقسيم الزمن إلى عصور ستة أمرا مسلما به. وكان ينبغى أن يكون تقسيم الزمن وفقا للممالك الأربع حافزا يحث المؤرخين على التفكير والنقد. إذ كان من المكن قياس هذه النظرية واختبارها في ضوء الحقيقة الواقعة. لقد كانت الفترات ماثلة في

العقل، طالما وجدت على الأرض مملكة قوية. ولكن هل كانت المملكة العالمية الرابعة، أى الامبراطورية الرومانية، ما تزال موجودة فى ذلك الحين؟ لقد تركناها فى القرن السابع تحاول أن تمد فى عمرها من خلال الحكم البيزنطى. وكان بعض المؤرخين يرون أنها قد قسمت فعلا بين ملوك أقل شأنا، على حين تجاهل البعض الآخر هذه المسألة. ثم جاء تتويج شارلمان ليعطى للامبراطورية دفعة جديدة للحياة. وكان ذلك مؤشرا على انتقال السلطة. فقد تراخت قبضة بيزنطة على إيطاليا، وبينما أخذت هيبة بيزنطة تتدهور اتجه البابوات صوب الفرنجة طالبين حمايتهم فى مواجهة البيزنطيين واللمبارديين.

وفي أوساط البلاط الفرنجى ابتكرت نظرية جديدة لتبرير إحياء الامبراطورية في الغرب. فقد انتقلت الامبراطورية من البيزنطيين إلى الفرنجة، دون أن تفقد خاصيتها الرومانية. ومن ثم ظلت المملكة الرابعة على قيد الحياة. وكانت نظرية «النقل» تحمل في طياتها عدة تناقضات، إذ أن الامبراطورية البيزنطية كانت ما تزال موجودة، والواقع أنها حظيت باعتراف شارلمان، كما أن حدود الامبراطورية الكارولنجية اختلفت عن حدود الامبراطورية الرومانية. فقد كانت الامبراطورية الرومانية ترتكز على البصر المتوسط، بينما ارتكزت الامبراطورية الكارولنجية على حوض نهر الراين. بيد أن مثل الامبراطورية واللقب الامبراطورية ليست ذات وزن كبير في القياس. إذ أن مفهوم الامبراطورية واللقب الامبراطوري ظلا قائمين حتى بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية. وكان تتويج أوتو الأول امبراطورا في روما علامة على أن «نظرية النقل» قد قطعت مرحلة أخرى. فقد «انتقلت الامبراطورية الرومانية من الفرنجة إلى الألمان» هذه المرة. ومهما يكن من أمر، فان هذا كان أقل اثارة للدهشة من انتقالها من البيزنطيين إلى الفرنجة، لأن كلا من الفرنجة والألمان ينتمون إلى أصول بربرية.

لقد بدت امبراطورية السكسون والساليين من بعدهم أقل رومانية من امبراطورية شارلمان. فقد اقتصرت حدودها على الأراضى الواقعة غرب الفلاندرز واللورين، وظلت فرنسا وبريطانيا وشبه الجزيرة الأسبانية وجنوب ايطاليا خارج حدودها، كما احجم الأباط. السكسون والساليون عن فرض دعاواهم الأمبراطورية على أقرانهم من الحكام. ومن ثم فان مسألة المكانة الامبراطورية لم ترق إلى مستوى الممارسة الفعلية تقريبا. إذ لم يكن الحكام خارج الحدود الفعلية للامبراطورية يعتبرون أنفسهم مجرد ملوك تابعين للامبراطور، رغم أنهم كانوا من الناحية النظرية من رعايا الامبراطورية. فكيف عالج المؤرخون هذا الموقف؟ لقد كانت هناك مؤامرة صمت. ولنأخذ مثالا على ذلك من انجلترا في كتاب «تاريخ الانجليز» الذي كتبه هنرى الهونتنجدوني حوالى سنة وكثيرون غيره، موضوع المملكة الرابعة بالحذف، بل إنهم لم يسألوا ما إذا كانت

المملكة الرابعة قد قسمت بين عشرة ملوك، كما جاء فى نبوءة دانيال، وما إذا كان ذلك بالتالى نذيرا بقدوم المسيح الدجال.

وثمة مؤرخ وحيد قام بمحاولة يشوبها التردد للملاءمة والتوفيق بدلا من مجرد تجاهل نظرية النقل، وهو هوف راهب فليرى Hugh of Fleury (ت بعد سنة ١١١٧). وبدأ هذا المؤرخ بتأليف كتاب عن «التاريخ الكنسى» وفق الخطوط التقليدية، ولم تمثل مسألة انتقال الامبراطورية الكارولنجية أية مشكلة بالنسبة لهوف، ذلك أنه اعتبر شارلمان والفرنجة فرنسيين. وقد وصل بأحداث كتابه عند تقسيم امبراطورية شارلمان بين أبناء لويس التقى. ثم الف كتابا عن الملوك «المحدثين» في فرنسا منذ موت شارلمان حتى سنة ١٨٠٨. وقد فرضت عليه خطته ان يجابه مشكلة العلاقات بين ملوك فرنسا والأباطرة الألمان. ويزعم هوف ان الفرنسيين انفصلوا عن الألمان بعد معركة فونتنوى وظلت مملكة الفرنجة منفصلة عن الإمبراطورية الرومانية منذ ذلك الحين حتى «وظلت مملكة الفرنجة منفصلة عن الإمبراطورية الرومانية التي كان يحكمها يومنا هذا» ولا ينكر هوف الوجود المستمر للامبراطورية الومانية التي كان يحكمها الألمان في عصره، إذ أنه يسجل ببساطة الحقيقية القائلة بأن الملكة الفرنسية ونقض نفسه حين قبل اعتبار أن الامبراطورية القائمة في عصره هي الملكة الرابعة، وحين وضح في الوقت نفسه أن هذه الامبراطورية فقدت صفة العالمية.

وقدر لأحد الألمان أن يمعن النظر والتفكير في هذه المشكلة، ذلكم هو أوتو الفريزى الذي يتألق بمفرده كمؤرخ مفكر. وقد ساعدته مؤهلاته وخبرته على أن يقوم بالمهمة خير قيام. ولد أوتو سنة ١١١٥ تقريبا وهو من أصل الماني، فأبوه من أسرة بابنبرج خير قيام. ولد أوتو سنة ١١١٥ تقريبا وهو من أصل الماني، فأبوه من أسرة بابنبرج Babenberg، وأمه من أسرة ستاوفر Staufer. وعلى الرغم من زواج أبويه، فقد كان هناك عداء قائم بين الأسرتين. وكان للفوضى التى نشبت مخالبها في بلاده تأثيرا عميقا عليه. ورحل النبيل الشاب إلى باريس طلبا للدراسة، وهناك قرأ في الآداب واللاهوت. وفي باريس استطاع أن يشهد الخصومات الأكاديمية، حيث توزعت مشاعر الولاء في نفسه، فقد كان من المعجبين بسان برنار، ولكنه في الوقت نفسه كان مرتبطا برباط الصداقة مع جيلبرت من لابوريه Gilbert of La Porrée خصم برنار. ثم انضم أوتو إلى طائفة الرهبان السسترشية أتباع سان برنار. وصار مقدم دير موريموند ألى طائفة الرهبان السسترشية أتباع سان برنار. وصار مقدم دير موريموند فضل ترقيه السريع إلى بنى جلدته، ولكنه أيضا كان متعلما وقديرا. وباعتباره سليلا للأرستقراطية الألمانية، ومن علماء باريس، وراهبا من أتباع سان برنار، واستفا في الرايخ الألماني، تميز أوتو برؤيته الفردية، وعقليته الفاحصة. وقد بعث كتاب «تاريخ الرايخ الألمانية وقد بعث كتاب «تاريخ الرايخ الألمانية الألمانية الإلمانية الفردية، وعقليته الفاحية وقد بعث كتاب «تاريخ

المدينتين» ـ الذي كتب ما بين سنة ١١٤٣ وسنة ١١٤٥ تقريبا ـ أوروسيوس حيا في ثوب معاصر.

ويعكس عنوان الكتاب صدى أفكار سان أوغسطين، ذلك أن أوتو انطلق ليكتب تاريخا عن المدينة السماوية والمدينة الأرضية، الللتين ورد ذكرهما في كتاب «مدينة الله» لأوغسطين. بيد أن القديس أوغسطين كان سابقة مبكرة، وللذا فإن أوتو قد اكتثف أن عليه أن يجعل الكنيسة هي مدينة الله. وكان يتفق مع أوغسطين في رأيه بأن المسيحي المؤمن والشرير على حد سواء يختلطان في الكنيسة الأرضية، الا أنه كان يرى أنه يجب على المؤرخ أن يتعامل مع الكنيسة باعتبارها مؤسسة بعد أن اعترف بها قنسطنطين، وليس له في ذلك أي خيار. وقد أدى به هذا الرأى إلى أن يتخذ من أوروسيوس نموذجا يهتدى به في كتابه «التاريخ العالمي» إذ يتناول كتابه تاريخ الكنيسة وأعدائها في إطار تقسيم الزمن إلى عصور ستة وممالك أربع. وتناول تاريخ الكنيسة كمؤسسة بأن شرح أن حالتها كانت «أسعد» ليعد ما نالها من أسباب القوة والثراء لمما كانت عليه ابان الاضطهادات التي تعرضت لها في بواكير أيامها، بيد أنها لم تكن أفضل من الناحية الأخلاقية. لقد كبر أوتو الصورة الأوروسيوسية بأن أضاف إليها تاريخ مؤسستين أخريين هما: التعليم والديانة (التي كان يعني بها النظم الدينية). وكانت هاتين تعد جزءا من تاريخ الكنيسة.

وفي بحثه عن مفتاح التغيرات التى حدثت منذ زمن أوروسيوس ـ وهو المفتاح الذى سيساعده على رسم التيار الكلى للتاريخ ـ اشار أوتـو إلى الحركـة التى سارت من الشرق إلى الغرب. فقد بزغت مراكز القوى العالمية، سياسيا، وثقافيا، ودينيا، في الشرق ثم تحركت صوب الغرب. وكان تاريخها متوافقا مع العصور الستة، فالملكة أو الامبراطورية، والكنيسة، والتعليم، والدين، شهدت جميعا فترة الصعود والتألق ثم الاضمحلال داخل إطار كل عصر بدوره، وفي رأى أوتو أن الملكة أو الامبراطورية لم تكن عدوا للكنيسة. وأخذ عن أوروسيوس إيمانه بالدور الايجابي للامبراطورية الرومانية، ذلك أنها قامت بحماية الكنيسة. أما أعداؤها فهم الهراطقة والوثنيون والمسيحيون الاشرار، سواء من القساوسة أم من العلمانيين. فقد هاجموها في كل العصور.

ولكى يبدأ بمملكة عالمية: نظم أوتو الصورة التى رسمها أوروسيوس عن طريق القرائن. فقد تحولت امبراطورية الفرس والميديين المزدوجة إلى الامبراطورية البيزنطية وامبراطورية الفرنجة. فقد انتقلت الامبراطورية إلى الفرنجة حين أحيا كل من شارلمان وأوتو الأول الامبراطورية الرومانية. إذ أن أوتو الفريزى اعتبر الفرنجة والألمان بمثابة شعب تيوتونى واحد. ومن ثم فان انتقال الامبراطورية من أحدهما إلى الآخر يعد أمرا

محليا. وحاول الكشف عن الشعب الذي تولى زمام الامبراطورية في تلك الأيام المظلمة التي أعقبت تصدع امبراطورية شارلان وحتى تتويج أوتو الأول. فربما كانت الامبراطورية في ذلك الحين تحت رعاية اللمبارديين الذين كانوا من الشعوب التيوتونية. على أية حال، فالواضيع أن المملكة العالمية قد انتقلت من الأسر الحاكمة الشرقية إلى الأغريق ثم الرومان، وبقيت على رومانيتها منذ ذلك الحين. وتشابه مصير امبراطورية شارلان مع مصير الامبراطوريات الشرقية، وامبراطورية الأغريق والرومان، وهو ما حدث أيضا بالنسبة للامبراطورية الألمانية. ففي جميع الأحوال تأتى البداية في شكل صعود نجم الامبراطورية عن طريق الغرو، ثم يسود عصر من الرفاهية، تأتى من بعده الهزيمة على أيدى الأعداء في الداخل والخارج. فقد بزغت شمس الامبراطورية الألمانية عن طريق الغزو، ثم وصلت إلى قمتها تحت حكم هنرى الثالث. وبدأ أفولها إبان عهد هنرى الرابع. وفي هذه المرة لم يحدث أن استعادت الامبراطورية قوتها. إذ أن هزيمة هنرى الرابع (أمام جريجورى السابع) انتصار للكنيسة. واقتبس أوتو نبوءة من حلم التمثال في رؤيا دانيال (٢: ٣٣ ـ ٣٤)(٢) تتنبأ بتوقيع قرار الحرمان، والاذلال الذي سيناله أحد الأباطرة على يد أحد البابوات. الا أن انتصار الكنيسة لم يملا الفراغ الناجم عن انهيار السلطة العلمانية، فقد سادت الفوضى سائر انحاء الامبراطورية «والممالك الأخرى»، واتخذ أوتو من الحروب الأهلية التي اشتعلت بين ستيفن وماتيلدا ف انجلترا مثالا يبرهن به على أن «الممالك الأخرى» كانت لها مشاكلها مثل الامبراطورية. فماذا يبقى غير انتظار قدوم المسيح الدجال؟. لم يعترف أوتو بأن الامبراطورية قد قسمت بين الملوك العشرة الذين ذكرتهم رؤيا دانيال، بيد أنه كان يعتقد أن الامبراطورية تتدهور نحو التلاشي والاختفاء. إلا أنه كان يفتقر إلى الاتساق في تناوله للامبراطورية الغربية كمملكة عالمية، إذ أنه منح لقب «امبراطور» للحاكم البيزنطى ، كما كان يشير إلى «الممالك الأخرى » دون أن يقرر انها تنتمى إلى الامبراطورية الغربية. ومن ناحية أخرى، يبدو نموذجه الذي أخذه عن أوروسيوس معقولا في مجال التاريخ السياسي. حقا إن الامبراطورية الرومانية تدهورت، وفشل الأباطرة حتى في مجرد الحفاظ على النظام داخل حدودهم.

أما «الدراسة » فقد برهنت على أنها أقل انصبياعا لنموذج الصبعود والسقوط. فمن

⁽٣) يقول نص الآيتين: «رأس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس، ساقاه من حديد، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقها »، وقد أوردنا الآية السابقة عليهما لزيادة الايضاح.

المؤكد أن الدراسة قد انتقلت من الشرق إلى الغرب. وهذه الفكرة ترجع أصلا إلى الكوين الذى نبه شارلمان إلى انه يجب أن يؤسس «أثينا جديدة» في عاصمته أخن. وكان من الواضح أن الاغريق قد ورثوا الحكمة عن الشرق ثم نقلوها إلى الرومان. والآن ازدهرت الدراسة في فرنسا وبات واضحا أن التعليم يتركز في مدارس باريس. وربما كان العلماء في باريس قد حاولوا جعل نظرية انتقال الدراسة توافق مقتضى الحال، وهو الأمر الذي يتمشى مع الحقيقة لأن المدارس الكاتدرائية في ألمانيا وحوض الراين كانت قد فقدت جاذبيتها، إذ كان الباحثون يتجهون رأسا إلى باريس إذا ما رغبوا في الدراسة في مناطق شمال الألب. وربما يكون أوتو قد التقط الفكرة أثناء اقامته في باريس. ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بهوف راهب سان فيكتور.

وتمثلت الصعوبة فى أنه إذا كان تاريخ الدراسة قد سار على نهج التاريخ السياسى، فقد كان ينبغى أن تسقط الدراسة أيضا فى براثن التدهور والذبول. فالصعود، فالتألق على القمة، ثم التدهور، كلها مراحل تأتى بالضرورة فى ركاب نظرية «النقل». وربما كان أوتو يرى أن عصر ازدهار مدارس باريس قد ولى وفات. إذ أن ما يقوله عن الدراسات المعاصرة له محير لدرجة أنه يمكن تفسيره على أى وجه من الوجوه، فهو لا يحدد رأيه بدقة، كما كان يفعل حين يكتب عن الامبراطورية. وعلى أية حال، فإنه كان يرى أن الدراسة تحركت غربا باتجاه شاطئ الأطلنطى الذى كان نهاية العالم المعروف أنذاك. ومن الناحية الجغرافية، لم يكن ممكنا أن تمتد المدارس إلى أبعد من ذلك، أيا كان طول فترة التدهور. وقد تنبأ شاعر من أوكسفورد فى القرن الرابع عشر بأن حركة الدراسة التالية سوف تكون نحو «شعوب العالم الخمارجى، في اقصى بأن حركة الدراسة التالية سوف تكون نحو «شعوب العالم الخمارجى، في اقصى الغرب»، ومن المحتمل أنه كان يمزح (لأن الأمريكتين لم تكونا قد اكتشفتا بعد).

أما «الديانة » فكانت متعبة بقدر أكبر من «الامبراطورية » و «الدراسة ». فقد كان أوتو يائسا من الامبراطورية، وربما لم يكن راضيا عن مـذاهب باريس ومنـاهجها التعليمية، وهو ما يفسر لنا سر انضمامه إلى طائفة الرهبان السستر شيين، ولم يكن يملك سوى الاعجاب بحركات الزهد الجديدة وقديسيها. وحاول تطبيق نموذجه على الديانة. وكان التناسب تاما فيما يتعلق بالبداية، فقد بزغت الديانة فى الشرق. والعهد القديم حافل بالقصص عن النساك والزهاد المقدسين، كما أن الـرهبنة والـديرية المسيحية قد ارتبطت فى أصلها بآباء الصحراء (٤). ثم تحركت صوب الغرب. بيد أنها

⁽٤) كان لتغلغل الفلسفة الافلاطونية الجديدة العميق فى الفكر المسيحى فى القرون الأولى بعد المسيح، بثنائيتها عن الروح والجسد وتحللها من العالم المادى، أثره فى إيجاد الايمان بأن الروح تضمن خلاصمها حين تحل الجوانب الروحانية فى الانسان محل الجوانب المادية والجسدية. وقد أحس بعض رحال الكنيسة الذين تميزوا بتقواهم وورعهم الشديد، والذين فسروا الانجيل على هذا

اكتسبت حيوية وروحا جديدة جعلتها أبعد ما تكون عن التدهور والاضمحلال، فقد كانت بمثابة الضوء الذى يلمع في دياجير الظلام. ويتناول كتابه «تاريخ المدينتين» بالتفصيل مظاهر التغير والتحول في أحبوال البشر كما تبدو من خلال المؤسسات الكنسية. لقد كانت الديانة مختلفة عن كل من الامبراطورية والدراسة لأن القديسين قد سموا بأنفسهم فوق التغير والتحول. إذ يرجع الفضل إلى مزاياهم وسجاياهم في حفظ العالم المترنح من السقوط: ذلك أنه «ينبغي علينا أن نتوقع نهاية العالم في القريب العاجل، ما لم نستمد العون من صلوات الرجال المقدسين ودعواتهم الطيبات». وربما كان أوتو يتمثل سان برنار في ذهنه وهو يكتب هذه الكلمات. فقد كان أحد رهبان سان برنار قبل أن يفقد الأخير سمعته كقديس صانع للمعجزات حين أخذ يدعو إلى الحملة الصليبية الثانية التي انتهت بالفشل.

كانت الديانة مزدهرة طالما لم يكن لديها عمل تؤديه، كما أنها لم تتوافق تماما مع التقسيم الزمنى الذى أخذ به أوتو الذى استسلم للبرهان، وهى ميزة نادرا ما توفرت لمؤرخ ربط نفسه بنظرية ما، على نحو ما فعل أوتو. وهو لم يجبر الحقائق على النوم فوق سريره البروكروستيني (٥). وربما تتدهور الديانة فى المستقبل، لأنها قد أظهرت مرونة غريبة إذ أنها بقيت حية حتى بعد انتقالها إلى الغرب، كما أنها تلكأت فى الانقياد لنموذج الصعود والتألق والسقوط الذى صاغ أوتو نظريته على أساسه. وكان أوتو من الأمانة بحيث اعترف بما كان يواجهه من صعوبات. وتبدو هذه الأمانة واضحة تفرض نفسها على كل من يقرأ كتابه. لقد كان أوتو يتمتع بحس نقدى مرهف استخدمه فى تناول الأساطير المقدسة، ذلك أنه كان يريد دائما أن يولى الحقائق التى يعرفها ما تستحقه من اعتبار. ويظهر هذا الحرص على الحقيقة جليا حتى فى آخر مؤلفاته، وهو كتاب موضوعه ما وراء التاريخ meta history وليس التاريخ. وفيه

⁻ النحو الثنائى العنيف بخطر عظيم على ارواحهم من جراء الحياة في مجتمع القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد بما ساد فيهما من مظاهر التدهور والانحلال، فهربوا إلى أماكن مقفرة سعيا وراء الحياة الروحانية الخالصة، وكانت الصحراء المصرية خير مكان يلائم مطلبهم. وعرف هؤلاء باسم أباء المصحراء. ومن أوائل هؤلاء الآباء القديس بولس الطيبي (حوالي ٢٥١ - ٢٥٦) والقديس انطونيوس المعاصر له الذي نظم عددا من مستعمرات الرهبان في صحراوات صعيد مصريقيم فيها الرهبان في صوامع منفصلة.

⁽٥) نسبة إلى بروكروسيتس اللص اليونانى الذى تذكر الأساطير أنه كان يرغم ضحاياه على النوم فوق سريره ثم يحاول الملاءمة بين أجساد الضحايا والسرير بالقطع والاضافة، وتقصد المؤلفة بهذه العبارة أن أوتر الفريزى لم يحاول لى عنق الحقائق أو قولبتها في قالب النظرية التي ربط نفسه بها وإنيا ذكر الحقائق على ما هي عليه.

يتناول أوتو ما وراء الطبيعة، ويضع الخطوط العامة للحياة الآخرة حيث يحل الخلود محل الزوال. إلا أنه _ حتى وهو يعالج هذا الموضوع _ يستمد معلوماته من الكتاب المقدس ومن كتابات آباء الكنيسة دون أن يقحم تأملاته وأفكاره الخاصة.

لم يكن أوتو مؤرخا نمطيا. ولم يحظ كتابه «تاريخ المدينتين» بأى رواج خارج حدود المانيا، كما أن كتاب التاريخ لم يقلدوا كتابه لما يتسم به من أعمال للفكر والتأمل. واستمر المحامون الكنسيون في مناقشة العلاقات بين الامبراطورية والبابوية و «المالك الأخرى». وقد عمر موضوع انتقال الدراسة من الشرق إلى الغرب كثيرا. لكن أحدا من المؤرخين بعد أوتو لم يحاول أن ينسج من نظرية الانتقال هذه تاريخا عالميا. كما أن أحدا لم يتناول بالدراسة مشكلة التغيرات التي حدثت في العالم القديم. فهل كان ذلك راجعا إلى الكسل، أو قصر النظر، أو إلى الروح المحافظة ؟ هذا ما يستحيل علينا أن نقرره.

وربما يكون اوتو نفسه قد صاغ نظريته في التاريخ العالمي في مرحلة متأخرة من عمره. وهناك من الأسباب ما يبرر ذلك. إذ كان الامبراطور فردريك بربروسا Frederick Barbarossa in the fire literal in the fireral in the firer

وجاء الكتاب الجديد في موضوع مختلف هو « اعمال فريدريك » كما يقول عنوانه. ولا يتطلب هذا الموضوع تقسيم الزمن إلى فترات أو عصور. واستطاع أوتو أن يركز على القصة الباهرة لعائلة فريدريك، وعلى ما تميز به في شبابه من بطولة وشهامة. ثم يصل بأحداث الكتاب إلى ارتقاء فريدريك لعرش الامبراطورية، وهنا يذكر أن الصباح المشرق قد انبلج بعد ليلة مظلمة مطيرة. ويعيد أوتو كتابة تاريخ الامبراطورية منذ

الصراع بين هنرى الرابع، وجريجوري السابع حتى تتويج فريدريك، وفقا لرؤية جديدة؛ إذ أنه يبرز صعود أسرة فريدريك، ويخفف من حدة النكسات التي تعرض لها هنرى الرابع وتدهور الامبراطورية. ويحكى عما أحرزه فريدريك من نجاح في عبارات متوهجة. إذ يصفه بأنه رجل حق: لأنه أعاد بناء الامبراطورية كما جاءت أعماله منسجمة مع الكنيسة، على نحو ما كان أسلافه يفعلون في تلك الأيام الخوالي المجيدة قيل انفجار النزاع حول التقليد العلماني. ولابد أن أوتو كان مخلصا في ثنائه على فريدريك. إذ كان لابد لانجازات فريدريك الباكرة في ألمانيا وإيطاليا أن تستأثر باعجاب رجل من بنى جلدته وأسقف في الكنيسة الامبراطورية مثل أوتو. فإلى أي مدى انساق أوتو بسبب هذه الانجازات نحو تعديل رأيه في نموذج التاريخ العالمي؟ هذا ما لا نعرفه على وجه التحديد. لقد استمر أوتو في اهتمامه بما يجرى من أحداث خارج الامبراطورية. ولجأ إلى الاستطراد ضاربا عرض الصائط بالتعليمات التي وضعها بنفسه (من حسن الحظ أن هذا قد زاد من قيمة كتابه عن أعمال فريدريك). وفي بعض الأحيان نجده يلتمس العذر لنفسه لعدم التزاميه بالموضوع إلا أنيه لم يحاول أن بصوغ مادته في إطار ذلك الهيكل الزمني الذي استخدمه في «تاريخ المدينتين». إذ أن الاميراطورية، شائنها شأن الديانة، قد قلبت الاطار الزمني رأسا على عقب حين عاشت فترة جديدة. واكتفى أوتو بتحذير فريدريك من عجلة الحظ. وربما كان يعتقد أن حركة الاحياء قد لا تستمر. وربما يكون أيضا قد اعترف بأن نموذجه في التاريخ بحاجة إلى إعادة النظر والتعديل. وإذا كان الأمر كذلك، فإن أوتو قد احتفظ برأيه لنفسه؛ الأمر الذي لا يزال سرا مجهولا.

ويتوقف كتاب «أعمال فريدريك» دون أن ينتهى تأليفه بموت أوتو سنة ١١٥٨. وطلب من القس راهوين Rahewin أن يكمل الكتاب. ووصل به راهوين إلى أحداث سنة ١١٦٠. ويبدو من التكملة أنه كان متمرسا على الكتابة، وأنه كان مؤرخا سليم الحس؛ إلا أن الموضوع لم يكن يتطلب كتابة تاريخية تأملية.

ويرمز اعتدال أوتو وضبطه لنفسه إلى مستقبل الكتابة التاريخية في العصور الوسطى. فقد اتخذ خلفاء أوتو من الحاضر بؤرة لأعمالهم، فرّاد تركيزهم على الحاضر بشكل مطرد، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التساؤل عن علاقة هذا الحاضر بالماضي.

الغصل الثامن

تاريخ الخدمة المدنية(١)

يوحى مصطلح «الخدمة المدنية» اليوم بصورة رجال تقليديين يشغلون وظائف مأمونة. وقد وجدت الخدمة المدنية في القرن الثانى عشر: بيد أنها كانت تطورا جديدا في حكومة العصور الوسطى. إذ لم يكن البيروقراطيون قد نعموا بعد باستقرار النظام الوظيفى (الروتين). يقول مارك بلوك^(۲) في كتابه القيم عن المجتمع الاقطاعي إن ظهور العامل أو الموظف المأجور كان ايذانا ببدء مرحلة جديدة في التاريخ الوسيط، فقد تزايد عدد القساوسة الذين يشغلون وظائف الجهاز البيروقراطي الجنيني. وبدأ أولئك «العاملون ذوو المعاطف السوداء» يقسمون أنفسهم فيما نعرفه اليوم بالدرجات «العاملون ذوو المعاطف السوداء» يقسمون أنفسهم فيما نعرفه اليوم بالدرجات الأدارية» و«التنفيذية» في سلك الخدمة المدنية. وشق بعضهم طريقه نحو الدرجات العليا ووصلوا إلى القمة. بينما ظل الآخرون في المستويات الأدني حتى أحيلوا إلى المعاش. وكان أولئك الموظفون يعملون في خدمة الحكومات، والبلدية، والكنيسة؛ التي كانت جميعها بحاجة إلى المحاسبين والاداريين. وقد رأينا أن وليم راهب سان تبيري قد أحصى «مجموعات مختلفة من المناصب والوظائف» في قائمة المتجددات الملموسة في عصره. لقد كانت الخدمة المدنية تقدم للشباب فرصة اختيار المهنة أثناء بحثهم عن وسيلة يتعيشون منها، بشرط أن تكون درايتهم طيبة بمبادئ القراءة والحساب.

وقد كتب بعض البيروقراطيين التاريخ في وقت فراغهم، أو فرضت عليهم حياة

⁽۱) عنوان هذا المفصل في الفصل الأصلى civil Service history ، وتقصد به المؤلفة تلك الكتب التاريخية التى الفها في العصور الوسطى مؤرخون يعملون في سلك وظائف الخدمة المدنية، سواء بعد تقاعدهم أو أثناء وجودهم في سلك الخدمة كما سيتضح من سياق الفصل. (المترجم)

⁽٢) كان مارك بلوك Marc Bloch أستاذا في جامعة باريس قتله النازيون في سنة ١٩٤٤ بينما كان يحارب في صغوف المقاومة الفرنسية. ويعد أبرز العلماء الذين قاموا بدراسة التطور الأقتصادى في العصور الوسطى لا بسبب مساهماته في التاريخ الزراعي فحسب، وأنما بسبب المناهج والمفاهيم التاريخية التي أرسى دعائمها، وتأثيره على جيل بأسره من العلماء الفرنسيين المتخصصين في تاريخ العصور الوسطى. وهو يؤمن بأن النظم تكتسب أهميتها بما لها من وظائف اجتماعية. ويمكن بشيء من التساهل أن نعتبر أن مارك بلوك وتلاميذه بمثابة المدرسة الأجتماعية في التاريخ الوسيط.

الفراغ بحيث عكفوا على كتابة مذكراتهم. وقد نتوقع من الموظف المدنى الذى يكتب التاريخ أن يكون أسلوبه مختلفا عن الأسلوب الذى يستخدمه الرهبان وهذا ما حدث بالفعل. فقد كانت نظرته للأمور مختلفة، كما أنه تميز بخبرته المباشرة بما يكتب عنه. فغالبا ما كان عمله يزج به في غمار أحداث التمرد والعصيان وغيرها من الاضطرابات؛ وذلك لأنه لم يكن يحيا تلك الحياة الوادعة الآمنة التى يعرفها من يعيشون في دهاليز الأديرة وأروقتها. وأول مثال نتناوله عن تاريخ الخدمة المدنية كتاب بعنوان «مصرع شارل الطيب».

وهذا الكتاب قطعة ثمينة في مجال التدوين التاريخي. ومؤلفه جالبرت البروجي Galbert of Bruges، الذي كان يعمل مسجلا العقود والوثائق بمجلس القساوسة في كاتدرائية المدينة. وكان من أفراد الجهاز التنفيذي، لأنه كان كاتبا متواضع الدرجة، ولم يكن له دخل من أوقاف الكنيسة فيما نعلم، وربما كان يتعيش من راتبه ومن الرسوم التي كان يتقاضاها عن عمله، وكانت المناسبة التي كتب عنها هي مصرع الكونت شارل أمير الفلاندرز Count Charles Of Flandres بينما كان راكعا يصلى في الكاتدرائية. وكان الذين اغتالوه من افراد اسرة ارلبالد Erlembald القوية، ذات الأصل الحقير. وكان الكونت شارل قد بيت النية على تحقيق أصلهم، وربما كان ينوى أن يعيدهم إلى حالة القنية مرة أخرى. فكان أن لجأوا إلى هذا التصرف اليائس في سبيل انقاذ أنفسهم. وبعد الأغتيال احتلت الأسرة قلعة بروج Bruges، التي كانت بجوار الكاتدرائية، ثم اشعلوا نيران الحرب في الريف، وامتد لهيب الحرب إلى سائر أنحاء كونتية فلاندرز. ومن المؤكد أن الوقت اللازم للكتابة قد توفر لجالبرت، لا سيما وأن المتمردين قد نقلوا محفوظات مجلس القساوسة إلى القلعة، وبالتالي لم يعد بامكانه أن يستمر في عمله كموثق للعقود والسجلات. وحرص على أن يسجل تقريرا يوميا عن الأحداث التي كانت تجري من حوله. وقد اضطر إلى الاستمرار في المهمة التي أخذها على عاتقه، إذ كان يشعر أنها نوع من الاجبار، فقد كان يعتبر مهمته هذه «شوارة صغيرة من الاحساس». وهنا نفتقد العذر الذي كان الكتاب السابقون يسوقونه ويذكرون أنهم يكتبون مؤلفاتهم تلبيةلطلب ما. لقد كان جالبرت يكتب بمبادرة ذاتية، وكانت كتابته متجددة ودقيقة، كما كان هو دقيقا في حرفته.

ولأن الكونت الصريع لم يخلف وريثا، فقد ظهر وليم كليتو Willian Clito، الذى كان يحظى بمساندة ملك فرنسا، ليطالب بحكم الكونتية. وكان لابد أولا من إخراج المتمردين من القلعة، فقد كانت السيطرة عليها تعنى السيطرة على المدينة بأسرها.

وانتهز سكان مدينة بروج ومدينة جنت Ghent المجاورة الفرصة وانتزعوا من سيدهم الجديد عدة تنازلات. إذ أن سكان المدينتين اجتمعوا سويا ليبيعوا مساعدتهم لقاء الوعود المبذولة. وكانت تلك خطوة جديدة ماهرة في سبيل كسب حريتهم والتحرر من الاعباء التي كانت تثقل كواهلهم من قبل الكونت. وبذل كليتو الوعود لأفصال الكونت الصريع والذين كانت حقوقهم في فرض الضرائب قد الغيت. وساعده سكان بروج وجنت على هزيمة المتمردين بعد نضال مخيف، ثم تمردوا بدورهم عليه حين تنكر لوعوده التي بذلها لهم، ذلك أنه كان أشبه بمن يدس يده في جيوب الآخرين. وأدى طرد كليتو من أراضي الفلاندرز إلى المزيد من الحروب. فقد حاول أدعياء جدد في عرش الكونتية أن يجربوا حظهم في غزوها (كان عددهم أربعة) وتتبع جالبرت سلسلة الأحداث المتداخلة حتى إعادة إقرار السلم. ثم أضاف مقدمة وعدة فصول لشرح أصول النزاع.

وقد وجه جالبرت كتابه هذا إلى أهل بروج «وكل المخلصين». وكان يمتاز بتضامنه مع سكان مدينته، رغم سلوكهم الخاطئ ، الذى كان هو أول من اعترف به. وهو يلوم ملك فرنسا، والنبلاء، ورجال الكنيسة والسكان دون تحيز أو محاباة، ذلك أنهم جميعا ارتكبوا الجرائم والحماقات. وكان قادرا على رؤية جانبى المشكلة، فقد كان قتلة الكونت شارل مدانين بالخيانة، وانتهاك الحرمات الدينية أيضا ولذا فإنهم جديرون بما نالهم. ومن ناحية أخرى، كان من الطبيعى أن يحاربوا في سبيل الحفاظ على وضعهم ومكانتهم. وبغضل ذهنه المتفتح لم يقع جالبرت في منزلق الثقة المفرطة بالعناية الألهية. إذ أنه كان في البداية يرى المتاعب على أنها عقاب أنزله الرب جزاء على خيانة الناس لحكامهم، وهو الأمر الذي يحرمه الكتاب المقدس، ثم صارت القصمة أشد تعقيدا، وها هو ذا يعترف بحيرته. وقد توفر له وضوح الرؤية بفضل ما ناله من تعليم، كما أنه لم يعتمد على سويتونيوس في رسمه للشخصيات التي تنبض بالحيوية. لقد احسن جالبرت استغلال الفرصة التي سنحت له، كما جدد وابتكر.

والقصة التى أوردها جالبرت عن الاغتيال قصة فريدة لا مثيل لها. أما المثال الثانى الذى أقدمه فى هذا الصدد فهو «حوليات جنوا»، وهى مختارة من بين عدة حوليات ومدونات تاريخية خاصة بالمدينة. وكانت جنوا تختلف عن بروج، فقد كانت المدن الفلمنكية تدين برخائها المطرد إلى صناعة المنسوجات ولذا كان على سكان المدينة أن يؤمنوا أرباحهم ضد الجهود التى يبذلها السيد الاقطاعى من أجل ابتزازها عن طريق فرض الرسوء والاشراف على حكومة المدينة. أما رخاء جنوا فكان قائما على

اساس التجارة البحرية. إذ أن مواطنيها اتجهوا صوب البحر لأن اراضيهم الجبلية التى تكتنف الساحل دفعتهم إلى ركوب البحر. وكون التجار الجنوبون ثرواتهم عن طريق التجارة البحرية، والحروب البحرية ضد المسلمين والقراصنة. وكانت هناك عائلات ثرية معدودة تدير شئون المدينة. ومن الناحية القانونية، كان الامبراطور هو سيدهم، بيد أنه كان يفتقر إلى الوسائل التى تمكنه من التدخل في شئونهم. كما أنهم دفعوا بأسقف المدينة إلى مركز متواضع بحيث أصبح عامل مساعدة أكثر منه عقبة في سبيلهم، ومنذ وقت مبكر تطورت أساليب الأعمال التجارية من حيث الحسابات، والاستثمارات المشتركة، والتأمين ضد أخطار الملاحة في أعالى البحار. وإذا كان ينبغى على التاجر ومن يعملون في خدمته أن يكونوا متعلمين.

كذلك كانت حكومة المدينة تتطلب أن يكون المرء متعلما. إذ كان التجار من أبناء أغنى العلائلات يعملون كمستشارين، ويذهبون في سفارات لدى القوى الأجنبية المعاصرة. وكان كفارو Caffaro، أول كتاب الحوليات الجنويين، رجلا متعلما وسليلا لأسرة حاكمة، أى أنه ولد في أوساط السلطة الادارية. كما أنه ساهم بنصيبه في معترك السياسة والحرب. ويقارنه الناشر الذي تولى نشر مؤلفاته بيوليوس قيصر؛ إذ أنه لم يكتب التاريخ فحسب، وإنما شارك في صنعه أيضا. ففي سن العشرين ذهب في حملة صليبية برفقة البعثة الجنوية إلى فلسطين،حيث حارب في معارك الحصار وزار المدينة المقدسة. وتبدأ حوليته بسنة ١٩٩٩، وهو اختيار واع، لأن هذه السنة كانت بداية لمرحلة جديدة في تاريخ المدينة، فقد تشكلت أول حكومة قومونية، كما اقلعت منها حملة بحرية كبيرة بشكل لم يسبق له مثيل. وقدم كفارو حوليته إلى مستشارى ومجلس جنوا سنة ٢١٥١، وحرص على أن تكون مواكبة للأحداث المعاصرة. فأمروا بنسخها على حساب المدينة، لأن هذه الحولية سوف تحكى للجنويين عما حققته مدينتهم من انتصارات حتى أخر الزمان. وظل يدون حوادث حوليته حتى مات سنة ١٦٦١ وهو في سن الثمانين.

وهذه الحولية مكتوبة بلغة واضحة خالية من الزخارف والمحسنات البديعية المصطنعة. وكاتب الحولية لا يتواضع، بل يذكر تجربته الخاصة كما يذكر أنه استطاع الوصول إلى محفوظات المدينة. وحين لا تكون هناك ضرورة تحتم ذلك، يمدنا بالتفاصيل الدقيقة عن مالية المدينة، ومقاييس المبانى، وعدد السفن التى خرجت للغزو. كما يقدم لنا تقريرا غير مسبوق عن المجالس الامبراطورية والبابوية. كان هدفه تمحيد جنوا، ولذا فإنه يعترف أنه يمر على فترات الضعف في تاريخها مر الكرام.

إن روح جنوا، المدينة الصغيرة، هي التي رفرفرت على البحر المتوسط بأسره. وتكشف أفكاره السياسية عن تلك النظرة العملية التي ميزت المدن - الدول الأيطالية. وهو يعالج الصراع بين البابا والامبراطور معالجة بارعة. فقد استطاعت جنوا أن تكسب من كل من الطرفين. إذ كان فريدريك الأول بحاجة إلى المال لتمويل حملاته في إيطاليا، ولذا فإنه عرض امتيازات المدن للبيع. وتلقى الجنويون امتيازات امبراطورية خاصة، رغم أن كفارو يتغاضى عن أنهم قد اضطروا إلى دفع مبالغ طائلة. وقد اقام البابااسكندر الثالث في جنوا حين أرغمه النزاع مع فريدريك على الهرب إلى فرنسا، وكان الميناء هو طريقه إلى الهرب، وإذا فإنه بذل وعدا خاصا لمواطني الميناء. واكتفى كفارو بأن يكتب في حوليته عن أن روح الشر هي التي أشارت الخلاف في الكنيسة، ولم يزد على ذلك. ولم يذكر ما كان يعرفه من أن البابوية كانت تـرى أن فريدريك منشق يستحق لعنة الحرمان لأنه منح الامتيازات لجنوا. ولماذا تنحاز إذا كان بمقدروك أن تلعب على الحبلين؟ إن هذا السؤال يعبر عن موقف الجنوية الانتهازى. فقد كان البيازنة هم أعداء جنوا الحقيقيين، لأنهم كانوا أهم منافسيها البحريين. وكان يكرههم أكثرمن كراهيته للمسلمين الذين كانت قوتهم البحرية قد تدهورت. اما الأعداء داخل الوطن، فكانوا نبلاء الريف الذين شكلوا خطرا ماشلا يتهدد السلام، فقد كانوا بطبيعة الحال معادين للمجتمع التجارى. ولم يكن ثمة ما يدفعه إلى معاداة رجال الكنيسة، فقد قلمت أنياب الاكليـروس بحيث لم يعودوا يشكلون أي خطر، إلا أن عقليته العلمانية تتضبح من خلال روايته عن احدى حوادث الحريق الخطيرة. ولابد لأى مؤرخ ديرى أن يسرجع فضل السيطرة على النيران وإخمادها إلى القوى الاعجازية للقديسين المحليين، ولكن كفارو يمتدح المواطنين الذين اطفاوها بجهودهم الذاتية.

ويشترك كفارو مع جالبرت بشكل عام ف أن روح العصبية Esprit de corps أو الولاء للجماعة تميز كلا منهما. إذ أن كلا منهما قد ربط نفسه بمدينته، وكان هذا موقف جالبرت إبان حوادث الاقتتال الدموية وظروف البؤس التي حاقت ببروج نتيجة الحروب الأهلية، كما فعل كفارو الشيء نفسه أثناء تألق جنوا وصعودها إلى مركز القوة. وبالنسبة لجالبرت كانت بروج هي «مدينتي سواء كانت على صواب أم خطأ»، ضاربا عرض الحائط بمقاييس الصواب والخطأ. أما كفارو فلا يكاد يشعر بوجود هذه المقاييس الاخلاقية إذا كان الأمر يتعلق بمصالح جنوا.

ويعود بنا حنا السالسبوري John of Salisbury إلى الأوساط الكنسية المتعلمة. فقد

كان مديرا اكاديميا في سلك الكنيسة. واتاحت له السنوات الطوال التي قضاها دارسا بفرنسا فرصة لقاء افضل اساتذة العصر. وفي سنة ١١٤٧ انضم إلى بيت تيوبالد كبير اساقفة كانتربوري Theobald of Canterbury وقد برهن حنا على أنه كاتب خطابات حاذق، ثم ترقى حتى صار السكرتير الخاص لتيوبالد. وهو يـوصف بأنـه اكاديمي فاشل. وربما كان يفضل أن يقوم بالقاء الدروس في المدارس لو أنه كان قد نجح في ايجاد وظيفة لنفسه وفي ايجاد مصدر يتعيش منه أيضا. بيد أن وظيفته كسكرتـير اتاحت له من وقت الفراغ ما استغله في القراءة والكتابة من جهة، كما وفرت له النقود اللازمة لشراء الكتب من جهة أخرى، رغم أن ذلك لم يكن كافيا لارضائه على الاطلاق. وسافر أيضا الى خارج البلاد في مهام دبلوماسية، حيث قابل أساتذة لامعين وطلابا ودارسين. كما كان يخالط الأمراء، والكرادلة، والبابوات دون أدنى قيود.

ومن بين كتابات حنا العديدة لايوجد سوى مؤلف تاريخى واحد بالمعنى الدقيق للكلمة. وجعل عنوانه «تاريخ البابوات» Historia Pontificalis وقد ترجم الى «تاريخ البلاط البابوى» في مرحلة لاحقة. وكان حنا يطمح الى كتابة تاريخ كنسى على النسق الذى اتخذه أيوسبيوس. وقد قرا ما اتيح له من كتب التاريخ فوجد أن أحدا لم يعالج الاحداث التى وقعت بعد مجمع رمس سنة ١١٤٨. ومن ثم فقد اتخذ من هذا المجمع بداية له، وقدم من التفاصيل الكاملة عنه ما لم يقدمه عن مصادره، ذلك انه حضر هذا المجمع بنفسه مع كبير الأساقفة. وقد اختار البلاط البابوى ليكون البؤرة التى يتركز كتابه حولها. وكانت هذه طريقة عقلانية عولج بها تاريخ الكنيسة في منتصف القرن الثانى عشر حين كانت حكومة البابوية كالتوية المريقها لأن تصبح مركز الحكم في الثانى عشر حين كانت حكومة البابوية كانت كل الطرق انذاك تؤدى إلى روما؛ أى حيث العالم المسيحى اللاتيني بأسره. لقد كانت كل الطرق انذاك تؤدى إلى روما؛ أى حيث التبعية مع روما. ومذكراته كما وصلتنا تتوقف عند سنة ١١٥٧. وربما يكون قد ظل المسيقية، ثم أرغمه النزاع الذى نشب بين بيكيت وهنرى الثانى على اللجوء إلى فرنسا. وقد اتاح له النفى فرصا أوسع للكتابة.

وكتاب Historia Pontificalis عبارة عن مذكرات عالم دبلوماسى، يستعيد تجاربه من الذاكرة ويسجلها، وقد استطاع حنا من خلال أصدقائه من ذوى المناصب الرفيعة أن يحتفظ بقصب السبق في الحصول على الأنباء، والكتاب خال من اللغو والزخارف البلاغية. إذ تبدو الخطب التي حواها الكتاب كما لو كانت تقارير حرفية منقولة عن الذاكرة أومأخوذة من مذكرات دونت قبل ذلك مباشرة، وتوفرت لحنا فرصة القراءة الجيدة بسبب حرصه وحذقه، فهو ينتقد كل شخص تقريبا، فيما عدا تيوبالد، كما أنه

يروى النوادر والفكاهات. وكان له انحيازه: ولكن، من من الدبلوماسيين لا ينحاز؟ لقد كان حنا مواليا للفرنسيين وعدوا للألمان. ولأنه كان رجل كنيسة لاغبار عليه، ويكتب من أجل صديق يتوافق معه فكريا هو «بطرس دى لاسل» Peter de La celle فانه لم يشعر بحرج وهو يطلق أحكامه القاسية على البابا والكرادلة. وقد أتاحت له الزيارة التي قام بها مبعوثان بابويان اللانيا فرصة عظيمة للنيل من المبعوثين ومن الألمان على حد سواء. وعلى أية حال، فانه حاول جاهدا أن يتوخى العدل، ويبرز من ثنايا روايته عن هجمع ريمس مايتميز به من عدل وكياسة في عرض موضوعه. وقد استحقت روايته هذه، ما اشتهرت به من أنها جهد مدقق في عرض كل من طرفي النزاع. ويصف حنا محاكمة استاذه السابق «جلبرت دي لابوريه» ـ الذي كان اسقف بواتبيه في ذلك الحين ... بتهمة الهرطقة التي وجهها اليه «سان برنار من كليرفو» وكان حنا معجبا بجلبرت كرجل وكعالم، كما كان يبجل سان برنار كقديس. فضلا عن أن برنار كتب تزكية لحنا دون أن يراه، حين ترك المدرسة وأخذ يبحث عن وظيفة. كما كانت ثمة التـزامات شخصية لحنا تجاه برنار الذي أبدى ثقته به حين أوفده كرسول الى جليرت بعد محاكمة الأخير. كان برنار يرى في جلبرت مصدر خطر بما يلقيه من دروس الباطل، بينما كان جلبرت يعتبره مجرد هاوى ودخيل على الحياة الأكاديمية. وبذل حنا اقصى ما في طاقته من أجلهما. إذ يوضح ان كليهما كان حسن النية، وهو يتعاطف مع جلبرت كرجل عقلاني مثقف، ولكنه يحترم دوافع برنار باعتبارها «غيرة على بيت الرب». وروايته عن اجراءات المحاكمة، وعن تهم الهرطقة التي وجهت إلى جليرت، رواية تتسم بالحذر رغم انه اعتمد فيها على الذاكرة. وقد تمكن من معرفة جميع الأسرار بفضل ما كان يحاك من دسائس في الخفاء، وبفضل تشابك المصالح الذاتية. ودائما ما تجذبنا المذكرات الى قراءتها إذا ما كنا نعرف شبيئا عن الأشخاص الذين تدور القصة حولهم. ورغم أن اصدقاء حنا ـ وعلاقاته بهم وبغيرهم ـ يحتلون مكانهم في مصادر أخرى معاصرة، فانهم لايظهرون بهذه الحيوية سوى في كتابه.

لقد عمل مؤرخو الخدمة المدنية زمنا طويلا في خدمة الحكومات البلدية والكنسية. ففي انجلترا، شهد عهد هنرى الثاني (١١٥٤ – ١١٨٩). نمو ما يشبه الأداة الحكومية الحديثة. وكان موظفو هنرى موظفين ملكيين أولا وأخرا، ولكن أرقاهم تعليما كانوا يؤمنون بأنهم موظفون عموميون أيضا. وأضاف هنرى الى تقاليد الحكم الروماني القديمة مفهوما جديدا. إذ كان الامبراطور الروماني يمسك بزمام السلطة العامة من أجل الصالح العام eutilitas republicae على الأفراد أن يتخلوا عن مصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام. كما كانت المؤلفات التاريخية التي دونت في العصور الوسطى الباكرة تصور الملك في صورة القائد الحربي، وعادة ما كان رجال

الكنيسة يقيمون حكمهم عليه على أساس ما فعله لحماية الكنيسة. ولكن المفهوم القديم القائل بأن «السلطة العامة» حق خاص بالحاكم وحده ظل راسخا في وجدان تلك العصبور، وهذا المفهوم هو الخلفية التي بني عليها «ريشر» ادعاءه بأن هوف كابيه «رسي القوانين واصدر التشريعات» وذلك أن ريتشر جعل أعمال الملك تتواءم مع افكاره عما يجب على الحاكم أن يفعله.

والحقيقة ان هنرى الشانى كان يعقد الجلسات القضائية، التى تصدر عنها المراسيم الادارية والقانونية، كما أنه اصلح الاجراءات القضائية. وكان لاصلاحاته هدف مزدوج. فقد ملأت خزانته بالمال، كما شددت من قبضته على مملكته، وفي الوقت نفسه أفادت اصلاحاته ملاك الأراضى بأن وفرت لهم اجراءات قضائية أكثر سرعة وعدلا. واستفاد ملاك الأراضى من اصلاحات هنرى، كما أن الملك أبدى اهتماما شخصيا بتحسين حكومته وتطويرها. فأحاط نفسه بالخبراء القانونيين الذين أفاد من مشورتهم في صياغة مشروعاته.

وكان الموظفون المدنيون يولون اهتماما خاصا بالبناء والتشييد، وكان هناك ما يدعو موظفى هنرى إلى الفخربه، فقد أعجبوا بما قام به من اصلاحات، كما أنهم شاركوا ف ابتكار الأساليب الجديدة وساهموا في الاشراف على تطبيقها. ولذا فقد كتبت عدة أبحاث فنية عن الحكومة منها «الحوار بين وزراء المالية» و «في قوانين انجلترا» على سبيل المثال، وثمة نموذج طيب للمؤلفات التاريخية التي يكتبها موظفون احيلوا إلى الاستيداع، تلكم هي مدونة روجر الهاودني Roger of Hawden.

واكتسب روجر لقبه من بيت القسيس الذي كان يعيش به في يوركشير. وكان يحمل لقب «استاذ» وفي ذلك الوقت كانت الدرجات العلمية قد بدأت تصبح بمثابة جواز المرور إلى وظائف الخدمة المدنية. ودخل في خدمة هنري حوالي سنة ١١٧٤. وقد أتاح له عمله هذا سبيل التعرف على الجوانب العابسة والمشرقة في الجهاز البيروقراطي للأسرة الأنجوية (٢). وخدم روجر فترة متصلة ما بين عامي ١١٨٥ و ١١٩٠ في وظيفة قاضي الغابة. وكان قضاة الغابات هؤلاء يجوبون أنحاء البلاد لعقد محاكم الغابات حيث يصدرون أحكامهم على من يمارس الصيد في الغابات دون تصريح، أو غير ذلك من المخالفات التي تنتهك قانون الغابة. وكانت قوانين الغابة هي أكثر جوانب الحكم الانجوى ارهاقا للناس، وأقلها مدعاة لرضاهم. ثم استقال روجر من وظيفته لكي يذهب في صحبة عدد قليل من أهل الشمال للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة.

⁽٣) نسبة إلى اسرة انجو Angouوهم الملوك الانجليز من هنرى حتى ريتشارد الثانى (المترجم)

عندما عاد للوطن سنة ۱۱۹۱ استقر في هاودن لكي يؤلف كتابه. وكانت وفاته سنة //۱۲۰۲.

ويسمى كتابه «مدونة Chronicle». ولم يكن روجر يقصد أن يكتب تاريخا تزينه لزخارف الأدبية، كما أنه لم يحفل بالتحليلات السببية. وأهم ما يسترعى النظر في لدونة أن روجر أفرد مساحة كبيرة فيها للكلام عن اجراءات الحكومة، وسجل الوثائق باعتبارها أدلة على ما يقول، كما أوضح تفاصيل الحياة الادارية بما سلطه عليها من اضواء معلوماته الخاصة. وكان ذلك نمطا جديدا في التوثيق. إذ كان أيوسيبيوس قد غيمن كتابه الوثائق لكي يبرهن على أن الكنيسة انتصرت على مضطهديها وانتزعت منهم الاعتراف بوجودها. كما فعل المؤرخون الديريون الشيء نفسه فيما يختص جماعاتهم. كذلك قام برونو بتوثيق كتابه «حرب السكسون» لكى يبرىء ساحة السكسون. أما روجر، فقد أراد أن يحتفظ لهنرى بمكانته كمصلح يستحق الاعجاب، بيد أننا نلاحظ مدى المتعة التي يصف بها كيفية أداء الحكومة الملكية لعملها. إذ كان يحترم طاقة هنرى وقدرته على ابتكار الوسائل الاصلاحية، كما لفت نظره اهتمام هنري بارساء العدالة: فهو يذكر أن الملك قد عارض قرارا اتخذه كبير القضاة لأنه كان يعلم أن الأخير طرف في خصومة شخصية مع المدعى عليه. كذلك كانت لروجر نظرة سديدة فيما يتعلق بالشئون الخارجية. كما كان يفهم دور المال، فقد ذكر أن حملة الأمير جون إلى ايرلندا قد فشلت لأنه كان مقترا في الدفع للجنود والمرتزقة الـذين استخدمهم. وتكشف لنا قراءة المدونة عن أن روجر كانت له عيوبه، فهو لا يتوقف للتأمل والتفكير فيما يكتبه، كما أن عدم الاتساق ف كتابته لم يكن ليزعجه من قريب أو بعيد. كذلك كان ذهنه مشوشا فقد كان ينتقل من جانب إلى آخر وهو يروى قصة النزاع، لأنه كان مواليا لكل من بيكيت وهنرى على حد سواء. أما مبادئه الدائمة أو تحيزه _ فكانت ضد كبير الأساقفة، والمبعوثين البابويين الذين كان يكرههم من جهة، وكان ولاؤه لهنرى الذى وقف بجانبه مؤيدا اياه ضد المتمردين والأعداء الأجانب من جهة اخرى. والحقيقة أنه كان محصورا بالحدود التي كان يقبع داخلها باعتباره اداريا من الدرجة الثانية.

أما الأستاذ رالف الديسى Ralph of Diss في نورفولك، فكان أعلى قدرا من روجر الهاودنى ومن أى مثقف آخر. فقد درس الآداب واللاهوت، وربما كان يقوم بالتدريس في باريس أيضا. وشق طريقه في الحياة العملية في كنيسة سان بول St. Paul للكاتدرائية بلندن حيث تولى عدة مناصب مختلفة حتى وصل إلى منصب عميد الكاتدرائية سنة ١١٨٠، ويعد رالف «موظفا مدنيا دبلوماسيا »، وقد استخدمه الملوك الأنجويين في البعثات والسفارات التي كانوا يوفدونها إلى الحكام المعاصرين باعتباره

خبيرا له مكانته في المسائل القانونية والادارية. وقد جعله منصبه كعميد مسئولا عن رعاية شئون الضياع الكاتدرائية، كما تميز بكفاءته الادارية التي لانظير لها أثناء رئاسته لكاتدرائية سان بول بلندن. وتصفه المراسيم الكنسية بأن «العميد الطيب». أما أعمال رالف ومؤلفاته التاريخية فتضم مدونة عالمية قصيرة هي «مختصر المدونات التاريخية وتصلى المدونات التاريخية عصل بحوادثها إلى سنة ١١٤٧، التي تصل بحوادثها إلى سنة ١١٤٧، وكتاب أكبر حجما عنوانه «صور من تأملات التواريخ». ويبدأ هذا الكتاب بتنصيب هنري فارسا في سنة ١١٤٨ ويستمر حتى سنة وفاة المؤلف. وقد أعد رالف لهذا الكتاب ملفا كبيرا جمع فيه مادة الكتاب على مدى سنين عديدة. وفرغ من مسودته الأولى سنة ١١٩٠. وقد كتب رالف «صور التاريخ» على شكل حولية. وفيه يركز على انجلترا. وإن كان يورد بعض الملاحظات على الشئون الخارجية. ويكتب رالف عن انجلترا. وإن كان يورد بعض الملاحظات على الشئون الخارجية. ويكتب رالف عن نفسه حين يعرض للأحداث التي شارك فيها بنفسه. إذ أنه كان من الأهمية بحيث لم يكن بحاجة إلى أن يقحم نفسه في سياق ما يكتبه. وإذا كان ثمة ضعف يشوبه، فهو أنه يدون نسخا من الخطابات التي كتبها لأصدقائه يسدى إليهم النصح والمشورة، إلا أن مشورته ونصائحه كانت مرغوبة آنذاك. إذ كان الناس يستشيرون العميد باعتباره رجلا ناضح العقل.

كان مفهوم «السلطة العامة» نبراسه فيما كتبه عن الحكومة الملكية. لقد وصف روجر الهاودنى كيف وضع هذا المفهوم موضع الممارسة الفعلية، أما رالف فقد ربط بين النظرية والممارسة الفعلية. ونسخ فى كتابه ما أصدره هنرى الثانى من أحكام، كما نسخ سجلات جمع الضرائب، وقوانين الغابة، وما إلى ذلك فى حوليته مدفوعا بحرارة رضاه وموافقته على ما يحدث من تطورات. ومن هذا كله يظهر لنا كيف استخدم هنرى سلطته العامة فى صالح المجموع. ولم تكن هناك سلطة عامة تحفظ السلام فى أيرلندا قبل أن يغزوها هنرى الثانى، الذى كان يرى أن السلطة العامة ينبغى أن تجب الممالح الخاصة. وثمة فقرة كتبها رالف فى حوادث ١١٧٩ نقتبسها فيما يلى:

«كان الملك يريد مساعدة أولئك الرعايا الذين لا يمكنهم حتى مساعدة أنفسهم، لأنه اكتشف أن العمد يستخدمون السلطة العامة لتحقيق مصالحهم الخاصة. ومن ثم فإن الملك، في غمرة غيرته المتزايدة على الصالح العام، أوكل الحقوق القضائية إلى رجال آخرين مخلصين من رعاياه، وذلك حتى يتسنى لممثلى السلطة العامة أن يرهبوا المقصرين والجانحين عن سواء السبيل عند زيارتهم للقاطعات.. وأولئك المذنبون الذين اخطاؤا في حق الجلالة الملكية لابد وأن يجلبوا على أنفسهم الغضب الملكي..»

ويستمر رالف فى كلامه فيحدد الإجراءات التى اتخذها هنرى فى سبيل الحد من سلطات العمد فى الحكومة المحلية، وذلك بإرسال القضاة الملكيين الدوريين إلى أنحاء البلاد. كما يركز على اهتمام هنرى بإرساء قواعد العدالة فى جميع أنحاء مملكته وتجاربه فى السيطرة على مندوبيه. وكان يأمل فى أن يستخدم هنرى سلطاته العامة لحماية الضعيف فى مواجهة القوى أما عن المدى الذى ذهب إليه هنرى فى سبيل تحقيق ذلك، فهناك مسألة أخرى، ذلك أنه من بين الملوك الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى كتاب «الصور». نجد أن رالف يفضل هنرى لأن الأخير أبدى مهارة أكبر فى تسيير سفينة الحكم، ويأتى ريتشارد الأول فى مرتبة أدنى رغم مآثره العسكرية وبطولاته. أما جون فقد لطخ تاريخه حقا حين تمرد على أبيه وأخيه الأكبر عندما كان مايزال

ويمكن لمفهوم السلطة العامة التى تستخدم للصالح العام ان يقودنا إلى مفهوم الدولة القومية. ومن المهم أن نرى ما إذا كان رالف الديسى قد سار خطوة انتقل بها من مفهوم إلى آخر، أو ما إذا كان لديه أى تصور لانجلترا كوطن قومى. فحين وصف رالف إحدى حركات التمرد أو العصيان نجده يركز على وجوب طاعة المرء لسيده وولى أمره وإخلاصه له. باعتبار أن هذا هو المقياس الذى نحكم به عليه. وهو لا يلوم المتمردين باعتبارهم خونة لوطنهم. ويتركز ولاؤه لبيت أنجو الحاكم على نحو يجعله أكبر من ولائه لانجلترا التى لم تكن سوى جزء من أملاكهم. فقد ولد الأنجويون لأباء مختلطى الجنسية ما بين نورمان، وانجويين. وفرنسيين، وكانت أملاكهم الفرنسية تمتد من القنال الانجليزى حتى جبال البرينيس. وعلى أية حال كان رالف متحيزا ضد الشعوب التى تعيش خارج حدود فرنسا، فعلى هذه الحدود كانت تعيش شعوب غير متحضرة مثل السكسون بقلوبهم المتحجرة، والنمساويين بعاداتهم القذرة، بينما كانت معلية تنجب الطغاة. والواقع أن مشاعر كراهية الأجانب عبرت عن نفسها بصيغة ما قبل أن يفرض ما نسميه «الشعور القومى» نفسه على الوجود، وقد تركت كراهية الأجانب هذه بصماتها على التدوين التاريخي.

وثمة سؤال ثان يطرح نفسه، كيف أثرت فكرة رالف عن السلطة العامة التى تمثلها الملكية على عرضه للصراع الذى نشب بين مليكه من ناحية وكبير الاساقفة الذى يتبعه رالف من ناحية أخرى؟ إن النزاع بين هنرى وتوماس بيكيت قد أبرز مشكلة العلاقة بين «السلطتين» وهى المشكلة التى تميز بها الفكر السياسى فى العصور الوسطى، أى السلطة الملكية megnum والسلطة الكنسية (المقدسة) Sacerdotium، وباعتباره عميدا لكاتدرائية سان بول عاش رالف فترة الصراع بمهارة محتفظا بعلاقاته مع كلا الجانبين. فرغم أن رالف بقى بانجلترا وكانت علاقته بهنرى وجلبرت فوليوت Gilbert

Foliot الذي كان أكبر معارضي بيكيت بين الأساقفة _ علاقة ممتازة، فإن كبير الأساقفة المنفي (بيكيت) وأنصاره كانوا يعتبرونه صديقا مخلصا، ذلك أنه لم يتخل قط عن ولائه للكنيسة. وكان أهون عليه أن يشق طريقه خلال الصراع من أن يروى قصة هذا الصراع دون أن يعبر عن رأيه صراحة. إذ أن رالف كان يعمل لحساب مؤسستين، الكنيسة والتاج. وكانتنا تتعاونان خفية طوال الوقت، ولكنهمنا كانتنا تتصادمان أحيانا في العلن. وفي ذلك الوقت _ كما هو الصال الآن _ كانت لأخبار الصراع قيمة أكبر من أخبار الوفاق. وألفي رالف نفسه في مأزق، فلم يكن قادرا على حذف الأحداث التي أدت إلى مصرع بيكيت، الذي اعتبرته الكنيسة شهيدا وقديسنا، كما أنه لم يكن قادرا على أن يلوم القديس توماس لأنه مات مدافعا عن حرية الكنيسة في انجلترا. ومن ناحية أخرى، فإنه لم يكن يستطيع أن يوافق على محاولات بيكيت التي اعتبرها بمثابة محاولات للتخريب والعدوان على حكومة هنرى الثاني التي كان واحدا من المعجبين بها.

ولكى نبدا بنقطة ثانوية في المسألة نقول: إن القانون الكنسى كان يحرم على رجال الكنيسة تولى الوظائف العلمانية لأسباب اخلاقية وقانونية. فالواجب على رجال الكنيسة المخلصين أن يكرسوا أنفسهم للعناية بالرعية المسيحية. كما أن القانون الكنيسة المخلصين أن يكرسوا أنفسهم للعناية بالرعية المسيحية. كما أن القانون الكنيسى كان يمنعهم من المشاركة في أية وظيفة تتصل بسفك الدماء، على حين أن الوظائف المدنية تتضمن إصدار الأحكام وتنفيذها بالاعدام أو ببتر عضو من جسد من يدان بارتكاب جريمة. كذلك فإنه لم يكن يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يتعود على حياة القلاع أو ينغمس في الحياة العسكرية. بيد أن الملوك كانوا يكافئون قساوستهم بمنحهم الأسقفيات كوسيلة لتمويل الحكومة الملكية من دخل الكنيسة، وتغذية الادارة الملكية بالمواهب. وكان تطبيق القانون بدقة أنذاك، يعنى سحب جميع العقول العاملة في مجال الخدمة المدنية. وكان رالف يرى أن جهاز الخدمة المدنية قد أنشئ من أجل الصالح العام، رغم أن ممارسة هذه الخدمة المدنية يتعارض مع القانون الكنسي، وين شرددا في مسألة المبادئ. وعلى العموم، ويتضم من كتاباته أنه لم يكن ثابتا بل كان مترددا في مسألة المبادئ. وعلى العموم، الأذن بذلك من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من رؤسائه الكنسية في الوظائف إلا بين الآونة والأخرى.

وتقودنا المسألة الثانوية إلى المسألة الأكثر أهمية. إذ كان بيكيت يصر على الالتزام بحرفية القانون الكنسى. وحين صار كبيرا للأساقفة، تخلى عن منصبه كقاض للقضاة الملكيين. ثم جاء صدامه مع هنرى حول مسألة الامتيازات والحريات الكنسية بشكل عام، وأعقب ذلك نفيه ثم مصرعه. وكان ضريحه في كانتربوري مزارا يقصده الناس

ولابد أن الطريقة الكارزمية (التى تركز على البطل) فى عرض الصراع قد عبرت عن نفسها فى استخدام الظلال الرمادية بدلا من الأسود والأبيض. وربما يكون رالف قد التزم بفكرة أن كلا من طرف النزاع «كان محقا فى ناحية، ومخطئا فى ناحية ». وكان ذلك بمثابة الضريبة التى يدفعها الكاتب المعاصر للأحداث، فربما يسىء إلى الجميع. ومع ذلك فإن رالف كان أكثر تأملا وتفكيرا من روجر الهاودنى، الذى انسحب من بين الأحداث التى سجلها دون أن يعلق على الآراء المتضاربة. وإذ لم يكن بوسع رالف الديسى أن يدين نفسه بعدم الاتساق، فإنه وجد لنفسه مخرجا بأن ابتكر طريقة ترتيب الأحداث.

فقد قسم مادته إلى أعمدة صحفية متوازية، يحوى أحدها ما نسميه الآن «تاريخا سياسيا » أى اعمال الملوك. بينما يضم الآخر سجلات المعارك، على حين يحتوى عمود غيرهما على التاريخ الكنسى، أى تتابع البابوات على الكرسى الرسولى وولايات الأساقفة والمجامع الكنسية. إلا أن رالف يضع عمودا أخر يختص بالصراع بين السلطة العلمانية والسلطة الكنسية. وابتكر علامات خاصة يضعها في الهوامش لتميز كل ملاحظة في فلعركة على سبيل المثال، يؤشر أمامها بسيوف متقاطعة. وهو يشرح منهجه في مقدمته، ويستخدم هذا المنهج في كتابيه. أما ميزة الترتيب الذي اختاره لكتابه، فتتمثل في أن التقارب جعل الجمع بين عناصر الكتاب، أو الحكم على ما تضمنه أمرا غير ضرورى. إذ كان من المكن تسجيل كل حادثة في موضعها. كما كان من المكن رواية أحداث الصراع دونما تحيز إلى جانب أحد المتنازعين.

لقد استخدم المؤرخون السابقون الأعمدة المتوازية لتدوين التاريخ الوثنى والتاريخ المسيحى بجانب بعضهما، إلا أن رالف مضى خطوة أبعد فسجل حوادث التاريخ المسيحى بجانب بعضها البعض، مع الحفاظ على انفصال جوانبها المختلفة وربما كانت لديه سوابق أخرى استفاد منها، ولكنها لم تصلنا. وربما تكون مأخوذة عن مقتبسات الكتاب السابقين، وقد نسخها رالف لتكون مقدمة لمؤلفاته التاريخية. ولدينا مثال يرجح ذلك هو ما كتبه هوف راهب سان فيكتور ناصحا الطلاب بأن يبقوا على الأنماط المختلفة من المعارف منفصلة، «فانت تضيع وقتك وترهق عقلك إذا ما خلطتهم». وهو يضرب المثل بصيارفة باريس الذين يحتفظون بأنصاط العملات المختلفة في أكياس مقسمة إلى أقسام، وهذه التقسيمات اليدوية تساعدهم على تغير العملة بسرعة وسهولة تجعل الناس المحيطين بهم يشهقون تعجبا وهم يرون أنواعا عدة من العملات تخرج من الكيس نفسه. ولابد أن رالف قد وجد في هذا المثال ما يروقه، ذلك أنه كان خبيرا ماليا، وربما يكون قد فكر في النصيحة التي أسداها

هوف إلى الدارسين بأن يحتفظوا بملفاتهم منظمة مرتبة، ويعدلوها بحيث تتخذ شكل الكتابة التاريخية.

ولاشك أن رالف الديسى قد تنبأ بقدر كبير من شكل الكتابة التاريخية الحديثة. إذ تحول الكثير من التدوين التاريخي الحديث إلى تنظيم وترتيب. فنحن نحتفظ بمعلوماتنا في قطع ورقية منفصلة (البطاقات)، ذلك أن المنهج يعنى توفير الوقت والتفكير. ولهذا فوائده المسلم بها، بيد أننا نسئ استخدام المنهج إذا ما جعلناه غاية في حد ذاته، وليس هناك ما يجعلنا نقلد رالف، ولكننا يمكن أن نتعاطف معه وهو يبحث عن حل يخرجه من ورطته.

الفصل التاسع

الغزو والحروب الصليبية

لا يشعر غالبية الناس اليوم بالارتياح تجاه الحروب الصليبية التى يرون فيها أحد الملامح العابسة للتاريخ الوسيط. اذ أن الانسانية قد خاضت حروبا كثيرة لا سيما من ذلك النمط المسمى بالحروب الايديولوجية. وقد كان الصليبيون متعصبين متعطشين للدماء. والأسوأ من هذا ان بعضهم كان انتهازيا بحيث استغلوا الحروب المقدسة لتحقيق مآرب غير مقدسة. ويجدر بنا أن نصل اليهم بخيالنا التاريخي لكي نتفهم عقلياتهم.

وثمة تحيز آخر اكثر سوءا ضد الحروب الصليبية ينبع من ميلنا الى الحكم على أية حركة من خلال ما حققته من نجاح. فمن المكن أن تكتب قصة الحروب الصليبية باعتبارها قصة الاخفاق والفشل الذي كتب على هذه الحروب منذ البداية. وإنه لسجل مؤسف حقا، فقد فشل اللاتين في تأسيس مملكة دائمة في فلسطين، كما استعاد صلاح الدين مدينة القدس سنة ١١٨٧، ثم تقلصت الملكة اللاتينية التي قامت مكان الامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦٠. وعلى اية حال، فان موقفنا المتحيز ضد الحروب الصليبية سوفي يضعف اذا ما فكرنا في هذه الحملات باعتبارها أكثر الحملات التي جردت لتوسيع رقعة العالم المسيحي شمولا وبعدا. والواقع ان بعض هذه الحملات كان ناجحا للغاية. اذ تمت استعادة أسبانيا من المسلمين بعد جهد متواصل، ذلك ان الفرسان الفرنسيين عبروا جبال البرانس لمساعدة المسيحيين الاسبان واستقروا في شبه جزيرة ايبريا. وعلى الحدود الشرقية لألمانيا، ثم اخضاع السلاف القاطنين فيما بين نهر الالب ونهر الادور وتحويلهم الى المسيحية.

فقد جردت الحملات الصليبية لأغراض أخرى غير الحرب ضد المسلمين. اذ حولها البابوات لتكون حروبا ضد الهراطقة ايضا. فقد جاء الصليبيون من شمال فرنسا الى جنوبها لكى يقاتلوا ضد الهراطقة الألبيجنسيين^(۱)، ونجحوا ف هزيمة نبلاء الجنوب

⁽۱) منذ نهاية القرن الحادى عشر بدأت بوادر المقاومة للسيطرة الكنسية على شئون الفكر والحياة الأوربية. وعند نهاية القرن الثانى عشر ذاعت الافكار التى اخذ يواقيم الفلورى Joachim of Flora يدعو لها، وقد لاقت افكاره الأخروية الذيوع بسرعة ملحوظة. وقد سار يواقيم على نهيج سان برنار الدى زعم ان العالم قد دخل عصر المسيح الدجال الذى يسبق قيام القيامة. وعلى حين = 174

يجب استئصاله بأي ثمن.

.....

"الكتفى سان برنار بادانة كبار الاساقفة على اعتبار انهم اسرى الشيطان، فان يواقيم جعل البابوية نفسها هي المسيح الدجال. وقد قلب هذا المذهب الثورى نظرية وراثة البابا للمسيح رأسا على عقب، وحاز شعبية واسعة لدى جميع الفرق المخالفة بما في ذلك قادة البروتستانت في القرن السادس عشر. ونتج عن افكار يواقيم ذات الصبغة الثنوية ان ظهرت جماعة هرطقية جمعت حولها عددا ضخما من الاتباع في جنوب فرنسا: اولئك هم الكاتاريون Cztharı (اى الاطهار، او القديسون)، او الالبيجنسيون (نسبة الى بلدة البي الله في تولوز والتي كانت معقلا لهم)، واحيانا تعرف هذه الفرقة باسم مانوية العصور الوسطى. واصول هذه الفرقة او تعاليمها الدقيقة ليست معروفة لنا على نحو اكيد، وذلك لأن معلوماتنا عن هذه الفرقة. التي كانت اكثر فرق الهراطقة شهرة في القرن الثالث عشر، مستمدة من الاوصاف التي اطلقها عليهم اعداؤهم ومن سجلات المحاكم الكنسية التي حاكمتهم وادانتهم. والحقيقة الاساسية هي انه عند نهاية القرن الثاني عشر كان سكان المدن الأثرياء، ونبلاء تولوز وبروفانس إما اعضاء في الكنيسة الالبيجنسية واما من المتعاطفين مع قادتها ذوى الصفات القدسية، ومن هؤلاء المتعاطفين كان كونت تولوز واسرته على ما يرجح، وبالنظر الى ثروة جنوب فرنسا وحيويته الحضارية "فقد ظل الجنوب محتفظا بطابعه الروماني وتراثه اللاتيني فان الحركة الالبيجنسية قد شكلت تهديدا خطيرا لوحدة العالم المسيحي اللاتيني. وكانت البابوية ومؤيدوها سنة الالبيجنسية قد شكلت تهديدا خطيرا لوحدة العالم المسيحي اللاتيني. وكانت البابوية ومؤيدوها سنة الالبيجنسية قد شكلت تهديدا خطيرا لوحدة العالم المسيحي اللاتيني. وكانت البابوية ومؤيدوها سنة

واصول الحركة الالبيجنسية ليست معروفة، فقد ظهرت فى اواخر القرن الحادى عشر على استيحاء بشمال ايطاليا وجنوب فرنسا. ثم اختفت من ايطاليا بالتدريج، بينما أخذت تنتشر ببطء ف جنوب فرنسا. وبعد سنة ١١٥٠ القت الحركة الالبيجنسية القفاز فى وجه البابوية والكنيسة الغربية، وكان رجال الكنيسة فى جنوب فرنسا على قدر من الفساد وعدم الكفاية بالقدر الذى جعل من تلك الانحاء تربة خصبة لنمو المذاهب الهرطقية. وينبغى ان ندين كنيسة القرن الثانى عشر لعدم قدرتها على وقف النمو المطرد للكنيسة الالبيجنسية، فقد تجاهلتهم كثيرا، اذ انها اكتفت بارسال بعض الوعاظ والمبشرين الى جنوب فرنسا لكى يقاوموا حركة تضرب بجذورها فى اعماق المجتمع.

وقد اكد ستيفن رنسمان وغيره من العلماء ان الكاتارية قد اخذت مثلها العليا عن مانوية القرن الرابع. ويقوم هذا الرأى على انه بينما اختفت المذاهب المانوية من العالم المسيحى اللاتينى، فانها غزت الامبراطورية البيزنطية من موطنها الاصلى فى فارس . وتقوم المانوية على ان هناك الهين، اله للخير واله للشر، للنور والظلام يتصارعان فى الدنيا، وهى تحرم ذبح الحيوانات. وقد اخذ عنهم الكاتاريون هذه العقيدة، كما حرموا اكل لحوم الحيوانات، وحرموا الزواج وانكروا الثالوث المقدس، ويزعمون انهم الابرار حقا الذين يتمتعون بروحانية خالصة، ويمكن لأولئك الذين لا يحيون حياة طاهرة خالصة ان يضمنوا لانفسهم الخلاص اذا ما اعترفوا بقادة الكاتاريين.

وقد الصبق اعداء الالبيجنسيين في القرن الثالث عشر عدة تهم بهم، وليس بامكاننا التحقق من صبحة هذه الاتهامات لافتقارنا الى الدليل والبرهان، ويذهب البعض الى انهم لم يكونوا فرقة هرطقية يقدر ما كانوا اصبحاب ديانة مختلفة.

و ف بداية القرن الثالث عشر طلب البابا انوسنت الثالث مساعدة فيليب أوغسطس ملك فرنسا التدمير الهرطقة الالبيجنسية، ولكن الأخير تجاهل نداءات البابوية المتكررة لأنه كان مشغولا

ايضا. وسار الملوك الكابيون في اعقابهم وسيطروا على جنوب فرنسا Midi. كذلك يمكن ان نصور الغزو الجزئى الذى قام به الأنجلو - نورمان لأيرلندا على انه نمط من انماط الحروب الصليبية، رغم ان ضحاياه في هذه المرة كانوا من الكاثوليك «المتخلفين» ولم يكونوا من الهراطقة.

وقد حققت هذه الحملات جميعا نتائج دائمة، اذ انها كلها تركت بصماتها على خريطة اوربا. ولم يكن بوسع المعاصرين ان يتنبأوا بفشل اللاتين في جبهة واحدة فقط هي فلسطين. فقد ادت الانتصارات المذهلة التي احرزتها الحملة الصليبية الأولى الى توقع ان فرنسا ما وراء البحار^(۲). قد وجدت لتبقى. فاذا ما قرأنا المؤلفات التاريخية التي كتبت عن الحروب الصليبية في العصور الوسطى نجد انفسنا مضطرين الى مشاركتهم هذه الثقة بمستقبل الملكة اللاتينية بفلسطين.

وكان للغزو وللحروب الصليبية أثرها على التدوين التاريخي من حيث تحريره من ربعة الأطر القديمة وايجاد الحافز الى الكتابة. ذلك ان ما تتسم به القصة من جدة، وما تحفل به من اثارة حرر المؤرخين من الاعتماد على النماذج القديمة. وذلك لأنه لم يكن ثمة شيء في الحروب التي شهدتها العصور الوسطى الباكرة يمكن مقارنته بالحروب الصليبية. وكان على مؤرخ الحروب الصليبية أن يكتب بطريقته الخاصة. كما صارت الكتابة التاريخية أقل نمطية، وأكثر تلقائية. كذلك وجد الحافر الى الكتابة بفضل اتساع مجال هذه الكتابة وأفاقها. فقد اكتسب المؤرخون الذين كانوا يعيشون في المناطق العسكرية خبرات جديدة، ذلك انهم كانوا يتعرفون على حضارتين. ولأن الحروب كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد قامت بين المستوطنين وأعدائهم اتصالات سلمية، وهو الأمر الذي يعنى أن عيونهم قد تفتحت على حقيقة أن أولئك الأعداء بشر وليسوا من الشياطين.

ت بحربه ضد حنا (جون) ملك انجلترا، وتطورت الأحداث بالشكل الذى أدى إلى اعلان البابوية قرار الحرمان على ريموند السادس أمير تولوز واباحة اراضى وأملاك الهراطقة، فتحمس كثيرون من امراء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا التى اتخذت شكل حملة صليبية سنة ١٢٠٩، وانتهت بتدمير الالبيجنسيين والقضاء على الامراء الاقطاعيين في جنوب فرنسا.

Cantor, Med. من ۲۰۷ - من ۲۰۷ - من ۲۰۷ وربا العصبور الوسطى ۲ج ۱، من ۲۰۲ - من ۲۰۷. و. (الترجم) (الترجم)

⁽٢) تقصد المؤلفة هنا المملكة اللاتينية في فلسطين، والسبب في ذلك ان غالبية قوات الحملة الأولى كانت من الفرنسيين الذين حرص البابا أوربان الثاني على أن يكونوا عصب الحملة الذاهبة نحر الشرق.

وكانت الهزيمة منبع حافز اكبر من ذلك الذي ينبثق من النصر. لأن الهزيمة تؤدى الى مراجعة الذات. فالتوغل الاسلامي في فلسطين، والمعدل البطيء للغزو وتنصير الشعوب القاطنة على الحدورد الالمانية، وتوقف المغامرة الأنجلو - نورمانية ف ايرلندا؛ كل هذا فرض السؤال عن السبب في تخلى الرب عمن يخدمونه أثناء قتالهم في سبيله، ولماذا يؤجل انتصار المؤمنين أو يحرمهم من النجاح؟ كما أن انتشار الهرطقات في العالم المسيحي - ولا سيما في جنوب فرنسا Midi -- جعل بعض المؤرفين يتصرجون يتساطون عمن يمكن أن يكون مسئولا عن هذا. لقد كان الكتاب السابقون يتحرجون من انتقاد الأباطرة خوفا من أن يسيئوا اليهم، أما مؤرخو الحروب الصليبية فكانوا اكثر جرأة ربما لأن السلطة كانت اكثر ضعفا في مناطق الحدود التي عاشوا بها.

لقد أنتجت الحروب الصليبية كتابا علمانيين ومؤلفات تاريخية وطنية. كما تطور الأدب العلمانى بفضلها. وكان النمط الجديد من التدوين التاريخى مناقضا للتدوين التاريخى اللاتينى الكنسى التقليدى من عدة وجوه. وفي الوقت نفسه كان هذا النمط الجديد أبعد ما يكون عن الملحمة الوطنية أو ما يعرف باسم Chanson de geste، لأن هذه الملاحم كانت تعالج القصص الخيالية والخرافات، بينما كان على تاريخ الحروب الصليبية أن يبدأ بتناول الحقائق.

حقيقة ان قصص «مؤرخي الغزوات» أقبل اثارة وطبرافة من كتبابات مؤرخي الحروب الصليبية، ولكن هذه القصيص سوف تساعدنا على تفهم العقلية الصليبية. وسوف يكون الغزو الألماني للسلاف نقطة البداية التي ننطلق منها في المجال. فقد كتب الاستاذ أدم البريميني Master Adam of Bremen كتابا أسماه «اعمال اساقفة بريمن» في اواخر القرن الحادي عشر. واستخدم الأسلوب التقليدي الذي يتخذ من تاريخ أسقفية بعينها اطارا لقصة أكثر شمولا. فقد كانت هذه المدينة (بريمين) الواقعة على الحدود مركزا للحملات التي انطلقت عبر الحدود لغزو الوثنيين وتحبويلهم الى المسيحية. واهتم أدم بالتفاصيل الجغرافية عن «كل بلاد السلاف» التي قال إنها «ولاية كبيرة جدا من ولايات المانيا». وعادة ما كانت كتابات مؤرخي العصور الوسطى عن الاراضى المجهولة حافلة بأخبار الاساطير والمعجزات، ولم يشذ أدم عن هذه القاعدة، اذ ترد ف ثانيا قصته أخبار «معجزات الشرق». بيد انه كان علميا الى حد معقول فيما أورده من ملاحظات عن الشعوب وبلادها، واستحوذت ألهة السلاف ·· او اوثانهم ·· على اهتمامه. ولم يكن ذلك مجرد الفضول وحب الاستطلاع الذي يثيره كل غريب وغير مألوف. اذ كان باستطاعته ان يرى وجهة نظر السلاف الذين كانوا ضحية التوسع الالماني. وهو يروى في صدق قصم الفظائم والمذابع التي راح ضحيتها القساوسة المسيحيون، ولكنه لا يحجم عن توضيح اخطاء المسيحيين، فقد لجاً أعضاء كنيسة حديثة التأسيس الى السطو، وكان طبيعيا أن يستفزوا بعملهم مشاعر الثار في نفوس السلاف كما يخبرنا آدم في روايته.

وكان لوجوده فى مدينة على الحدود أثره فى شحذ رؤيته السياسية: فهو يصف الصراع الثلاثى الأركان بين السلاف، والأمراء، والأساقفة. وكان لكل فريق دوافعه الخاصة. فقد قاوم السلاف الالمان ، بينما كان الاساقفة يريدون تحويلهم الى المسيحية؛ لأن اعتناقهم لها سوف يزيد من قوة الكنيسة وثروتها. اما الأمراء فكان همهم موجها الى قهر السلاف. واذا ما تحول السلاف الى المسيحية، فان الأمراء والأساقفة سيتقاسمون ثمار الغزو، اذ كان من حق الأساقفة ان يأخذوا من المسيحيين ضريبة العشور. وكان آدم يشعر انه يجب ان يوجه اللوم الى الأمراء والكرادلة على حد سواء فى بطء عملية تنصير السلاف. فهو يقول على لسان أحد ملوك الدانيمرك انه كان من المكن أن يعتنق السلاف جميعا المسيحية منذ زمن طويل، ولكن طمع السكسون فى ان يدفع السلاف لهم جزية الخضوع هو الذى أخر اعتناقهم للدين المسيحي.

إن تاريخ أية أسقفية يتيح لكاتبه فرصة رسم شخصيات الأساقفة. وكانت سلطة كبير أساقفة بريمين تمتد على مساحة شاسعة بمنطقة الحدود، وكان بالاقليم من المشاهد الخلابة والمناظر الساحرة ما يثير شهية أسقف طموح مثله. إذ كان بمقدوره أن يوسع من حدود ممتلكاته، وأن يجعل من نفسه حليفا لا غنى عنه للألمان. وكان أمام أدم شخص آخر ينافس هذه الشخصية هو أدالبرت Adabert (ت ١٠٧١) كبير الاساقفة، وقد أفاد آدم من هذه الشخصية إلى أبعد الحدود، كما أنه بعث روحا جديدة في تراث وصف الشخصية. وها نحن أخيرا أمام صورة متصركة بدلا من الصورة «الساكنة». فقد تحول طموح أدالبرت إلى جنون العظمة. ويبدو أدم وهو يكتب عن هذه الشخصية كما لو كان طبيبا يرقب بداية ظهور أعراض المرض. فهو يوضع لنا كيف تفاعلت الشخصية مع الظروف المحيطة بها. إذ أن مختلف خيوط شخصية كبير الأساقفة ترتبط بما أحرزه من انتصارات أو تعرض له من نكسات. وتتجلى وحدة الشخصية الداخلية كما تتجلى أعراض جنون العظمة وأضحة. وهكذا تتبع ادم خيوط قصة شخصية لا تنسى. وربما كان من السهل عليه أن يلجأ إلى النظرة الأخلاقية ويستخدم نغمة عجلة الحظ لتفسير القصة التي يرويها، واكنه آثر أن يبتكر ويجدد. وريما كان للبيئة غير العادية التي عاش في رحابها تأثيرها عليه من حيث عرضه _ كرجل يتمتع بقوة الملاحظة _ لما مر به من تجارب.

وكان آدم مصدر الهام كبير لكاتب آخر عاش بعده بحوالى قرن هو هلمولد Helmold قسيس بوسو Bosau الذي وصف أحداث الغزو في فترة لاحقة. فقد قرأ

الأخير كتاب آدم، الذى كان بمثابة سابقة ومصدر عن تاريخ السلاف الباكر. ويعرف كتاب هلمولد باسم «مدونة السلاف»، ولكن هذا العنوان وضع للكتاب بعد تاليفه بزمان. والكتاب في الحقيقة تمجيد لأعمال البعثات التبشيرية المسيحية بين الوثنيين. ووجد المؤلف نفسه وهو يمتدح أعضاء البعثات التبشيرية في خضم تاريخ الحملات العسكرية، ونمو المدن في الأراضى المقهورة. وكرس هلمولد كتابه لقساوسة ليبيك قد أشار عليه بأن هذه هي الوسيلة المثلي لتكريم «ليبيك». وانتهى القسم الأول من المدونة سنة ١١٦٨/١ وفرغ من القسم الثاني سنة ١١٧٧. وعلى حين تبين لنا القصة التي رواها ادم عن ادالبرت كبير الاساقفة ملامح شخصية متغيرة. يكشف لنا الكتاب الذي الفه هلمولد عن مؤرخ متطور. وذلك أن موقفه المتغير من مادته يعد واحدا من أهم ملامح مدونته التاريخية وأكثرها آثارة وتشويقا. فهو، مثل آدم، قد كتب عن تجربته الشخصية، لأنه كان يعمل في مجال التبشير، إلا أن قدرته على الملاحظة قادته إلى أن يرى القصة رؤية مختلفة أثناء روايته لها.

وفى البداية استخدم أدم «الأعمال»، وقدم من الملاحظات البديلة لما جاء بهذا الكتاب ما يكشف عن نظرة أكثر نقدية وعلمانية من نظرة أدم، فقد تغاضى عن أخبار المعجزات، وحد من تحيز أدم فأرجع للأمراء فضلا أكبر مما كان للأساقفة في أعمال الغزو والتنصير. كما أنه حسن مصادره باستضدام الدليل الأثرى في المراحل التاريخية الباكرة. إذ كانت الكنائس المدمرة والقنوات المطمورة في الأراضى السلافية بمثابة شهادة على الاحتلال السكسوني لها في القرن العاشر، قبل أن يتمكن السلاف في صحوتهم من طردهم مرة أخرى. وهو يذكرنا باستخدام بيديه للآثار الرومانية كدليل على الاحتلال الروماني لبريطانيا.

واستمر صراع المصالح الثلاثي الأركان الذي وصفه أدم قائما في عصر هيلمولد الذي كان مدركا لأبعاد هذا الصراع مثل أدم تماما. فلم يكون الأمراء مهتمين بتحويل السلاف إلى المسيحية، كما أنهم لم يحبذوا فكرة شن حملة صليبية ضد السلاف كما نادى سان برنار سنة ١١٤٦ أثناء دعوته للحملة الصليبية الثانية في الأرض المقدسة. فقد كان سان برنار يرى أنه يتعين على السلاف أن يعتنقوا المسيحية أو «يتعرضوا للتدمير الشامل ألى وإذا «ما تعرضوا للتدمير الشامل فلن يكون بوسعهم أن يؤدوا الضرائب إلى قاهرهم». أما بطل قصة هيلمولد، فهو حاميه الأسقف فيسلين النافري كان مبشرا مخلصا لعمله، وكان هيلمولد معجبا به. ثم حدث بعد موت فيسلين أن شغل «هنرى الأسد» دوق ساكسوني مكانه كقائد لعمليات التوسع صوب الشرق. وبتغيير القيادة تغيرت رؤية هيلمولد، إذ بدأت فكرته عن القوة

المسلحة في التحسن. فقد كان الدوق هنرى شخصية بطولية وطامعة في آن واحد. ففي البداية «لم تكن المسيحية تهمه في شيء» على تعبير هيلم ولد «وإنما كان همه منحصرا في المال». وفيما بعد استطاع هنرى تدعيم ومساندة العمل التبشيري، إلا أنه كان يشدد قبضته على المبشرين. فقد كان غنيا كما كان ناجحا كفاتح بالقدر الذي يمكنه من مشاركة الكنيسة في استغلال الشعوب المهزومة. كذلك كان هنرى يعامل الاكليروس في امارته باعتبارهم خدما له. ويرى هيلمولد أن الخضوع لمشيئة الدوق كان ثمنا معقولا لحرية العمل التبشيري، كما يوافق رجال الكنيسة الذين أسلموا زمام الطاعة للدوق حتى ولو كان ذلك يعنى التنازل عن الحريات الكنسية.

وتشابه هيلمولد مع أدم في فضوله حول السلاف. إلا أن مدونته اتخذت مجالا أرحب مما اتخذه كتاب أدم «الأعمال». ذلك أن المدونة كانت تروى قصة شعوب ثلاثة هي شعوب السكسون، والدانمرك الذين قاموا بالغزو، والسلاف الذين كانوا يعيشون في المنطقة. وهو يرسم لنا صورة تتضح فيها فضائل كل شعب ونقائصه على حدة، دون أن يمالىء السكسون أو الدانمرك. وفي وصفة للسلاف تستوقفه عاداتهم وقيمهم الطيبة، فقد أثر فيه ما تميزوا به من حسن ضيافة للأصدقاء والغرباء على حد سواء رغم أنه يضيف قائلا إنهم يسرقون في سبيل الحصول على النقود اللازمة لاطعام ضيوفهم. وهو يسجل مختلف الطقوس الدينية التي تمارسها قبائلهم، وهو يفتقر بطبيعة الحال إلى فهم علماء الانثروبولوجي لمدلولات هذه العقائد التي كانت بدائية بمقاييسه، بيد أنه كان مدركا لأن العادات القبلية لم تكن على نسق واحد في القبائل. وإذا ما سلمنا بتحيز المستعمر ضد «الأهالي»، فإن ما يدهشنا للغاية هو أن هيلمولد كان موضوعيا للغاية في وصفه للسلاف. فالحقيقة أنه كان متعاطفا معهم في المشكلة التي واجهتهم حين اشتدت قبضة الغزاة عليهم، إذ لم يكن بوسع السلاف أن يهربوا هن طريق البر أو عن طريق البحر. وأحاط بهم الأعداء من كل جانب على حين كانت مواردهم قد استنفدت.

وتضاءل تعاطف هيلمولد مع السلاف حين بدأ يبتهج بنتائج الغزو، فقد جلب هنرى الاسد الرفاهية والرخاء إلى اسقفية عن طريق اجتذاب المستوطنين من الخارج وتأسيس المدن، كما صار ميناء ليبيك الحصين مركزا تجاريا غنيا. وكان ذلك منظرا جميلا في عيني هيلمولد الذي شرح الرخاء صدره. وعندما يصل الكتاب إلى هذه النقطة يطل علينا العهد القديم برأسه من ثنايا سطوره، فقد تشابه الغزاة مع بني إسرائيل وهم يقومون بطرد الأمميين من أرض الميعاد. وإذا لم تكن أرض السلاف الواقعة بين الألب والأودر تفيض باللبن والعسل حتى ذلك الحين، فإن ذلك كان ممكنا.

هيلمولد يهتم بمصير السلاف. فمن الناحية الاقتصادية، حل المستوطنون محلهم، وكاد الوطنيون (السلاف) أن يطردوا خارج البلاد، أما أولئك الذين نجوا من الفناء، فقد خضعوا لنظام صارم. وكان المتشردون من السلاف عرضة للقبض عليهم ثم اعدامهم شنقا. وهكذا ينتهى الكتاب بهذه الملاحظة الاستعمارية النغمة، والتى تختلف عما أبداه هيلمولد في بداية الكتاب من حماسة للعمل التبشيري.

« والمدونة » تصور الأفراد كما تصور الشعوب، إذ كان هيلمولد دارسا للشخصية. ولم يكن لديه شخص عملاق مثل أدالبرت كبير الأساقفة يبسط عليه نفوذه وسلطانه، بيد أنه بذل ما في وسعه لتصوير الشخصيات التي في متناوله. إذ يصبور الأسقف جيرولد والأسقف فيسلين في إطار النموذج التقليدي «للكرادلة الطيبين»، وربما كانا كذلك بالفعل. أما الأسقف الذي خلف جيرولد فلم يكن مناسبا لأي نمط، ويصوره هيلمولد كخليط انسانى من الصفات الطيبة والسبيئة. لقد فرضه هنرى الأسد على اسقفية ليبيك رغم إرادة الأساقفة، ثم جاءت المتاعب عقب ذلك، إذ أن صنيعة هنرى أخذ يعانى من عداء الأساقفة له. ويصوره هيلمولد وهو يتغير في الاتجاه المضاد لادالبرت، ذلك أنه تعلم من النفى والندم كيف يعطف على رفاقه. ومرة أخرى نستطيع أن نستمتع بصورة مقدركة بدلا من مجرد «كتالوج» للخصائص الشخصية. وتظهر صور الأمراء العلمانيين في سياق القصة بما تميزوا به من شهامة أو خسة على درجات متفاوبة. ويقتبس هيلمولد «الكليشيه» القائل بأنه إذا انتهكت الحقيقة، فإن النتائج ستكون مخزية، فيقول «يجب أن تلوم نفسك ولا تلوم المرآة إذا كان ما تراه فيها لا يروقك ». ولابد أن مرآته قد اظهرت بعض الوجوه التي احمرت خجلا مما اقترفته. إلا أنه لم يعد يبالى بالأهالي، ولكنه كان عديم الرحمة أيضًا في وصفه للغزاة الذين قهروهم، أي أنه لم يحجب شيئًا من الحقيقة.

وقد وجد الغزو الانجلو - نورماني لايرلندا مؤرخه في شخص جرالدوس كامبرينسيس Girald Cambrensis الذي يعرف أيضا باسم جيراك الويلزي (ت ١٢٢٠). ولم يكن جيراك رجلا محليا مثل أدم أو هيلموك، وإنما كان عالما ذا شهرة عالمية، وعلى معرفة والمام طيب بالبلاغة والقانون واللاهوت. إلا أن ارتباطاته كانت محلية، فهو ينتمى من جهة أمه إلى البيت الملكى في ويلز، بينما كان أبوه من أسرة نورمانية نبيلة مستقرة في جنوب ويلز، كما كان أقاربه يمتلكون عدة ضياع في ايرلندا. وقد حباه الله بقدرة فائقة على الملاحظة، كما أنه كان كاتبا مسليا، وهجاء ساخرا. وزاد من حدة سخريته أنه فشل في تحقيق طموحه، إذ كان يريد أن يصير السقفا لكنيسة سان داود، ثم يرتقى من كرسى الاسقفية إلى كرسى كبير الاساقفة. ورغم الضغوط التي مارسها على الملوك الانجوبين، والزيارات المتكررة التي قام بها للبلاط

البابورى، فإنه لم يرق إلى منصب أعلى من متصب كبير شمامسة كنيسة سان داود.

وقام بزيارتين لأيرلندا استمرت كل منهما حوالى سنة، وقد ساعدته هاتان الزيارتان على جمع المادة اللازمة لكتابه «عن طبوغرافية ايـرلندا» وكتـابه الآخـر «عن غزو ايرلندا». والكتاب الأول وصفى، أما الثانى فيضفى صفة المعاصرة على الكتاب الأول من خلال ما يرويه عن محاولات غزو أيرلندا، وهو ينتهى بعد حملة الأمير حنا (جون) سنة ١١٨٥. وقد رافق جيرالد الأمير حنا تلبية لرغبة والده هنرى الثانى. وأهدى كتاب «الغزو» إلى ريتشار الأول الذى سيتوج ملكا فيما بعد. والكتاب يقف على خط الحدوب بين نمطين من أنماط الكتابة التاريخية، فهو عبارة عن رسالة تاريخية مكتوبة باللاتينية، ولكن ثمة جمهور أوسع من جمهور الرسائل كان يشد جيرالد ناحيته، وكان يأمل فى أن أحدا سوف يترجم الكتاب إلى الفرنسية. ولذا فانه كتب بأسلوب حديث واضح ذلك أن ربة إلهامه كانت تجفل من اللغة اللاتينية القديمة الصعبة.

وكتاب «الغزو» هذا يشبه سوق الكريسماس من حيث إنه يقدم شيئا لكل شخص، فهو يحتوى على المعلومات القيمة إلى جانب اللغو الفارغ. فإذا ما كنت تبحث عن الاثارة فإنك واجد فيه الرؤى، والأحلام، والنبوءات، والمعجزات؛ فالغزاة يرتعدون أمام جيوش الأشباح، التى تنتشر في شتى أرجاء أيرلندا. وقد استغل جيرالد الخطب البلاغية الكلاسيكية التى بدت غير ذات معنى وهو ينسبها إلى البارونات الانجلو نورمان والزعماء الايرلنديين. ولكنه أيضا نسخ الوثائق وسجلات المجامع الكنسية، كما أنه يقدم لنا معرضا رائعا للصور. والصورة التى رسمها قلمه لهنرى الثانى صورة فريدة في روعتها بحيث تفرض نفسها على جميع كتبنا.

ومن الممتع أن نقارن جيرالد بكل من آدم وهيلمولد «كمؤرخ للغزو». وهم يشتركون في أمور كثيرة، إذ أنهم يتميزون بنفس التناقض في موقفهم تجاه الشعب المقهور. كان هناك من الأسباب ما يدفع جيرالد إلى أن يتخذ موقف الغزاة، فقد كان يأمل في أن يؤدى فرض الحماية الانجليزية على الكنيسة الايرلندية إلى تحبيذ الاصلاح وإلى وجود نظام أفضل يخضع له الاكليروس الايرلندي. كما أن مواطنيه الدين استقروا في ايرلندا كمستعمرين سوف يجدون دعما عسكريا أكثر ثباتا يقوى من وضعهم. فضلا عن أنه كان يرى في الأيرلنديين قوما برابرة غير أكفاء لا يعرفون كيف يديرون شئونهم. وفي الوقت نفسه، فإنه استطاع - مثل آدم وهيلمولد - أن يتعاطف مع المهزومين والمضطهدين. فهو يكتب عن الفظائع والأعمال الوحشية التي اقترفها كل من الجانبين. والفرق بين جيرالد من ناحية، وأدم وهيلمولد من ناحية أخرى ينبع من طبيعة القصة والذي يرويها كل منهم. إذ كان الألمان يروون قصة النجاح، وحقيقة أنه بطيء لكنه نجاح حاسم ونهائي. أما جيرالد فقد تعين عليه أن يسجل نقطة التوقف واستحالة نجاح حاسم ونهائي. أما جيرالد فقد تعين عليه أن يسجل نقطة التوقف واستحالة نجاح حاسم ونهائي. أما جيرالد فقد تعين عليه أن يسجل نقطة التوقف واستحالة نبيات المورد المؤرث المؤر

الحركة التى تورط عندها الغزاة. إذ اخفقت حملة الأمير حنا على أيرلندا، وظل الحكم الانجليزى هناك جزئيا وناقصا. وهكذا وجد جيرالد ــ الذى رافق الغزاة في عملياتهم العسكرية ــ نفسه مضطرا إلى أن يفسر سبب فشلهم أمام الأهالي.

ولكى يفعل هذا كان عليه أن يحلل الأسباب، فهو أولا ينحنى إلى المذبح (٢). فنحن نعلم من العهد القديم وما تبعه من تاريخ أن الرب لا يسمح لشعب بأن يدمر شعبا آخر تدميرا كليا الا كعقاب على خطاياه. ويخلص جيرالد من هذا إلى أن الايرلنديين لم يكونوا أشرارا بالدرجة التي تجعلهم يستحقون الهلاك، كما أن الغزاة لم يكونوا طيبين بالقدر الذي يجعلهم يستحقون النصر النهائي، إذ كانت للرب أسبابه في عقابه لكلا الطرفين. وعلى أيه حال، فأن النبوءات الأربع الشهيرات في التراث الأيرلندي تنبأت يأن الانجليز لن يقهروا الجزيرة كلها ابدا وحتى إقتراب يوم القيامة. ثم ينتقل جيرالد إلى الاسباب الانسانية (البشرية). فقد اضطر هنرى الثاني إلى عدم استكمال الغزو الذى قام به. لانه عاد إلى وطنه بسبب تمرد ابنه. ولم يرجع إلى أيرلندا ثانية. وعندما ينتقل جيرالد إلى الأمير حنا، يلجأ ثانية إلى تفسير ما حدث في ضوء عدم رضاء الرب، ذلك أن حنا أغضب الرب لأنه لم يساعد الكنيسة كما أنه حنث بقسمه بأن يشارك في الحملة الصليبية. ويمضى جيرالد في تشريح أخطاء حنا السياسية. فقد جلب الامير على نفسه عداوة حلفائه الأيرلنديين، وأغضبهم بعدم مصانعته إياهم. كما أغضب حنا المستعمرين الانجلو ... نبورمان والبويلزيدين أيضا. فقيد كان يسخير من ملابسهم وعاداتهم الاستعمارية العتيقة، كما أنه تجاهل مشورتهم. وأبعدهم واستخدم رجالا جدداً، وكان هؤلاء لا يريدون سوى تكوين الثروات لأنفسهم، وانهمكوا في الدفاع عن مناصبهم، كذلك استخدم الامير الجنود المرتزقة الذين يفضلون السلب والنهب على الحرب والقتال،

وينتقل جيرالد إلى وصف أساليب القتال. إذ كانت البلاد الموحشة التى تموج بالفوضى تتطلب قوات مدربة مجربة، فلم يكن المرتزقة ليصلحون في مثل هذه البلاد. وقد استسلم الايرلنديون للصدمة الأولى للغزو، ثم تعلموا فيما بعد أساليب المقاومة حين اضطروا للقتال على أرضهم. ولا حظ جيرالد أن نمط الحرب المطلوب في الغابات والجبال الايرلندية يختلف عن النمط القتالى الذي يناسب الأرض الفرنسية السهلة للنبسطة، وهو النمط الذي تعود عليه الانجلو ـ نورمان. فقد كانت الخيالة الثابتة تحوز

(المترجم)

⁽٣) تريد المؤلفه أن تقول إنه يلجأ إلى الدين في محاولة لتفسير ما حدث.

أفضل نجاح لها في القتال في السهول المفتوحة، ولكن الحرب في أيرلندا كانت تتطلب فرقا خفيفة التسليح ومدربة على تحمل المشاق. كذلك اختلف أسلوب القتال، ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحاربون بغية قتل أعدائهم، بينما كان هدف الطرفين في فرنسا الحصول على الاسرى سعيا وراء الفوز بالفدية المالية. ويرى جيرالد أن نتيجة ذلك تمثلت في أنه تعين تجنيد القوات التي ترسل إلى ايرلندا في غابات ويلز وأدغالها. فهناك، وهناك فقط، يوجد الرجال المعتادون على العيش والقتال في الظروف التي ستواجههم في أيرلندا. وفي هذا الجزء من كتاب جيرالد يعلو صوت أقارب الجنود فوق العناية الالهية فيما يتعلق بالمسائل العسكرية، أذ نجد النصائح المشددة بما يجب اتباعه في التكتيك العسكري، والحياة العسكرية، قد حلت محل الاعتبارات الاخلاقية.

وينتهى كتاب «الغزو» بمخطط تفصيلى لامتداد الحكم الانجليزى في ايراندا وكيفية حكم الشعب الخاضع، وأوحى جيرالد بعدة تدابير معقولة، مثل بناء الطرق لتسهيل الوصول إلى مناطق التمرد. لقد حدد لنا الملامح العامة لنظام وصاية صارم. اذ كانت الحكومة الاستعمارية تمول من خلال الضرائب التي تجبي من الأهالي. وقد قدم ذلك المخطط التفصيلي الذي أمدنا جيرالد به (وصفة) صحيحة للنجاح، إلا أن المقترحات التي قدمها كانت ستكلف الحكومة الكثير اذا ما أخذت بها. والخطة التي طرحها هذا العالم جديرة بان تحفظ في ملفات الحكومة الاستعمارية، ولكن أحدا لم يعمل مقتضاها.

رأينا أن الغزو كان بمثابة دفعة وحافز للتدوين التاريخي، وجاءت الحروب الصليبية لتزيد من حرارة الميدان. ومن بين العديد من مؤرخي الحروب الصليبية العديدين، اخترت ثلاثة مؤرخين هم، الكاتب المجهول صاحب «اعمال الفرنجة» «ووليم الصوري» William of Tyre وجيوفري الفيلهاردويني Ceoffrey of وجيوفري الفيلهاردويني Villeharouin وجيوفري الفيلهاردويني المناء المعروفة، كما يتمتعون بانهم محل اهتمام لأسباب متناقضة، فمنهم من يمثل طرازا جديدا من المؤرخين، ومنهم من يقدم معالجة اصلية لنمط قديم من الكتابة التاريخية.

كان الكاتب المجهول أحد شهود العيان للحملة الصليبية الأولى. ويبدو أنه كان ينتمى إلى عائلة نورمانية استقرت في جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها، وانضم إلى الفرقة الصقلية في الحملة تحت قيادة بوهيموند Bohemond الذي كان ابنا غير شرعى صقل ــ نورماني أخر. أي أن بوهيموند كان «سيده». وتبدأ «أعمال الفرنجة» بتقرير مختصر عن مجمع كليرمونت Clermont حيث دعا البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية. ثم يعقب ذلك تلخيص موجز لمختلف الحملات التي انطلقت من أوربا صوب فلسطين. وبعد ذلك يروى الكاتب تجربته الشخصية كواحد من الصليبيين وتمتد

قصته حتى الاستيلاء على بيت المقدس وانتخاب ملك وبطريرك لحكم المملكة الفرنجية المجديدة، ثم يتحدث عن انتصار الصليبيين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩، وربما يكون قد مات عقب ذلك مباشرة لأن الكتاب يتوقف عند هذه الحادثة.

ومن المحتمل أن يكون قد بدأ فى كتابه «أعمال الفرنجة» خلال اقامة الصليبيين فى انطاكية بعد أن استولوا عليهم. وقد استقر بوهيموند الذى كان يهدف إلى تاسيس امارة لنفسه فى انطاكية، ورفض أن ينضم إلى الجيوش الزاحفة على بيت المقدس (٤)

⁽٤) بعد أن استولى الصليبيون على انطاكية سنة ٤٩١ هجرية (١٠٩٨) وجدوا أنهم في حال ليس أفضل كثيرا مما كانوا عليه قبل سيطرتهم على المدينة، وثارت مشكلة كبيرة تمثلت في السؤال القائل: لمن تمنح المدينة ؟ ويسبب ظروف الصليبيين السيئة وحصارهم داخل انطاكية وانعدام الأقوات عندهم، وحصار جيوش الأتراك المسلمين. بقيادة كربوغا (انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ١٠ ܩ٣٠٠؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جــ٢ ص١٣٦ ــص١٢٨، وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـا، ص ٢٠٩ ـ ص ٢١٩ . Runciman, A hist. of the Gusades, I, p. 238 . ٢١١ وفي هذه الاثناء حضر فلاح زرى المظهر اسمه بطرس بارتليميو Peter Barthelomew وزعم أنه رأى في منامه أحد القديسين يحدد له مكانة الحربة التي اخترقت جنب السيد المسيح، وإنها مدفونة في مكان ما بانطاكية، وأن اكتشافها سيؤدى إلى انتصار الصليبيين، ويقول ابن الأثير (جـ١٠ ص١٣٠) إن الراهب هو الذي دفن الحربة بنفسه، ويميل رئسمان إلى الأخذ بهذا الرأى (I.p. 245) وعلى أية حال فان هذه الحادثة أدت إلى ارتفاع معنويات الصليبيين الذين كانوا قد ساءت أحوالهم وتدهورت معنوياتهم. وإذ كان ريمونـد الصنجيلي مريضا تولى بوهيموند قيادة الجيوش الصليبية في المدينة ثم خرج من بوابة المدينة في وم ٢٨ يونيو سنة ١٠٩٨ ومعه الحربة المقدسة يحملها أحد القساوسة المرافقين للجيش، وألحقوا بالجيوش الأسلامية التي مزقها الخلاف هزيمة لم تكن في الحسبان ولكنها كانت حاسمة في نتائجها فقد حددت مصير انطاكية النهائي في تلك الفترة، وهنا ثار السؤال من جديد : لمن تكون انطاكية ؟ لقد كان القسم الذي قطعه قادة الصليبيين على انفسهم للامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين يحتم عليهم أن يعيدوا المدينة إليه، ولكن يوهيموند النورماني _ الذي كان قد شارك في هذه الحملة منذ البداية بدافع عدائه هو والنورمان للبيزنطيين (Cantor, Med. Hist., p. 323) قرر أن يحتفظ بالمدينة لنفسه. وكان رفاقه - باستثناء ريموند الصنجيلي أمير تولوز - على استعداد للموافقة على ذلك، لأنه كان صاحب خطة الاستيلاء على المدينة، كما أنه هو الذي استولى على قلعتها، ثم تولى قيادة الجيوش الصليبية التي هزمت جيوش قربوغا. وهكذا لم يهتم الصليبيون اهتماما كبيرا بالامبراطور القابع بعيدا على ضفاف البسفور، ولكن تصدى ريموند لمطامع بوهيموند حال دون تنفيذ الأخير لخطة بتكوين إمارة لنفسه في انطاكية، وكان أن أرسل الصليبيون إلى الامبراطور الكسيوس كومنينوس رسالة يخبرونه فيها أنهم قرروا الزحف على بيت المقدس ويطلبون مساعدته لهم في ذلك، ولكن تضاذل الأمبراطور، وعدم وصنول رده بسنرعة، جعل المقاتلين وعامة الصليبيين يثورون على زعمائهم بانطاكية مهددين إياهم بالزحف على بيت المقدس وفاء بقسمهم الصليبي الذي قطعوه على أنفسهم تاركين هؤلاء الزعماء المتناحرين أمام مصميرهم، وهنا تولى ريموند قيادة الجيوش الصليبية ف زحفها على بيت المقدس، وحلت مشكلة الخلاف حول حكم انطاكية، فقد أثر بوهيموند البقاء =

وحينذاك حول الكاتب المجهول ولاءه إلى كونت ريموند أميرت ولوز، وينتهى الكتاب بدخول الصليبيين إلى بيت المقدس.

ويبدو من ثنايا الكتاب أن المؤلف كان فارسا من المرتبة الدنيا، وأن بوهيمند كان يتق به، ولكنه لم يكن من زمرة القادة. والواقع، أن ما يميزه هو عدم ثقته في دبلوماسية ما وراء الابواب المغلقة كما هو حال جميع من يقفون خارج هذه الأبواب. ومن المدهش أن رجلا علمانيا يتمتع بمثل هذه المهارة في الكتابة باللغة اللاتينية. إذا أن اللغة التي كتبت بها « أعمال الفرنجة » لغة نحوية فصيحة، رغم أنها غير رسمية ولم تكن لدى المؤلف اية أدوات يستعين بها سوى ما يذكره نقلا عن الكتاب المقدس. وربما يكون قد الحق بالكنيسة وهو بعد صبى لكى يشق طريقه في السلك الكنسي تاركا ضيعة العائلة المخوته الأكبر سنا، وهو الأمر الذي كان يحدث للابن الاصغر في غالب الأحوال. وربما يكون موت إخوته هو الذي مكنه من أن يتخذ لنفسه طريقا علمانيا. وإلا فإن ثمة احتمال بأن أحد القساوسة قد ساعده فيما كتب. وفي أي من الحالتين، يتحدث الينا في بساطة ومباشرة، كما أن ذاكرته متوقدة، وهذه جميعا صفات خاصة به.

إن «أعمال الفرنجة» هو أول مؤلف تاريخي يكتبه رجل علماني منذ اينهارد، ونيتهارد Nithard في القرن التاسع، والمؤلف المجهول فريد في أسلوبه، مثل جالبرت البروجي. واكتسب كتابه شهرة ذائعة باعتباره مصدرا أوليا من مصادر الحملة الصليبية الأولى، بيد أن الكتاب الكنسيين وجدوا أن أسلوبه في العرض فقل للغياية فأعادوا صياغته بأسلوب أكثر تأدبا. وأول ما يبدو واضحا في هذا الكتاب هو تعارضه مع المؤلفات التاريخية التقليدية. إذ أن المؤلف المجهول يبدأ كتابه بفاتحة، ثم يخوض مباشرة في تفاصيل قصته. ولم يكن يعرف _ وربما يكون قد شاء أن يتجاهل _ أنه من المفروض أن يعتذر الكاتب عن الكتابة عموما، وعن تقصيره في الكتابة، وعن أن صدقه سوف يصدم المشاعر.

وربما يكون الغرض الدينى للكتاب قد جعل سبب تأليفه واضحا فى حد ذاته. إذ كانت استعادة الضريح المقدس أمرا نابعا من موت المسيح ثم بعثه، كما كانت مرتبطة بما لقيه القديسون من آلام. كما أن الحملة الصليبية قد رفعت من قدر الشهداء. وقد

ف انطاكية حيث كون لنفسه امارة مستقلة:

انظر التفاصيل ف:

Runciman, A hist., of the Crusaders, (Harper Torchbooks, New York, 1964), Vol.I pp. 236-62. الدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ٣ج١، ص٢٠١ ـ ص٢٢٤. (الطبعة الثانية، مكتبة الانجاو المصرية سنة ١٩٥١).

أدخل المؤلف المجهول جميع الجنود ـ الحجاج الذين سقطوا في الحرب المقدسة في عداد الشهداء، فهو يكتب عن حصار انطاكية قائلا:

«استشهد أكثر من ألف من فرساننا ومشاتنا في يوم واحد. لقد صعدوا إلى السماء، حيث تنالهم الغبطة والبهجة، ويتالقون في ثياب الشهداء البيضاء، ويمجدون ربنا ويعظمونه، وهو الواحد الثالوث الذي انتصروا باسمه، وفي السماء يصيحون في صوت واحد: لماذا لم تقم بحماية دمائنا التي أريقت في سبيل تمجيد اسمك».

وهو هنا يلمح إلى نص من سفر الرؤيا فى العهد الجديد، حيث يسمح للشهداء الجدد أن يستريحوا برهة «حتى يكمل العبيد رفقاؤهم واخوتهم ايضا العتيدون أن يقتلوا مثلهم» (٢:١١). أما الاتراك الذين قتلوا بأيدى الصليبيين فقد «ذاقوا الموت الأبدى، وأسلموا أرواحهم الملعونة إلى الشر ورفاق الشيطان» وفي السماء يتجلى الشهداء المحليون في فلسطين لكى يخففوا عن جنود المسيح ما يعانون من جراء ضغط الاتراك عليهم.

ويرسى المؤلف المجهول للنموذج الذى تبعه من جاء بعده فى حديثه عن مجمع كليرمونت بقوله: «وإذ حان الوقت الذى كان إلهنا يسوع المسيح يبينه للمؤمنين فى كل يوم، لاسيما فى الانجيل بقوله «إن اراد احد ان ياتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى» (متى، ١٦: ٢٤)، وعندها دبت فى جميع ارجاء بلاد الغال حركة عظمته».

وقد خلد أعداء السيح وقديسيه، ولم يكن ممكنا أن نخطئهم. ذلك أن المقياس الزمنى الذى يستخدمه المؤلف المجهول، والقيم التى يعتنقها هى مقياس وقيم ذلك الطفل الذى يقول: «إن الأشرار قتلوا يسوع، كما قتلوا عمى في الحرب». ويتضبح من بناء كتاب «أعمال الفرنجة» نفسه أنه قصد به أن يقرأ بصوت عال باعتباره مؤلفا دينيا. إذ أن كل فصل فيه يختتم بترنيمة دينية توضح النقطة التى توقفت عندها القراءة في يوم معين.

ويلتقى الغرض الدينى بالوصف الحى، فقد كان المؤلف المجهول يفهم الأساليب العسكرية على نحو لا يمكن أن يتيسر للكاتب الكنسى العادى. إذ أننا نتسلق معه أسوار أنطاكية ليلا، فقد تمكن بوهيموند من الاستيلاء على ثلاثة أبراج بسبب خيانة حراسها. وينكسر السلم أثناء صعودنا، ثم ندلف من خلال بوابة ضيقة في الحائط نتحسس طريقنا إليها في الظلام. ونحن نزحف فوق جبال لا ماء فيها. ونشم عفن الجثث المكومة في الطرقات، كما نسمع صيصة الحرب التي يطلقها الاتراك «وهم

يصرخون فجأة ويهللون بكلمات شيطانية من لغتهم». وينحرف بنا المؤلف ـ حين يصيبنا التعب من المعارك ـ ويصحبنا إلى الجانب التركى لنسمع ما يقوله القادة الاتراك عن الفرنجة. وهو ما يذكرنا بأحد مشاهد مسرحية «هنرى الخامس» التى ينطق شكسبير فيها النبلاء الفرنسيين بعبارات وقحة عن الغزاة الانجليز. وتلعب أم الأمير التركى الدور التقليدى للزوجة التى تتنبأ بعواقب ما يديره زوجها من خطط، وتحذره دون جدوى. والسيدة المسلمة التى تظهر في «أعمال الفرنجة» على معرفة بنبوءات الكتاب المقدس بشكل لافت للنظر، كما أنها تتميز بجهل غريب بالقرآن، ومن الواضح أن هذه التفاصيل الفرعية ليست إلا تعبيرا عن أمر يتمناه المؤلف، ويعتقد بصحته، بيد أنها تقدم لنا تسلية لا بأس بها.

وبتأتى الانطباعات الشخصية للمؤلف المجهول في سياق وصفه للأجانب الذين قدر له أن يلتقى بهم، ولم يحظ البيزنطيون بتعاطفه، لأنهم كانوا هراطقة معادين لنورمان صقلية. أما المسيحيون الفلسطينيون - ومعظمهم من السوريان والأرمن - فقد كانوا أقلية، وكانوا يخرجون من مكامنهم طالما أمكنهم ذلك، لكى يبيعوا المؤن للصليبيين بأعلى سعر ممكن دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر، ولم يكونوا محاربين بعكس الأتراك الذين كانوا خصوما شديدي المراس إذا ما تقابل الشعبان المقاتلان ـ الأتراك والفرنجة. ويجعل المؤلف المجهول من شخصياته عوامل مساعدة لمستمعيه، كما يحدث في الملاحم الشعبية القومية. ذلك أنه كان من الضروري تذكير المستمسع بالدور الذى تلعبه الشخصية إذا ما أعيدت رواية القصة مرة أخرى. والشخصيات كلها شخصيات نمطية بطبيعة الحال. فالامبراطور البينزنطي هو «الشيرير»، أما بوهيموند فهو «الثاقب النظر» أو «الحكيم» حتى يقرر أن يختلف بانطاكية، وعندها يصير «بوهيعوند» على حقيقته. أما الأتراك، الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة، فانه يسميهم «الأشرار» أو «الكفار» كلما جاءت المناسبة لهذه التسمية فقط. وينبغى أن نضيف إلى ما سبق أن المؤلف المجهول يذكر أحيانا حالات الجبن أو عدم النظام بين الفرنجة، وكان انحيازه راسخا في وجدانه بحيث إنه لم يجد ضرورة إلى تدعيمه باخفاء الحقائق. وقد أثبت بعض الباحثين أن موقفه قد تغير قرب نهاية الكتاب. إذ بدأ يفكر أكثر في المادة كشيء متميز عن الثواب سبيناله جزاء قيامه بالحج، فهو يخبرنا في غبطة كيف أن الصليبيين وجدوا كميات وافرة من المؤن والأغذية. وهذه رؤية أشبه ما تكون برؤية شخص يجلس مستريحا في مقعد وثير ويقيم الأمور تقييما ماديا، فأمامنا جيش تحركه بطون أفراده، أي أن الحرب الصليبية كانت كأي حرب أخرى. لقد خاض الرجال غمار الصعاب والأهوال، وحق لهم أن ينالوا نصليهم من الراحة حين جاء أوانها.

هل كان المؤلف المجهول محاربا صليبيا «نمطيا» من الدرجة الثانية؟ هل يمكننا أن نأخذ بالتعميمات التى أوردها فى كتابه انطلاقا من رؤيته الخاصة؟. هذا ما أشك فيه. فان مجرد حقيقة أنه كتب تاريخا تجعله مختلفا غن رفاقه. وربما يكون هـو الذى يعكس انطباعاتهم السانجة عن الحملة الصليبية. فقد كان أكثر منهم موهبة، وربما أكثر عقلانية، أو أشد تدينا. فهو، على الأقل، يصف لنا كيف كان شعور من يشارك فى الحملة الصليبية فى غمار حميتها ويساهم فى تحقيق أولى انتصاراتها.

والانتقال من المؤلف المجهول إلى وليم الصورى يشبه قراءة حنا السالزبورى بعد جالبرت أو كافارو. فانه يعود بنا ثانية إلى رحاب الدراسة والبلاط. فقد مر ما يقرب من ثمانين عاما ولم تستطع الحملات الصليبية التالية أن تفعل شيئا لتدعيم الملكة اللاتينية ببيت المقدس. إن قصة اللاتين في فلسطين تموج بمشاعر الحزن أكثر مما تحمل من علامات النصر. وليس كتاب وليم الصورى «تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار» عملا أصيلا في صياغته مثل كتاب «أعمال الفرنجة» الفذ الفريد. فهو كتاب تاريخ أدبى كتبه أحد كبار الأساقفة بلغة المثقفين. وهو لافت للنظر من حيث إنه حقق أقصى ما يمكن لهذا النمط من الكتابة أن يحققه، ويبرز وليم الصورى كأكثر مؤرخي العصور الوسطى عذوبة ورقة ورحمة.

كان وليم سليل أسرة من المستعمرين الذين استقروا في فلسطين. وقد جاء أولئك المستعمرون الذين ضمتهم الدولة الصليبية من عائلات الملاك، كما كانوا شبكة عالمية من الأقارب الأصدقاء. ويقدم لنا وليم أوراق اعتماده كمؤرخ في تقرير عن رحلته إلى الغرب للتعليم. وقد أمضى ما يقرب من عشرين عاما طالبا في فرنسا، وإيطاليا (١١٤٥ ـ ١١٦٥) حيث درس على أيدى أفضل أساتـذة الفنون الحـرة، والفلسفة، واللاهوت، والقانون الكنسي والمدنى. وعند عودته إلى المملكة اللاتينية بفلسطين حصل على أول ترقية له، إذ أصبح قسيسا بكاتدرائية صور وأعجب به أمالريك Amalric ملك بيت المقدس الذي أراد أن يمنحه مزيدا من العطايا، ولكن حال دون ذلك بعض الصعوبات. وترقى وليم في البلاط حتى صار قاضي قضاة الملكة وكبير أساقفة صور (١١٧٤ ـ ١١٧٥)، واستخدمه أمالريك كمستشار له وكان محل ثقته كما عهد إليه بتربية ابنه، وذهب وليم في بعثات دبلوماسية إلى روما وبيزنطة. وبعد موت امالريك فقد وليم حظوبته في البلاط ومن ثم لم يرق إلى منصب بطريرك بيت المقدس، وهي الوظيفة التي كان يتحرق شوقا اليها منذ وقت طويل. فانسحب إلى صور بخفي حنين سنة ١١٨٠، ثم سنحت به فرص أفضل في البلاط حين صارت لأصدقائه اليد العليا في تصريف شئون البلاط، ولكنه مات سنة ١١٨٥ تقريبا، وحرمه موته المبكر من الفوز بالترقية التي كان يتوق اليها. وكان من حسن حظه أن مات قبل أن يشهد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس، إذ أنه كان قد تنبأ بهذا وقد غلب عليه الرعب.

وقد تدرج الكتاب الذي ألفه وليم الصوري وأخذ ينمو من خلال حواره مع أمالريك. إذ كان الملك شغوفا بالاستماع إلى قصيص أعمال الحكام والروايات البطولية. واقترح على وليم أن يسبجل أعماله هو كملك لبيت المقدس. وقد برهن تاريخ حكم أمالريك على أنه يصلح بؤرة لاطار أكثر شمولا. فقد قرر وليم أن يدرج أعمال أمالريك ضمن التاريخ العام لمملكة الفرنجة وراء البحار. كانت هناك مؤلفات تاريخية عديدة عن الحروب الصليبية، ولكنها كانت جميعا تواريخ منفصلة وليس بينها ما يضم التاريخ العام للملكة اللاتينية في بيت المقدس، وتطلب الأمر القيام ببحث واسع النطاق، فبدأ وليم بالفتح الاسلامي لسوريا وانتزاعها من البيزنطيين (١٣٤-١٤٠)، ثم استمر في كتابته متتبعا الأحداث التاريخية. وقد سمحت له الفترة التي قضاها في صور بعد خروجه من البلاط بالوقت الكافي للكتابة. وفرغ من كتابة اثنين وعشرين كراسة ثم توقف اشمئزازا من الحال التي تردت إليها الأمور: ذلك أن الورطة التي وقع فيها الصليبيون ملأت نفسه غما وكآبة. وعلى أية حال فإن أصدقاءه أقنعوه بأن يستمر في الكتابة. وشرع في تأليف الكراسة الثالثة والعشرين ولكنه لم يكملها لوفاته. وكان له مؤلف تاريخي آخر هو «تاريخ أمراء الشرق» الذي كتبه بناء على تكليف من أمالريك، وهو مفقود. ولذا فاننا لا نعرف على الاطلاق الكيفية التي صاغ بها هذا المفكر ا الله الاتيني تاريخ الشرق. وتمثلت مؤهلاته فيما تلقاه بمدارس الغرب من التعليم الكلاسيكي، وفي إلمامه باللغتين العربية واليونانية، ومعرفته البسيطة بالعبرية التي ربما يكون قد تعلمها لكي يستضدمها في أغراضه العملية. فضلا عن تجربته كدبلوماسي ورجل دولة. لقد شارك في الأحداث التي دونها بعد عودته من الغرب سنة ١١٦٥، كما أنه كان منتميا إلى دوائر السلطة في غالب الأحيان.

ويتميز وليم بخلفيته الثقافية عن الغربيين. فقد كان المستعمرون الالالاتين مضطرين للتعايش مع جيرانهم، كما كانوا على نزاع مع بيزنطة، وعلى الرغم من ذلك كان هناك تبادل دبلوماسى وزيجات بينهم وبين البيزنطيين. وقد برهن البيزنطيون على أن التحالف معهم أجدى من تجاهلهم ودفعهم إلى تخريب جهود الصليبيين. وبالمثل كانت هناك هدنة بين الحين والآخر مع المسلمين كما كان المرور المتبادل يتم عبر أراضى كل من المسلمين والصليبيين. وظل كثير من المسلمين يقيمون في الأراضى التي استولى عليها الصليبيون. وفي فلسطين احتك اللاتين بقوم ذوى مستوى حضارى أعلى من مستواهم البدائي⁽⁰⁾. وحظى التعليم والمهارات العربية بتقديرهم، إذ كان بوسع

 ⁽٥) اشار أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» إلى هذه الحقيقة بقوله « ... وكل من هو =

الأطباء العرب أن يقدموا علاجا أفضل من ذلك الذى كان يقدمه الأطباء اللاتسين، لاسيما فيما يتعلق بالأمراض الشرقية، وكانت السيدات تعتمدن على «اليهود، والسامرة (1) والسوريان، والعرب » في العناية بصحتهن، وتبعهن الرجال في ذلك. وكان موقفهم المعبر عن المبدأ القائل «عش ودع الآخرين يعيشون» يعتبر فضيحة في نظر القادمين الجدد من أوربا إلى الملكة اللاتينية. وكان المستعمرون بدورهم يشعرون بعداوة طبيعية تجاه الحجاج والمستوطنين الجدد: لأنهم لم يكونوا يتفقهون مشاكلهم. لقد كانت بيت المقدس ملكا لهم، إذ أنهم قضوا حياتهم يدافعون عنها، وحياتهم أطول من الشهور أو السنوات القلائل التي تستغرقها احدى الحملات الصليبية. فقد صارت فلسطين وطنهم. إذ أنهم تعودوا على الألوان الرمادية ـ الشاحبة الحمرة التي تتميز بها صحراء الشام، وعلى الوديان القاتمة الخضرة التي يرونها من مدنهم ومن قلاعهم المستعمرين. فقد كان لكل اسم أو مكان صدى في نفوسهم: فجبل سيناء، وبيت لحم، والناصرة أماكن تتضوع بأريج الذكريات التي تفوح من صفحات الكتاب المقدس، والتاريخ الوثني والتاريخ المسيحى الباكر. وأدى الاهتمام بفلسطين إلى قيام المزيد من والتاريخ المائية علم المؤيد من

[•] قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين..»، ويقصد بكلمة «تبلدوا» أنهم تعودوا على نمط الحياة المتحضرة في فلسطين، وهنا نشير إلى أن الحرب لم تمنع المسلات الحضارية والانسانية بين المتحاربين (انظر: أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ص ١٣٤). وإنظر عن مدى تأثير الصليبيين بالأسلوب الاسلامى في الحياة اليومية في بلاد الشام:

Joshua Prawer, The World of the Crusaders, (Quadrangle Books, New York, 1972), pp. 83-99. (المترجم)

⁽٢) السامرة فرقة يهودية قليلة العدد نشأت في فلسطين بعد تدمير مملكة إسرائيل المنشقة على عرش سليمان بعد وفاته على يد «تغلت فلاسر» ملك اشور سنة ٢٧٧ق.م الذي أجلى اليهود عن فلسطين إلى نواحي شمال إيران الحالية وأحل محلهم بعض القبائل في سكنى عاصمة الملكة وهي مدينة السامرة القديمة التي بنيت على انقاضها مدينة نابلس العربية فيما بعد. وهذا التحديد لتاريخ السامرة يعتمد على نص الكتاب المقدس (الملوك الثاني/إصحاح ١٧) بشأن هذه الفرقة وهو يوضح أن السامرة حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود. والسامرة لا يعترفون سوى بأسفار موسى الخعسة، كما أنهم ينكرون نبوة كل من جاء بعده باستثناء هارون ويوشع، ويتخذون من جبل الجرزيم بالقرب من نابلس قبلة لهم يحجون إليها ويقدمون عليه الإضاحي بدلا من صخرة بيت المقدس زاعمين أن الله تعالى كلم موسى على هذا الجبل ويعتمدون على رؤية الأهلة. كذلك فانهم شديدو الحرص على حرمة السبت. ولا تزال أعداد قليلة منهم تعيش قرب نابلس حتى اليوم ــ انظر: قاسم عبده قاسم، أمل الذمة في مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٧) ص ٢١٣ ــ ص ٢١٧، وكذلك: حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي (معهد الدراسات العربية ١٩٧١)، ص ٢١٧ ــ ص ٢١٨، وكذلك: حسن ظاظا،

العلاقات والاتصالات مع الأهالى. وكان على المسيحيين أن يجمعوا المعلومات المحلية لكى يعرفوا المزيد عن الأماكن المقدسة والأساطير التى نسجت حولها. وهكذا كانت الدولة اللاتينية أكثر من مجرد مملكة يستقر بها المستعمرون، فانهم ارتبطوا باعتبارها وطنا Patria لهم. وكان السفر إلى الغرب يعتبر سفرا إلى الخارج، كما كانت العودة، مثلما فعل وليم بعد انتهاء دراسته، عودة إلى الوطن.

كانت الفكرة التي صاغها وليم عن الوطن Patria هي حافزه إلى الكتابة وتأليف تاريخه الكبير. حقيقة أن حب الوطن قد حرك الكثيرين من المؤرخين، بيد أنه كان شيئا جديدا في القرن الثاني عشر. إذ كان الوطن في العصور الوسطى يحمل معنى دينيا في غالب الأحوال: فما نحن سوى عابرى سبيل في هذه الحياة، مسافرين إلى وطننا الحقيقي في السماء. وحين كانت كلمة الوطن Patria تستخدم بغير هذا القصد فانها كانت تدل على «الاقليم» أو «محل الميلاد» على نحو ما يكتب اليوم في جوازات السفر. وقد فهم الرومان الوطنية، فقد كان الرجال يموتون في سبيل بالدهم، وحفظت لنا الدراسات الكلاسيكية المفهوم القديم لكلمة الوطن حيا، ولكن لم تكن هناك بؤرة يرتكز هذا المفهوم عليها. كذلك كتب المؤرخون عن أعمال الشعوب، والاسرات الحاكمة ولكنهم لم يكتبوا عن الأرض التي يعيشون عليها. ويبدو غريبا أنه تعين أن تتبلور الوطنية في المملكة اللاتينية بفلسطين، بسكانها المختلطين، وحكومتها المترهلة، ومستقبلها غير المأمون. وربما تكون ظروفها القاسية هي التي أذكت حاسة الامتلاك لدى المستعمرين. وحب الوطن فى كتاب وليم الصورى ليس مجرد ذكرى كلاسبكية، وإنما هو شعور ينبض بالحياة والقلق. ويتجلى هذا الشعور في الفاتحة التي يستهل بها كتابه، حيث يقدم الأسباب المعتادة للتأليف. وهو لا يستطيع أن يسقط السنوات المائة الأخيرة من الذاكرة الانسانية، لأن حبه لبلاده يدفعه إلى مواصلة الكتابة. وكان لابد أن تغطى «حلاوة أرض وطننا» على ما يشوبه من نقائص كمؤرخ.

أما الاستهلال الثانى لكراسته التى لم يكملها^(٧) فيشرح الأسباب التى دعته إلى تناول هذا الموضوع، لقد كان هناك الكثير مما أقنعه بالعدول عن الكتابة، وهو يقول إن أحدا لا يرغب أن يخوض في أعراض مرض بلاده وما أصابها من فشل، ذلك أنه من الطبيعى أن يمتدح المؤرخ بلاده ويثنى عليها بكل ما أوتى من وسائل. إلا أنه في ذلك الوقت لم يكن هناك ما يستحق أن يرويه. وعاد وليم ليردد مزاعم ليفى بأنه وصف ما كان الرومان القدماء عليه من نقاء وشجاعة ليكون ذلك عبرة لاسلافهم المستضعفين

 ⁽٧) تقصد المؤلفة الكراسة الثالثة والعشرين التي شرع في كتابتها بعد فترة الانقطاع والتي لم
 يستطع أن يتمها لوفاته.

المتخاذلين. لقد شجعه أصدقاؤه حين أوضحوا له أن ليفى ويوسيفوس تكلما عن المصائب بقدر ما تكلما عن الانتصارات، وذلك حين روى ليفى قصة الرومان وحين روى يوسيفوس قصة اليهود. فضلا عن أنه ينبغى على المؤرخ المتمسك بفضيلة مهنته أن يثبت ما حدث بالفعل، وليس ما كان يأمل في حدوثه. وهكذا شرع وليم في رواية قصة الكارثة. والواقع أنه لابد للكاتب الذي يتصدى للكتابة عن الأخطار المحدقة بالبلد الذي يحبه أن يتميز بفضائل غير عادية.

وأهم ما يتميز به وليم كمتخصص في الدراسات الكلاسيكية قدرته على السيطرة والتحكم في مصادره القديمة. فقد عدل من الصورة التي رسمها سويتونيوس للحاكم بحيث تلائم البناء الذي اقام عليه كتابه، فهو في البداية يروى قصة تأسيس الملكة اللاتينية ف بيئة اسلامية، ثم يحكى قصة الحملة الصليبية الأولى، ثم يثنى برسم صورة لشخصية كل ملك يتبعها بتقرير كرونولوجي (زمني) عن عهده. ثم ينسج هذه الضيوط ببعضها البعض بحيث تبدو شخصية الحاكم وهى تعكس ردود الفعل تجاه الاحداث الجارية. وفي هذا الكتاب تدب الحياة ثانية في أوصال ملوك بيت المقدس، اننا لا يمكن ان نلوم وليم لأنه لم يكن بينهم من يصلح مادة لصورة رائعة مثل تلك التي رسمت لهنرى الثاني، وتضمن الكتاب شخصيات وأماكن أخرى أيضا. ويقدم لنا وليم تقريرا جغرافيا عن كل مكان يذكره، كما يتتبع تاريخ هذا المكان منذ الماضى البعيد، ويرسم لنا كتابه صورة للأرض والفرنجة الذين قهروها. لقد بذل جهدا مضنيا في سبيل جمع المعلومات عن الحوادث التي لم يكن من شهودها. وكان هذا افضل ما يمكنه عمله. وقد حاول ان يكتب بموضوعية حتى ولو أغضبته التصرفات غير المسئولة. ولم يحاول اخفاء مشاعره الشخصية ولا بد ان وليم كابد الكثير لكي يحكي كيف ان الملك امالريك سأله فجأة ان يقدم من الاسباب ما يعلل عقيدة التجسد. وكانت حجة امالريك انه يؤمن بهذه العقيدة ولكنه يود أن يعرف ما هي أساليب الجدل التي يمكن للمرء أن يبرهن بها على صدق المذهب لشخص لا يقبله على أساس الايمان فحسب. لقد أحزن وليم وأغرق روحه في الأسى أن أميرا مسيحيا، من أبوين مسيحيين، يسأل في امر يسلم به جميع المسيحيين. ورغم ذلك فانه يروى لنا هذه المحادثة، لكى يبين عادة الملك في الكلام حين تصنيبه الحمى ويحتاج لمن يرافقه وهو على سرير المرض. ويلتزم وليم العدالة الكاملة تجاه ما تحفل به قصته من اثارة والام كابدها الوجود الصليبي في فلسطين. وبثمة ضوء من سحر الشرق يتألق في ثنايا وصفه لقصر أحد الخلفاء نقلا عن بعض من راه. كما انه يقدم تقريرا مثيرا لمشاعر الشفقة عن كيفية اكتشافه أن تلميذه -- الوريث الشاب للمملكة - قد أصيب بالبرص،

ويتميز وليم بما يتميز به أي رجل من رجال الكنيسة من عيوب وتحيز. أذ أنه كان

يكره ان يشارك في الحملات بنفسه، كما لم يكن يوافق على الأساقفة العسكريين، ولذا فانه يبلغ اقصى درجات الضعف اذا ما تناول التاريخ العسكرى. وهو يحط من قدر الأمراء الذين يقللون من الامتيازات الكنسية. وكان طبيعيا ان يمتعض كبير الاساقفة من الحريات التي يتمتع بها رجال الدين، لا سيما تلك التي يتمتع بها فرسان المعيد، لأن اعفاءهم من الخضوع للسيطرة الادارية قد خلق بعض الصعوبات. ومنعته غيرته من الداوية Templars من ان يوفيهم حقهم لما قاموا به من عبء الدفاع عن المملكة. ومن المدهش انه يتسم بالموضوعية في احكامه على ما عدا ذلك.

وقد تجلت افضل مؤهلات وليم كمؤرخ من خلال معالجته لمشكلة السببية. أذ أن دعوة البابا اوربان الثاني الى شن حملة صليبية قد بددت الظلام الذي كان مخيما على تلك الفترة المثقلة بالمتاعب، كما بعث أمالا جديدة في أنحاء العالم المسيحي. وأكن وليم فند رواية المؤلف المجهول عما اسماه «بالحركة العظيمة» التي بدأت الحملة الصليبية الأولى. فلم يكن كل صليبي يتصرف بوازع ديني. أذ أن البعض قد شارك في الحملة وحمل راية الصليب مجاراة لأصدقائهم، حتى لا يظهروا بمظهر الجبناء، كما حمل البعض الآخر راية الصليب لمجرد ما في ذلك من متعة، وفريق غيرهم فعل ذلك هربا من مطاردة دائنيهم، على حين كان فريق آخر مجرمين هاربين من العدالة. ورغم هذا الخليط من الدوافع المتضاربة فان الحملة الصليبية الأولى قد نجحت. وحين وصل وليم الى سبنة ١١٤٧ التفت الى الوراء مسائلا نفسه: لماذا لم يستمر النجاح؟ ولماذا يفشل الجيل الحالى في مواصلة الغزوات التي بدأها اسلافهم في فلسطين؟ وكانت الاجابة الواضحة عن هذا السؤال هي «التدهور الأخلاقي». وربما تكون هذه اجابة خاطئة: ذلك أن الفرنجة في فلسطين قد نشأوا على الدعة وحب الراحة - وغالبا ما يربط الأخلاقيون بين الراحة وارتكاب الخطايا ولم يعقب ذلك أن أنحط المستعمرون أو تدهورت أخلاقهم. بيد أن هذا التفسير الجاهز لم يقنع حتى وليم نفسه. ومن ثم فانه أخذ يفتش بنفسه عن أسباب أخرى فى تاريخ المسلمين. لقد كان الصليبيون الأوائل جنودا مجربين، يهاجمون بلادا كان أهلها قد تعودوا على حياة السلم ونسوا كيف يدافعون عن انفسهم، كما أن أعداء الصليبيين لم يكونوا متحدين سياسيا إذ حارب الأمراء المسلمون بعضهم بعضا دون ان يسلموا زمامهم لسلطة عليا. وكادت كل مدينة أن يكون لها حاكمها الخاص بها، ولذا فأن هذه الحصون سقطت بسهولة في أيدى الصليبيين. اما الآن فقد انعكس الحال، اذ توحد المسلمون تحت زعامة حاكم واحد (صلاح الدين الأيوبي) كما كان لدى هذا السلطان الأموال الوفيرة بفضل فتوجاته مما يسر له سبيل الانفاق على جيوشه. كذلك كان هناك العدد الوفير من الرجال الذين يمكن ضمهم للجيش. لقد واجه جيل الفرنجة الذي عاصره وليم بفلسطين من المتاعب أكثر مما واجه اسلافهم.

وتحقق وليم أن الهجدة السياسية والخزانة العامرة سوف تحسم الصراع بين القوتين. ولا يزال المؤرخون المحدثون الذين يتناولون تاريخ الملكة اللاتينية يأخذون بتجليل وليم لأسباب سقوطها. كما أنهم ينقحون روايته بالاشارة الى مظاهر الضعف الكامنة فى بنيان الحكومة اللاتينية فى بيت المقدس. فقد كان الملك يفتقر الى الموارد المالية، كما ان سيطرته على باروناته قد انهارت ابان القرن الثانى عشر. إن موافقتنا بشبكل عام على تحليل وليم للسببية هو المديح الذي يستحقه كمؤرخ.

أما جيوفرى الفيلهاردوينى فانه يتشابه مع المؤلف المجهول من حيث كونه جنديا وعلمانيا. وكتابه «غزو القسطنطينية» رواية شاهد عيان وقصة نجاح مثل كتاب «اعمال الفرنجة». إذ أن كلا من الكاتبين قد خطط لكتابه بالطريقة نفسها، فقد بدأ كل منهما بالكتابة عن الدعوة الى الحملة الصليبية، ثم استمر في روايته ليصف احداث الحملة وحصادها الظافر، وبعد ذلك يخلص الاثنان الى وصف ماترتب على الحملة من نتائج وآثار. وعند هذا الحد ينتهى التشابه بينهما. فلم يكن فيلهاردوين قائد شمبانى الجيوش.وكان له نصيبه في مفاسد الحملة الصليبية الرابعة. وبعد سقوط القسطنطينية تولى منصب «مارشال» في المملكة اللاتينية الجديدة، كما صارت امارة الكايا Acaia في بلاد اليونان له ولورثته من بعده.

وقد ألف جيوفرى كتابه بالفرنسية. ويعد «غزو القسطنطينية» من أقدم ما وصلنا من الروايات التاريخية النثرية المكتوبة بالفرنسية. وغياب السوابق التي يمكن المقارنة بها يعنى أن الكتاب حافل بالمشكلات بالنسبة للمؤرخين المحدثين. اذ اننا لا نعرف ما قَرأة المؤلف من كتب. لقد كان على معرفة جيدة بالخطوط العريضة للمؤلفات التاريخية الصليبية الأولى، ولا بد أنه استمع الى الملاحم العامية والقصص الخيالية. لانه يستعير تراثها الأدبى، ويطلب من مستمعيه «ان ينصتوا باهتمام» ويكرر عبارة الروايات الخيالية. فقد زرى الأحداث الحقيقية والمدهشة في قصة غزو جيش صغير الروايات الخيالية. فقد زرى الأحداث الحقيقية والمدهشة في قصة غزو جيش صغير وقصص المعجزات لكانت أفسدت تأثيره. كان جيوفرى ذا نظرة ثاقبة فيما يتعلق بالتفاصيل العسكرية، كما أنه يتميز بالقدرة على نقل انطباعه الى القارئ مباشرة. وكانت صياغة الخطب مصدر ازعاج بالنسبة له. ورغم انه كان يشارك في اجتماعات القادة؛ إلا أنه كان يقنع بملخص موجز لما قيل في هذه الاجتماعات دون أن يزينه بالزخارف البلاغية.

أما هدفه من الكتابة فهو أيضا مثار نقاش. فقد صنف مؤرخ و الأدب الفرنسي

الوسيط كتاب «غزو القسطنطينية» على أنه «ملحمة فاشلة». واذا ما اخذنا بهذا الرأى يكون جيوفرى قد وضع خطته على أساس أن يكتب ملحمة عن انتصار الصليبيين ولكنه انتهى الى خيبة امل لعينة حين فشل في ذلك. فقد اخفق الغزاة في مواجهة المقاومة البيزنطية في الريف والمدن الصغرى في شتى انحاء الامبراطورية. ويبدو مشهد الغزو الذى رسمه بقلمه غير مقنع، فاذا ما كان جيوفرى قد أراد أن يكتب ملحمة نثرية، فقد كان بمقدوره أن يتوقف والأمور مازالت على ما يرام. كما كان يجعل من الاستيلاء على القسطنطينية النهاية السعيدة لملحمته. فضلا عن انه لابد للملحمة من أبطال، وليس هناك أبطال فيما كتبه جيوفرى. والحقيقة أن دوج البندقية لعب دورا مشرفا في الغزو، بيد أن هذا الرجل المسن الضرير — رغم حكمته وشجاعته التى أشاد بها جيوفرى — لا يمكني أن يلعب دور البطل. وربما يمكن أن يجعل البطولة في هذه الرواية لجيوفرى نفسه، لولا أنه لم يكتب بقصد تمجيد ذاته وتضخم مآثره على حساب الآخرين، فهو يذكر اسمه وما ساهم به في الأعمال الحربية والدبلوماسية دون أن يجرد رفاقه من أمجادهم.

اما رأى المؤرخ في «غزو القسطنطينية» فهو انه كتاب دعاية. أذ ان جيوفرى أراد أن يغطى المؤامرة التي أدت إلى انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها لكي تحاصر عاصمة مسيحية وتستولى عليها. وهذا الرأى يلقى قبولا اكثر من غيره من الآراء. فلم يحدث أن أجمع كل معاصرى جيوفرى على إعتبار الحملة الصليبية الرابعة نصرا مجيدا. بل إن البعض كان يعتبرها عملا قدرا منذ البداية. إذ كان البابا قد منع مهاجمة المسيحيين، واكن البنادقة كانوا في وضع يسمح لهم بالسيطرة على مقاليد الأمور فلم يمتثلوا للحظر الذي فرضه. وتعهدوا بأن يقدموا للحملة ما تحتاجه من السيفن التي كانت قد أقلعت فعلا من البندقية. ولم يكن باستطاعة الصليبيين أن يدفعوا الثمن المتفق عليه، ومن ثم كان عليهم ان يوافقوا على خطط البنادقة اذا ما اردوا استخدام الأسطول البندقي، ولما كانت القسطنطينية هي العقبة الرئيسية في سبيل سياسة التوسع التجارية التي انتهجها البنادقة، فقد استغل الدوج ومواطنوه جشع الصليبيين وطمعهم في الأرض والغنائم لكي ينتهزوا فرصة الشجار الذي نشب بين افراد الأسرة الحاكمة في المدينة. وتحولت الحملة الصليبية عن خط سيرها وتم الاستيلاء على القسطنطينية التي أقيمت بها أمبراطورية لاتينية. والحقيقة أن البنادقة جلبوا على أنفسهم عقوبة الحرمان الكنسى قبل أن تطأ أقدامهم تربة بيزنطة، لأنهم ارغموا المىليبيين على مساعدتهم ف الاستيلاء على مدينة زارا Zara المسيحية ف دلماشيا وهم في طريقهم صنوب الادرياتيك، ولم يصر البابا على الحظر خوفا من أن يفقد ما كان له من سيطرة ضئيلة على الصليبيين.

ومن المؤكد أن جيوفري يشوه قصته باخفاء بعض الحقائق المعروفة. فهو يحاول التمويه والتغطية على دور البنادقة في غزو القسطنطينية وصدور قرار الحرمان ضدهم، وهو يقدم لنا تقريرا غير عادل عن الانشقاق الذي حدث في صفوف القيادة الصليبية. فالحقيقة أن أحدا من اولئك القادة لم يكن ينوى الذهاب بقواته الى الأراضى المقدسة، لأنه لو فعل ذلك سيكون هراء لا معنى له، كما أنه لن يستطيع مساعدة مملكة عكا. لقد كان الهدف هو ضرب القوى الاسلامية في أقوى نقاطها، أي القواعد البحرية في مصر. كما أن الصليبيين من ناحية أخرى، كانوا يريدون الذهاب في رحلة حج مسلحة من الطراز القديم الى الأراضي المقدسة. لقد ضلل القادة جنودهم حين أعلنوا انهم ذاهبين الى «ما وراء البحار»، لأن هدف الحملة لم يكن محددا، ويلتزم جيوفرى الامانة وهو بخبرنا بذلك. وقد حدث الانقسام حين اقترح تغيير وجهة الحملة الى القسطنطينية. فقد عارض بعض القادة ذلك الأمر في عناد، ورفضوا أن يرافقوا البنادقة والصليبيين الأخرين. وبما أنهم كانوا من القلة بحيث لا يمكنهم ان يهاجموا مصر، فقد ابحر هؤلاء المعارضون الى فلسطين حيث يمكنهم ان يبذلوا ماف وسعهم. ويصورهم جيوفرى على أنهم مخربون يعرقلون مسيرة الحملة الصليبيية، وهم «اولئك الذين أرادوا أن يبثوا الفرقة في صفوف الجيش». أما «الصليبيون الحقيقيون»، فهم جيوفرى واصدقاؤه. وهو يتجاهل الدوافع الدينية التي منعت هؤلاء من شن الحرب على اخوتهم المسيحيين. ويجب الاعتراف بانه كان محقا في قوله إنهم لم يحققوا إلا القليل في فلسطن.

على أية حال، فإن من الخطأ أن نستبعد هذا الكتاب على أساس أنه دعاية مجردة. فالبحث في القصة المتشابكة الخيوط للمؤامرة التي أدت إلى اقتراح تغيير مسار الحملة، يوحى بأنه لم تكن هناك مؤامرة ينبغى تغطيتها، فلم يكن بوسع البنادقة أن يحيكوا مؤامرة تغيير مسار الحملة لأنهم لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالتنبؤ بما سوف يحدث. كذلك كانت ثمة اخطار عديدة ماثلة. ومن الافضل أن نفسر سلوك صليبيي الحملة الرابعة في ضوء تعنتهم في المساومة وما وصموا به من انتهازية ماكرة لافي ضوء التآمر المدبر سلفا. وعلى أية حال، فإن الإمبراطورية اللاتينية كانت أمرا واقعا حين كتب جيوفرى كتابه سنة ١٢٠٧، كما كان البابا قد اعترف بهذه الامبراطورية ولم يكن هناك سبب يدفع جيوفرى الى تبرير مسلك البنادقة وحلفائهم الصليبين، رغم أنه حاول أن يسدل ستارا من الغموض على الوجه المسيء من قصة انحراف الحملة الصليبية الرابعة (٨) الى القسطنطينية.

⁽۸) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر: الدكتور سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٩٢٩ ـ ص ٩٤٠، وانظر ايضا: ج.م.هسى، العالم البيزنطى، (ترجمة الدكتور رافت =

والرأى الأكثر حداثة ورواجا عن «غزو القسطنطينية» يتميز بأنه أكثر بساطة أيضا: إذ يعتبر أن الكتاب «مذكرات عسكرية لقائد ناجح». وما يقدمه جيوفرى ف كتابه يعد تحيزا أكثر منه تزويرا، وهو الأمر الذى يمكن للمرء أن يتوقعه من كتاب من هذا النوع. وهذا الرأى يجهز على نظرية «الملحمة الفاشلة». إذ يبدو من الطبيعى أن يسجل أحد القادة تفاصيل العمليات التي جرت لتصفية جيوب المقاومة بعد المعركة، على نحو مافعل جيوفرى. وليست هذه انتكاسة بالنسبة له كجندى؛ إذ أنه من المكن لأى قائد أن يهون من قوة حركات المقاومة كما هون جيوفرى من شان المقاومة البيزنطية ضد اللاتين.

ومذكراته قيمة وثمينة كموضوع جديد، والأهم من ذلك أن كاتبها رجل علمانى. إذ أنها تكشف لنا عن عقلية ورؤية أكثر علمانية من عقلية ورؤية المؤلف المجهول. ويبدو اهتمام جيوفرى بالدين ضئيلا بالقدر الذى لا يجعله يجشم نفسه عناء مجرد انتقاد رجال الدين. وكان تدخل البابوية في الشئون العسكرية يضايقه؛ كما كانت المنازعات الكنسية مصدر تسلية بالنسبة له. فقد كان المندوبان البابويان اللذان رافقا الصليبيين من رؤساء الأديرة السسترشية. وانحاز أحدهما إلى جانب «الصليبيين الحقيقيين»، كما يسميهم جيوفرى، بينما وقف الآخر معارضا تحويل الحملة. وقد بدا الفرق في موقف الاثنين أمرا مضحكا في عيني جيوفرى.

ولجيوفرى نظريته الخاصة في السببية، فهى القدرية بكل بساطة. فكل ما يحدث بمشيئة الرب. وقد صادر هذا الموقف على أى تحليل جاد للأسباب. والواقع أن رؤيته العلمانية لم تقده إلى التفكير العميق.

ولنتحول الآن إلى الحملة الصليبية الألبيجنسية التى وجهت ضد الهراطقة في جنوب فرنسا. ولم يخلف أولئك الهواطقة أية مؤلفات أو مدونات تاريخية، وهو أمر لايدهشنا. إذ كان الكاتاريون (المتطهرون) يؤمنون بالثنائية أى أنهم كانوا يؤمنون بأن الشيطان هو الذى خلق العالم المرئى. ومن ثم فإن كتابة تاريخ هذا العالم ستكون مجرد تشهير بفضائحه ومخازيه. وثمة جماعة أخرى من الهراطقة هم الوالدنسيون Waldenses (نسبة إلى قائدهم فالديس Valdés) أو «رجال ليون الفقراء»، كانوا أكثر قربا من البروتستانت في معتقداتهم. وربما يكونوا قد كتبوا تاريخ طائفتهم، ولكنه لم يصلنا، ومن المحتمل أنهم انشغلوا بالصراع ضد الكاتاريين والكاثوليك بحيث لم

⁼ عبد الحميد، القاهرة ۱۹۷۷)، ص ۲۰۷ - ۲۱۳. انظر أيضا المقدمة التي كتبها M.R.B. Shaw لكتاب جيوفري تحت عنوان:

Joinville and Villehardouin, chronicles of the Crusades, Penguin Classics, 1973. (المترجم)

يتجهوا إلى كتابة التاريخ. ولذا فإننا نعتمد على المؤرخين الكاثوليك في التعرف على قصة الحرب الصليبية ضد الهراطقة في أراضي جنوب فرنسا. ومن حسن الحظ أنهم تناولوها من وجهات نظر مختلفة أشد الاختلاف.

ومؤلفنا الأول راهب سسترشي هو بطرس راهب دير فودي سيرناي Vaux de وكان عمه هو مقدم الدير، وقد أخذه معه حين ذهب برفقة الحملة الصليبية الرابعة كمندوب بابوي. وهو المندوب الذي وصمه جيوفري الفيلهاردويني بأنه مخرب لانه عارض تغيير مسار الحملة وأصر على مواصلة السير إلى الأراضي المقدسة. وفي سنة ١٢١٢، حين عاد العم وابن أخيه، عين البابا انوسنت الثالث العم مندوبا بابويا في رفقة الحملة الصليبية الألبيجنسية (ومن حسن الطالع أن البابوات استخدموا الرهبان السسترشيين كمندوبين ومبعوثين إلى الهراطقة). وهكذا صحب بطرس عمه ثانية. وبذا توفرت له تجربتان في الحروب الصليبية وقد ساهم فيها رغم أنه لم يحارب فعلا لكونه راهبا.

لقد حققت الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين نجاحا باهرا. إذ اخترق بارونات شمال فرنسا قوات الجنوب الغير مدرية والغير منظمة كما تشق السكين طريقها في قطعة من الزبد. وتم تجريد نبلاء الجنوب من أملاكهم، وانتزع قائد الحملة الصليبية سيمون دى مونتفور Simon do Montfort (وهو والد الايرل سيمون الذى خر صريعا في معركة ايفيسهام Evesham امارة لنفسه في الجنوب. وصار عم بطرس اسقفا لمدينة كاراكسون Carracassonne سنة ١٢١٤. وربما يكون ابن أخيه قد مكث معه كسكرتير يدير شئونه. وعلى أية حال، قضى بطرس معظم وقته في جنوب فرنسا بعد كسكرتير يدير شئونه. وعلى أية حال، قضى بطرس معظم وقته في جنوب فرنسا بعد عند سنة ١٢١٨. وربما يكون بطرس قد مات أو توقف عن الكتابة لأن سيمون دى مونتفور قتل في هذه السنة. فقد كان سيمون هو بطل بطرس الذى كان يكن له الاعجاب منذ الحملة الصليبية الرابعة حين تولى سيمون قيادة القوات التى واصلت السير إلى فلسطين.

وكتاب «تاريخ الحروب الصليبية الالبيجنسية » عبارة عن رواية كاملة متصلة ومدونة وفقا للتسلسل الزمنى. وكان بطرس موهوبا من حيث قوة ملاحظته وقدرته على اللوصف. وقد عرف بأنه «مصور عظيم للاطلال» إذ كان هناك الكثير مما يستحق التصوير في المنطقة المخربة التي كان يسكنها الالبيجنسيون terra Albigensium. وكان يبتهج كما يبتهج الجندى بالتحصينات القوية. ولذا فإن مدينة كاراكسون قد حازت رضاه كقلعة، حتى وهي ماتزال بيد الاعداء. ويمكننا من خلال تعليقاته التي تنبض بالحيوية أن نعرف كيف كانت مناظر الجنوب وطرقه تبدو غير مألوفة في عيون

سكان الشمال. وإذا ما قارناه بمؤرخى الحملات الصليبية التى اتجهت صوب فلسطين، يبدو لنا بطرس أقرب شبها بالمؤرخ المجهول صاحب «أعمال الفرنجة». لقد كان ينظر إلى الهراطقة بنفس نظرة المؤلف المجهول إلى السلمين. فقد كان الهراطقة فى رأيه أتباعا للشيطان، ولذا فإنهم جديرون بما حل بهم من نوائب.

وغرض بطرس المعلن من الكتابة مبين في مقدمة الجزء الأول من كتابه، الذي يتوجه به إلى البابا انوسنت الثالث. فهو يقول إن الكتاب سوف يحفظ أعمال الرب المدهشة: ذلك أن الصليبيين قد انقذوا سفينة المسيحية التي كانت على وشك الغرق في جنوب فرنسا، أما غرض بطرس غير المعلن، والذي يحتمل أن يكون رؤساؤه قد اقترحوه، فهو أن يكسب تأييد البابا لسيمون وحلفائه. لم يكن أنوسنت الثالث قد تصور امكانية تجريد نبلاء الجنوب تماما من أملاكهم لصالح الصليبيين. ولجأ كونت تولوز إلى روما حيث بدا وكأن أنوسنت الثالث سوف ينصفه. لقد كان بطرس يأمل في التأثير على البابا بحيث يقف إلى جانب سيمون ضد كونت تولوز. وقد بني دعايته على أساس أدانة الهراطقة ووصم الكونت وغيره من نبلاء الجنوب بأنهم هراطقة، وقد كشف بطرس عن المحقيقة حين قال إنهم تسامحوا مع الهراطقة في مقاطعاتهم، إلا أنه كانت لدى هؤلاء النبلاء أسباب أكثر تعقيدا مما جاء في كتاب بطرس لتبرير هذا التصرف من جانبهم. حقيقة أن البعض قد تغزل بالهرطقة. وأن نساءهم فعلن ما هو أكثر من مجرد التغزل بها، ولكن تعميم هذا الاتهام فيه ظلم كبير.

واستخدم بطرس تاريخ الجنوب السابق على هذه الفترة بشكل يخدم قضيته؛ فقد تتبع تاريخ الهراطقة منذ غزو القوط الغربيين لجنوب فرنسا واستقرارهم فيها حينا من الدهر. فقد صارت تولوز (عاصمة القوط الغربيين) مركزا للهراطقة منذ ذلك الحين. ولم يزعجه حقيقة أن القوط الغربيين كانوا أريوسيين ولم يكونوا مانويين أو أن الاريوسية لم تكن عقيدة ثنائية المضمون. وتبدو مقولته بأن نبلاء تولوز كانوا دائما من الهراطقة غريبة في ضوء ماقاموا به من أعمال سجلت لهم كمحاربين في الحملات الصليبية إلى الارض المقدسة، فقد لعب الكونت ريموند دورا قياديا في الحملة الصليبية الأولى، كما أن ورثته أهملوا شئون دوقيتهم في سبيل السير على دربه. وعلى أية حال، فإن بطرس وهو يروج لدعايته، كان يصدقها بالفعل. ولم يكن يفهم عقلية الجنوب، كما أنه افتقد إلى الحس الانساني. وبدا له أنه يستحيل أن يستطيع أحد الكاثوليك تجاهل واجبه في القضاء على الهراطقة في مقاطعته. وهكذا، كان أمراء تولوز هراطقة في نظر بطرس الذي بالغ في تبسيط الأمور. هذا الموقف التقليدي الجامد نفسه يبرز في مدونة تاريخية لاتينية قصيرة كتبها محقق دومنيكاني اسمه وليم البيلهيسوني Wiliam of (ت ١٢٦٧)، وهو من أهل الجنوب أصلا، ولكن وظيفته كمحقق دفعته إلى

عدم مساندة الهراطقة. ومن ناحية أخرى، فإنه يعرض لنا صورة مختلفة عن تلك التي يعرضها بطرس. فقد وفد الراهب ـ الجندى إلى الجنوب في ركب جيش الغزاة حيث كان على الراهب الدومنيكاني أن يعمل بين الهراطقة وغير المؤمنين مغامرا بحياته، وهو يسجل تجاربه كعضو في جماعة ديرية في مصطلحات بسيطة. فقد قام عدد قليل من الكاثوليك المخلصين الاتقياء بمساعدتهم حين هددتهم الجموع المعادية بالقتل جوعا. وفي سنة ١٢٢٩ أسس البابا جامعة في تولوز لدحض تعاليم الهراطقة. وكان المذهب الكاثوليكي يبدو غريبا بالنسبة للطلبة لدرجة أن الضحكات كانت تدوى عالية في قاعة المحاضرات أثناء شرح أصول هذا المذهب. وينبغي على السائح الذي يزور «كنائس الحاضرات أثناء شرح أصول هذا المذهب. وينبغي على السائح الذي يزور «كنائس الحصون» في لانجدونك Languedoc أن يقرأ مدونة وليم. لأنها ستوضح له السبب في أن الكاثوليك قد اضطروا لبناء معاقل لأنفسهم تكون بمثابة ملاجيء تستطيع مقاومة الحصار. وكان اهتمام هذا الراهب الدومنيكاني بأسباب انتشار الهراطقة أقل من المتمام بطرس السرنايي: ذلك أن الشيطان كان سببا كافيا في رأيه.

ويبزغ ضوء السببية الهادىء فى ثنايا المدونة التاريخية اللاتينية التالية. وكاتبها هو وليم البيلورونسى William of Puyalurens، وقد كتبها فى وقت كان من المكن فيه إعادة النظر فى الحوادث بُهدوء أكثر. وكان من أهل الجنوب مثل بيلهيسون، واكنه لم يكن محققا مثله، وانما كان يحمل لقب أستاذ، بيد أننا لانعرف المكان الذى تلقى فيه دراسته، فقد كان قسا علمانيا استخدمه اسقف تولوز كموثق عقود. وربما يكون قد عمل فى وقت سابق مع الأسقف فولك Fulk اسقف تولوز الذى مات سنة ١٢٣١. ثم عمل قسيسا خاصا لدى كونت تولوز. وقد فرغ من كتابة الجزء الأول من كتابه بعد سنة ١٢٣٤، وهو يغطى حوالى خمسين عاما من تاريخ اقليم الجنوب الفرنسى منذ ظهور الهرطقة حتى مرور خمسين عاما أما الجزء الثانى الذى يستمر حتى سنة مدونة تاريخية، وهو عبارة عن سجل مشوش لا يخصنا فى شىء. وقد اسمى بيلورنس كتابه مدونة تاريخية، وهو عبارة عن رواية حقيقية بغض النظر عن النمط المزعوم. وقد كتبه لجمهور عريض، وليس لصفوة من الباحثين والعلماء والنبلاء. كان هدفه كما حددته كلماته هو:

«أن أثبت بعض مارايته أو سمعته من جيرانى حتى يفهم أبناء الطبقات العليا والوسطى والدنيا حكمة الرب وعدله الذى جعله يصب جام غضبه على هذه البلاد جزاء على ما ارتكبه أهلها من خطايا».

وبينما نتوقع أن نسمع رعد التهديد والوعيد الذى يميـز كلام المبشـرين، إذا ببيلورنس يعكف على تحليل أسباب الهرطقة. فإن اعتياده عـلى أساليب الحيـاة فى الجنوب جعلته يتميز على بطرس السرنايي. وبطل مدونته ليس سيمون دى مونتفور

المتهور، بل فولك اسقف تولوز الذى كان راهبا وواحدا من دعائم الاتجاه المحافظ، بيد أنه كان حكيما متزنا. وبيلورنس مولع باقتباس ردوده الدالة على سرعة البديهة وذلاقة اللسان. ففى ذات يوم. بينما هو جالس على أسوار تولوز سمع بعض الهراطقة يصيحون بأنه «أسقف الشيطان» فأجابهم بقوله «هذا صحيح تماما، أنتم الشياطين وأنا أسقفكم». كما كان بيلورنس قادرا على تقدير الدوافع وراء أية جريمة سياسية. فقد شنق ريموند أمير تولوز شقيقه الكونت بلدوين، ويلتمس مؤرخنا العذر لريموند في خيانة بلدوين لشقيقه _ إذ أنه كان قد انضم إلى الشماليين لأن ريموند لم يفعل شيئا من أجله _ ولكن، من ناحية أخرى، كان لريموند مبرره السياسي في قتل أخيه. ولأن بيلورنس درس السياسة فإنه كان ينقض على الهفوات السياسية والدبلوماسية، فقد كان باستطاعته أن يميز بين الدعاية والحقيقة. وكان تعاطفه موجها إلى الملكية الفرنسية على الدى الطويل، كان الكابيون غرباء على الجنوب الفرنسي، ولكن غزوهم لهذه البلاد المضطربة أرسى دعائم القانون والنظام، والحقيقة أن بيلورنس كان واقعيا في تناوله لهذا الموضوع.

وقد شخص الهرطقة على أنها مرض أخلاقى أصاب مجتمع جنوب فرنسا بأسره. وكان سبب المرض هو التقصير، أى أن رجال الكنيسة قصروا في أداء وإجباتهم في تعليم الشعب لأصول المذهب الكاثوليكي. كما أنهم لم يكونوا قدوة حسنة للناس. وكان للهراطقة مظهر طيب. وبذلك تمكنوا من كسب العديد من الاتباع. أى أن الهرطقة كانت تعبيرا عن عدم رضاء الناس عن الكنيسة. وعاش هذا التشخيص طويلا. بحيث أصبح «فساد الكنيسة» هو أكثر الإجابات شيوعا على السؤال القائل «لماذا ازدهرت الهرطقة في جنوب فرنسا أكثر من أى مكان أخر؟». ولم يحدث سوى منذ زمن قريب أن بدأ المؤرخون يشكون فيما إذا كانت كنيسة جنوب فرنسا بالذات هي التي تستحق النقد، وبدأوا يفتشون عن أسباب أخرى. لقد تولت أجابة بيلورنس الرد على السؤال المطروح على مدى عدة قرون. وقد تكون إجابة بسيطة للغاية، ولكنها تصور الموقف كما كان بيدو لأحد المراقبين العقلانيين.

ويمضى بيلورنس قدما فيناقش انتشار الهرطقة. لقد كانت مرضا داهما. كان أبناء هذه الطائفة يعملون خفية فى بادئ الأمر، ثم شجعهم نجاحهم على التبشير لذهبهم علانية. وهو يشرح ما كان يثير حيرة القادمين حديثا إلى جنوب فرنسا، ابتداء من بطرس السرنايي، وهو: لماذا عاش الكاثوليك جنبا إلى جنب مع الهراطقة دون أن يحاولوا أن يجعلوهم يعتنقون الكاثوليكية أو حتى يضطهدوهم؟. لقد اعتبرهم بطرس جميعا هراطقة. إلا أن بيلورنس يجيب عن هذا السؤال المحير بأن نجاح الهراطقة قد خلق دائرة شريرة أثمة. فرجال الكنيسة، الذين لم يحاولوا كسب احترام الناس،

انحطوا إلى درك سافل لدرجة جعلت الفرسان يحجمون عن الحاق أبنائهم بسلك الأكليروس. ومن ثم تناقص عدد القساوسة. ولم يكن بوسع الأساقفة إقصاء القساوسة الفاسدين، أى أنهم «كانوا يقبلون القساوسة بعيوبهم». وازداد تدهور مستويات التعليم والتوجيه الكنسي. ولم يكن باستطاعة كنيسة تعانى مثل هذا القصور في أعداد القساوسة العاملين أن تقوم بتنظيم العلمانيين. كما أن فرسان الجنوب الفرنسي قد انصازوا إلى الطائفة التي حازت إعجابهم. وكان الهراطقة يعقدون اجتماعاتهم علنا ويكسبون ولاء أتباعهم. ورواية بيلورنس التحليلية عن طريقة انتشار الهرطقة تجعل من السهل علينا أن نفهم السبب في تخوف نبلاء الجنوب من استخدام القوة. فقد كانت مهاجمة الهراطقة تعنى تدهور الموقف بأسره، كما أنها ستغضب جميع رعاياهم سواء كانوا من الكاثوليك أم من الهراطقة. وقد استطاع بيلورنس أن يصور لذا الموقف بطريقته الوصفية البارعة.

وثمة شاعران كتبا باللغة البروفنسالية نختتم بهما دراستنا عن المؤرخين في هذا الفصل. بدأ أحدهما «أنشودة الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين» واكملها الأخر. ويخبرنا الشاعر الأول أنه كان استاذا للأداب وقسيسا، واسمه وليم الطليطلى ويخبرنا الشاعر الأول أنه كان استاذا للأداب وقسيسا، واسمه وليم الطليطلى النبلاء. وبدأ قصيدته بحوادث سنة ١٢١٠ وتوقف بها عند سنة ١٢١٣، ربما لأن حاميه الكونت بلدوين كان قد لقى مصرعه على يد أخيه اسقف تولوز في تلك السنة. وكانت هناك أشعار أخرى كتبت بالعامية في موضوعات تاريخية لأن وليم الطليطلي يقول إنه صاغ قصيدته على غرار قصيدة صليبية هي «أنشودة انطاكية» التي لم يقول إنه صاغ قصيدته على غرار قصيدة صليبية هي «أنشودة انطاكية» التي لم يتنافسوا مع المهرجين والمثلين الصامتين الذين لم يكونوا يقدمون سوى المساهد يتنافسوا مع المهرجين والمثلين الصامتين الذين لم يكونوا يقدمون سوى المساهد الهزلية الرخيصة. وكان على الواحد منهم أن يقوم بالدعاية لنفسه، وقد كتب الناشر على سبيل التعريف بوليم ما نصه:

«بمجرد أن بدأ وليم قرض انشودته، فإنه لم ينم تقريبا حتى فرغ منها. إنها جيدة الصياغة وحافلة بالاشعار الرقيقة. تجشموا عناء السماع وسوف تعرفون جميعا، الكبير والصغير، عدة أمور معقولة ومتناولة بشكل طيب، لأن بطن المؤلف تغص بالاقوال الجيدة. إن ذلك الذي لم يعرف القصيدة ولم يحس بقوتها إنما يجهل حجم ما فاته».

ويصف وليم نفسه بأنه «رجل حائق»، ويزعم أنه تنبأ بالكوارث التي كانت تحلق في سموات جنوب فرنسا عن طريق نوع من أنواع السحر الأبيض، فيقول:

«لقد كان يعرف من خلال دراسته لعلم الجيومانسي geomancy أن الأرض

سوف تحترق وتخرب بسبب المعتقدات المجنونة التى سمح بتسربها إليها، وأن سكان المدن الأغنياء سوف يجردون من بضائعهم، وأن الفرسان سيرحلون منفيين إلى بلاد بعيدة غريبة».

بيد أن رواية القصة تكشف عن أن «نسيجها جيد»، ذلك أن الجانب المأساوى منها فقط هو الذي يجعلها أكثر اقناعا. ولا يحاول الراوى إرضاء نفسه، فقد تصرف الصليبيون في وحشية، إلا أنه كان جنونا من الجنوبيين أن يسمحوا للهرطقة بالانتشار. أما الأشرار الحقيقيون في رأيه — ولابد أنهم كانوا كذلك في رأى مستمعيه — فهم الريفيون الذين يجهزون على الجرحى بالعصى والحجارة لسرقة ما تحمله الجثث. لم يكن لهم أدنى حق في التدخل في الجربي الدائرة بين السادة. وتذكرنا نظرية للجنف السببية بكتاب «غزو فلسطين» فعنده أن ما يجب أن يكون سوف يكون «لأن الناس لا يستطيعون أن يغيروا أمرا أراده الله». وهذا النوع من التاريخ هو الذي كان يكتب بقصد التسلية.

واستكمل الاغنية شاعر آخر افضل منه استمر بها من سنة ١٢١٣ حتى سنبة ١٢١٩/١٢١٨. وتوقفت الأغنية عند حادثة استعداد أهل تواوز الدفاع عن مدينتهم ضد الأمير لويس الفرنسي. وهو يقدم لنا عينة من «تاريخ الحنين إلى الماضي»، على حد التقسيم الذي وضعه كروتشه لانماط الكتابة التاريخية. وكل معلوماتنا عن الشاعر مستنبطة من اشعاره، ويدخل ف دائرة الترجيح وليس التأكيد. فقد كان أستاذا للآداب وقسا مثل وليم الطليطلي، وكان مرتبطا ببلاط الكُونت ريموند السابع أمير تولون الذي ذهب بصحبته إلى اللاتيران سنة ١٢١٥ حيث ذهب ريموند لمقابلة البابا في محاولة لاستعادة أملاكه وحقوقه المصادرة. وبدأ الشاعر في كتابة قصيدته عقب سنة ١٢١٨. ولو أنه استطاع أن ينهى القصيدة، لكان من المحتمل أن يضع أسمه عليها لكنه لم يفعل. وليس ثمة شك في مندق أحاسيسه. إذ كان يدافع عن الجنوبيين ضند الصليبيين، ولم يكن الشاعر المجهول متهرطقا أو معاديا للبابوية، ذلك أنه كان يكتب باعتباره كاثوليكيا مؤمنا، كما كان يؤمن بان الرب يقف إلى جانب أولئك الذين يدافعون عن أراضيهم ضد الأجانب. وقد استخدم الشماليون الحملة الصليبية ضد الهراطقة كمبرر لهجماتهم الطامعة على أراضي الجنوب، إذ أنهم تظاهروا بان كل الجنوبيين هراطقة، وهو أمر غير صحيح على الاطلاق، ويظهر فولك - اسقف تولوز يطل وليم بيلورنس - كمنافق معسول الكلام لأنه يتعاون مع الصليبيين. أما سيمون دى مونتفور الذى جعله بطرس السرنايي بطلا لقصته وخلع عليه أكاليل الشرف وأثنى على طهارته، «فقد اكتسب شهرته لأنه ذبح من النساء والأطفال أكثر مما ذبح من الرجال ، على حد تعبير الشاعر المجهول.

وفضلا عن الهزيمة، تعرض الجنوبيون المذابح ونزعت منهم الملاكهم. فقد قلب الشماليون القيم راسا على عقب وانتهت اساليب الجنوبيين في الحياة. ويجسد الشاعر قيمه التي يسميها Prix et parage فكلمة Prix تعنى الشهامة أو فضيلة الفرسان. بينما تعنى كلمة Parage طبقة البلاط في الجنوب التي كانت تغدق المكافأة القيمة على من يتمتع بفضيلة الشهامة والبطولة. إذ كان فرسان الجنوب ميالين إلى التجمع في بلاط سيدهم الاقطاعي بدلا من العيش في ضياعهم، لأن ذلك كان يجعلهم مشتردمين بشكل لا يمكنهم من تقديم المسائدة للأسرة الحاكمة. وقد كانت سيدات البلاط مصدر الهام للقصائد التي اشتهرت باسم «غراميات البلاط». كذلك كانت البلاطات الجنوبية تحبذ للقصائد التي اشتهرت باسم «غراميات البلاط». كذلك كانت البلاطات الجنوبية تحبذ نمطا من الثقافة أقل طرافة وتألقا. وقضي دعاة المساواة الاجتماعية الشماليون ذوى القلوب القاسية على قيم الـPrix et Parage. وحين مات سيمون لمعت في الأفق بارقة أمل، فقد عادت الفضيلتان تتألقان ثانية، بيد أن تالقهما لم يستمر طويلا. لأن الموجة أمل، فقد عادت الفضيلتان تتألقان ثانية، بيد أن تالقهما لم يستمر طويلا. لأن الموجة التالية من الغزاة أجهزت عليها تماما.

لقد كانت للهزيمة انتصاراتها في ميدان التدوين التاريخي، وكشف مؤرخو الغزوات والحروب الصليبية في وضوح عن أن الهزيمة معلم أفضل من النجاح، فقد وجد الكتاب الذين اضطروا الى الكتابة عن الهزيمة أو الجمود، أو فشل الكنيسة في التصدى للهراطقة - نقول إن هؤلاء الكتاب وجدوا أنفسهم مدفوعين بموضوع بحثهم إلى التفكير في السبب، وتخلى التعصب عن مكانه للتقييم الهادئ، ولم يعد التدهور الأخلاقي والعقاب الالهي كافيين لتفسير أسباب الفشل والاخفاق، فكثير من مؤرخينا غاصوا إلى اعماق أبعد من ذلك، فأدم البريميني، وهيلمولد، وجيرالد الويلزي، ووليم البيلورنسي جميعا يبحثون عن الأسباب البشرية والعوامل الانسانية وراء ما يسجلون أحداثه من كوارث ونكسات.

وكما يتميز هذا الفريق من المؤرخين باهتمامهم بالسببية، فانهم يتميزون أيضا بحرارة العاطفة. وقد تطلب الأمر أن تحدث الهزيمة القاسية لكى تخرج هذه المرارة التى نحسها في الجزء الثانى من « أنشودة الحرب الصليبية الألبيجنسية ». إذ يتحدث البينا المهزوم في مؤلفه التاريخي على نحو ما فعل بندكت السوراكتي عندما غيزا السكسون روما، ومثلما تفعل المدونة الأنجلو – سكسونية وهي تتحدث عن الغزوات الدانمركية والغزو النورماني لانجلترا. إلا أن أحدا لا يمكن أن ينافس شاعر « أنشودة الحرب الصليبية » في فن إثارة الشفقة.

الفصل العاشى

القرن الثالث عشر: نهاية المطاف

رغم أن القرن الثالث عشر لم يكن فترة خبرة وتجربة في مجال التدوين التاريخي، فإن الموضوعات التقليدية تطورت وعادت الحياة تدب في أوصال بعضها إبان هذا القرن. وتقف المدونة التاريخية الديرية مثالا فريدا في نوعه. إذ أنها ازدهرت وبلغت أوجها في انجلترا القرن الثالث عشر بدرجة تركت تأثيرها على الرؤية الانجليزية للتدوين التاريخي الوسيط بشكل عام. والطالب الانجليزي الذي يدرس التاريخ الوسيط ينشأ على دراسة جوسلين البراكلوندي المحلوناي المواتد وماتيو بباريس Mathew Paris إذ أن أحدهما يقدم التاريخ المحلى بينما يقدم الآخر تاريخا «عالميا».

وكتاب جوسلين المسمى «أعمال سمسون الراهب» ـ مقدم دير بيورى سان ايدموندز في سوفواك ـ معروف جيدا بحيث لا نجد ضرورة لوصفه هنا. وليس هناك كاتب واحد، أيا كان عصره، يستطيع أن يتفوق على جوسلين في تصويره للشخصيات؛ إذ أننا نتعرف على سمسون مقدم الدير بشكل أفضل مما تعرفنا به على أي مقدم دير انجليزي آخر في القرن الثالث عشر. فنحن نجرب ردود أفعال الرهبان في دير بيورى إزاء حكمه المسيطر. كما نعايشهم ونشاركهم أمالهم ومخاوفهم تجاه صالح جماعتهم. ويقدم الكتاب مجالا كاملا للدارسين الذين يريدون فهم أعمال كل من الحكومة المحلية والحكومة المركزية في مطلع القرن الثالث عشر، لأن جوسلين يقدم التفاصيل القيمة عن العلاقات بين الملك والدير من ناحية، وبين الدير والمقيمين به من ناحية أخرى.

وثمة كاتب مجهول من بيورى فعل ما يكاد يتطابق مع ما فعله جوسلين، في كتابه المسمى «انتخاب هوف». وهو عبارة عن تقرير عن انتخاب كان محل نزاع لاختيار مقدم دير بيورى قرب نهاية حكم الملك حنا (١١٩٩ – ١٢١٦). ويقدم كل من الكاتبين نفس الجماعة المشاغبة المعتدة بنفسها، كما يصف كل منهما ما كان ينتاب الرهبان من عصبية حين كانت تهب عليهم رياح الغضب الملكى الباردة. ولم يقم مؤلف كتاب «انتخاب هوف» بتصوير الشخصيات على نصو ما فعل جوسلين، بل إنه يرسم شخصياته بطريقة اقل دقة ولكنها مقنعة. ويثير الكاتبان شغفا بما يرويانه عن تكوين الاحزاب بين الاخوان الرهبان، فقد أتاح الانتخاب محل النزاع الفرصة للرهبان الاصغر سنا والاكثر جرأة للحفاظ على حريات الدير والمطالبة بانتخابات حرة.

اما الرهبان الأكبر سنا، والأكثر تهيبا وترددا وخوفا، فقد عارضوهم خوفا من الملك. وكان رئيس الرهبان ـ وهو شخصية مألوفة في مثل هذه الجماعة المترابطة في كل العصور ـ ينتقل من فريق إلى فريق وكلما تحدث معه احد الطرفين انحاز إلى جانبه، ويتنهد قارىء الكتاب تعبيرا عن راحته حين يخرج الدير من محنته سليما.

وكانت هناك أديرة أخرى لها مؤرخوها. واكننا نذكر منهم وأحدا فقط هو الأستاذ توماس Master Thomas الذي كان راهبا بدير مارلبوروف المعلم في مطلع القرن الثالث عشر Wiltshire والذي كان راهبا بدير مارلبوروف ايفيسهام في مطلع القرن الثالث عشر أيضا. ويتكون موضوعه في أساسه من تقرير عن قضية قانونية، وهنا أيضا نجد الإيجابيين والانهزاميين بين الرهبان. ورغم طول الإجراءات القضائية ورتابتها فإن توماس ينجح في شد انتباهنا: هل سيكسب الدير القضية ؟ وأخيرا تنتهى الدعوى لصالح دير ايفيسهام. وسقط توماس ــ الذي كان قد حضر ليترافع عن الدير ــ مغشيا عليه عند قدمي البابا بسبب الارهاق والفرح.

وتتجلى الحرفية على حقيقتها فى هذه التواريخ المحلية. وعلى القارىء الذى يريد تقدير مالها من قيمة أن يجرب يده فى كتابة وتسجيل تجاربه الخاصة فى أحد المواقف التى واجهته فى حياته. ذلك أن بعث الحياة فى هذه التجارب وإضفاء الأهمية عليها أمر أصعب مما يبدو للوهلة الأولى.

وقد كتب ماتيو باريس للتاريخ العالمي كما كتب التاريخ المصلى. وفاق إنتاجه الضخم أي إنتاج آخر في الأديرة البندكتية. وسوف أركز على مدونته الكبرى المسماة Greater Chronicle لنها أشهر مؤلفاته التاريخية. وهي مدهشة سواء في مجالها أو في حجمها. كما أن الباحثين يستخدمونها كمصدر أصلى من مصادر التاريخ الانجليزي والأوربي على حد سواء. وقد نشأ المؤلف في دير سان ألبان البان St. Alban الإنجليزي والأوربي على حد سواء. وقد نشأ المؤلف في دير سان ألبان المصلاة ويصف ماتيو رفاقه البندكتيين بأنهم وإخوة طيبون طبعت قلوبهم على الصلاة وكرم الضيافة». وأدى قيامهم بواجب الضيافة إلى جمعهم للأخبار. وذلك لأن دير سان ألبان يقع على الطريق الرئيسي شمال لندن؛ أي أنه كان مركزا مثاليا لتجميع المعلومات من كل نوع. وقد أحسن ماتيو استغلال معظم الفرص التي سنحت له. إذ كان تعطشه للأخبار والقيل والقال لا يروي، وارتبط هذا بما اتصف به من عشق لجمع السجلات. فقد نسخ الوثائق بلغ من كثرته أنه اضمار لأن يفرد له حيزا خاصا في كتابه المسمى كبيرا من الوثائق بلغ من كثرته أنه اضمار لأن يفرد له حيزا خاصا في كتابه المسمى والمهارة الفنية التي حباه الله بها. ولأن ماتيو كان فذا أيضا، فإنه رصع كتابه برسوم والمهارة الفنية التي حباه الله بها. ولأن ماتيو كان فذا أيضا، فإنه رصع كتابه برسوم توضيحية معبرة وجسورة، لقد كان ماتيو شخصية نادرة بمواهبه المتعددة. فقد كان توضيحية معبرة وجسورة، لقد كان ماتيو شخصية نادرة بمواهبه المتعددة. فقد كان

الكتاب الذين يضعون الرسوم التوضيحية لكتبهم بأنفسهم قلائل للغاية.

أما أبرز إنجاز أحرزه ماتيو باريس فهو وجهة النظر التي كونها لنفسه. إذ كان من المكن لذلك الكم الهائل من المعلومات والمواد التي جمعها لمدونته أن تصبح بمثابة واد ملىء بالعظام الجافة، لولم تمر هذه الحقائق من خلال عقليته الحيوية الخلاقة. فنحن نرى الحقائق وفقا لرؤيته هو. وكان له من رباطة الجأش ما جعله يطلق لنفسه العنان، يختان ويشوه ويبتكر ويعلق على مادته التي يكتبها. وتعرض مدونته مجموعة من الآراء والتحيزات التي تشاركها فيها مدونات تاريخية انجليزية اخرى. فقد سبق أن عبر روجر الوندوفري Roger of Wendover الذي عاش قبله في دير سان البان عن هذه الآراء والتميزات بطريقة أقل تماسكا. إذ أن الأديرة الانجليزية الكبرى قدمت من قبل رواية غير متناسقة عن «حزب البلاد» ف مواجهة «حنزب البسلاط» أو «الخارجيين» ضد «الداخليين». فقد كانت الوظيفة ف البلاط ـ بما ف ذلك وظائف الحكومة - تجلب لصاحبها القوة والنفوذ والثروة، ولم يكن للرهبان السود (البندكتيين) مكان في البلاط. ولم يرق منهم إلى منصب الأسقفية سوى عدد قليل في القرن الثالث عشر مما جعل مركزهم في البلاط البابوي ضعيفا. وأخذت الأديرة تتململ تحت وطأة الضرائب التي فرضت عليها من قبل الملكية والبابوية على حد سلواء. كذلك كان البابوات يأملون في توطيد النظام وتدعيم الرقابة على الأديرة المعفاة من هذه الضرائب بتعيين الزوار _ الذين غالبا ما كانوا من كبار الأساقفة _ لكى يفتشوا على طريقة أداء الدير، ويصححوا ما يحدث من انحرافات.

وكان الرهبان يعتبرون هذا استغلالا لهم وتدخلا في شئونهم. كما أنهم وجدوا أنفسهم في قياع النظام البيروقراطي. وليس هناك من يحب جباة الضرائب، أو الفضوليين، أو المرابين لا سيما إذا كانوا من «الأجانب»، وكان هنري الثالث يستخدم الأجانب في حكومته. ولذا فإن المدونات التاريخية الديرية تحمل اتجاها واضحا نحو كراهية الأجانب، وتناصر حركات المعارضة التي يقوم بها الأهالي. فضلا عن أن جماعات «الرهبان الشحاذين» الجديدة قد وضعت الرهبان عموما في موقف حرج، كما أن ظهور الجامعات أدى إلى تدهور مكانتهم في الحياة الثقافية. وتعكس كتابات كما أن ظهور الجامعات أدى إلى تدهور مكانتهم في الحياة الثقافية. وتعكس كتابات كرجل في موقف الدفاع عن النفس واضحا للغاية، إلا أن تحيزاته تتناقض مع بعضها البعض، إذ أنه كان يشعر بالغيرة من الرهبان، وهو ما يتضح من أنه تضايق من حماسة روبرت جرستست Robert Grosseteste أسقف لنكولن وغيرته على الاصلاح. عماسة روبرت جرستست Robert Grosseteste أسقف لنكولن وغيرته على الاصلاح. إلا أنه من ناحية أخرى، كان يتباهى بجامعة أوكسفورد باعتباره مواطنا انجليزيا.

دير سان ألبان. إلا أن ما يعيبه هو أنه لم يكن دقيقا أو حريصا فيما يدونه في كتابه، كما أن انحيازه جعل بصماته واضحة على القصة التي يرويها وهي قصة تدخل الأحكام الجزافية في لحمتها وسداها. بيد أنه يجب علينا أن نتقبل أي عبقري على ما هو عليه.

وليس فى أوربا بأسرها ما يمكن أن ينافس مدونة Greater Chronicle التى كتبها ماتيو. ولكن رهبان دير سسان دينيس كانوا يمتلكون شيئا آخر. إذ أنهم صاروا المؤرخين الرسميين للملكية الفرنسية. وآتت محاولة سوجير لربط ديره بالبيت الملكى ثمارها، إذ بدأت كتابة مدونة تاريخية ملكية منذ بداية القرن الثالث عشر. وربما قبل ذلك، ثم أضيف إليها، وقام راهب من سان دينيس يدعى بريمات Primat بترجمة المجموعة إلى اللغة الفرنسية سنة ١٢٧٤. وعرفت النسخ الفرنسية التى ترينها الرسوم التوضيحية العديدة باسم «مدونات فرنسا الكبيرة». ولم يكن لدى انجلترا ما يمكن مقارنته بهذه المدونات. وفي القرن الثالث عشر كانت لدير وستمنستر ما يمكن مقارنته بهذه المدونات. وفي القرن الثالث عشر كانت لدير وستمنستر الجانب الملكي بعكس الأديرة الأخرى التى اتخذت موقف المعارضة عادة، ومع هذا الجانب الملكي بعكس الأديرة الأخرى التى اتخذت موقف المعارضة عادة، ومع هذا فإن ويستمنستر لم ينتج رواية تاريخية يوثق بها عن التاريخ الانجليزي.

وأدلى الرهبان الشحاذون بدلوهم فى بئر التدوين التاريخى، فقد كتبوا الحوليات والمدونات، وكان الفرنسيسكان على وجه الخصوص هم الذين بثوا روحا جديدة فى موضوع سير القديسين. وكانت ذكريات مؤسس الجماعة، وما ثار من منازعات حول تفسير قاعدتهم بمثابة القوة الدافعة التى حفزتهم إلى كتابة التاريخ. وتجلى ذلك فى كتاب «قدوم الرهبان الصغار إلى انجلترا» الذى كتبه توماس الاكلستونى Thomas of. وقد تلقى توماس دراسته فى باريس على يد قسيس علمانى ثم انضم إلى الجماعة فى انجلترا حوالى سنة ١٢٣٠ وواصل دراسته فى مدرسة الرهبان الفرنسيسكان باوكسفورد وانتقل بعدها إلى لندن. وحوالى سنة ١٢٥٠/١٥٠ فرغ من حوايته التى كانت تضم مادة أنفق فى جمعها حوالى خمس وعشرين سنة.

ومدونه توماس عبارة عن كتاب دينى، إذ أنه قسمها إلى خطب وعظية تقرأ بصوت عال على الرهبان. وكان غرضه أن يعيد البساطة المحببة والفقر الله المدين ميزا الفرنسيسكان الأوائل وونقهما وما يبعثانه من بهجة في نفوس المؤمنين. فقد كان الفرنسيسكان الأوائل في رأيه هم أبناء سان فرنسيس المخلصين. ولأن «الأمثلة تمس شغاف القلوب أكثر من الكلمات»، فإنه قدم لنا العديد من الأمثلة التي أقحمها في تراجم الرجال الذين لعبوا دورا هاما في الجماعة الفرنسيسكانية بانجلترا في بواكير أيامها. وتعرض مدونته لصورة مثالية مثيرة للشجن تصور الرواد الأوائل وما واجهوه

من صعاب فى مدارس أوكسفورد وغيرها. وثمة توتر داخلى يبث الروح والبهجة فى قصته، فهو يمتدح فقرهم، ولكنه يحب أن يسجل الهبات التى أغدقت على الرهبان المتسولين، والكتب التى أضيفت إلى مكتباتهم، أو بناء أديرتهم وانتقالهم إلى أديرة أخرى أكبر وفى واقع أفضل من الناحية الصحية. والواقع أن تاريخ أية جماعة دينية لابد وأن يتضمن أيضا تاريخ الأوقاف التى أوقفت عليها.

وكان هناك قطب مقابل لماتيو باريس في إيطاليا، وهو راهب فرنسيسكاني اسمه فراساليمبيني Fra Salimbene الذي جمع مدونة ضخمة تغطى الفترة من حوالى سنة ١١٦٨ إلى سنة ١٣٠٤. وكان يتميز بقدر من حب الاستطلاع يوازي ما تميز به ماتيو، ذلك أن ظروفه كعضو في جماعة عالمية متحركة أتاحت له عدة وسائل لرى عطشه إلى الموضوعات الجديدة. إذ أنه استطاع أن يقوم بعدة جولات جمع فيها مادة هذه الموضوعات بنفسه. حين كان رؤساؤه يرسلونه لأداء بعض المهام أو ينقلونه إلى أديرة أخرى، وذلك بدلا من أن يقبع منتظرا أن تأتيه الأخبار. لقد كان ساليمبيني يثرثر كثيرا مع أناس من جميع الانماط، ابتداء بالبابوات وانتهاء بالشحاذين. وقد اختلفت مواهبه ككاتب عن تلك المواهب التي كان ماتيو يتمتع بها. فقد كان باستطاعة ماتيو أن ينقل المشهد إليك، ولكن ساليمبيني كان يستطيع أن يصفه لك بحيث يجعلك تشعر كما ينقل المشهد إليك، ولكن ساليمبيني كان يستطيع أن يصفه لك بحيث يجعلك تشعر كما كانت رسالته أن الفرنسيسكاني المؤمن يستطيع أن يتمتع بمجرد وجوده في هذه الحياة. كانت الملاحظة تهمه أكثر من التقوى والتدين، كما أنه كان يعارض الامبراطور فريدريك الثاني لأنه كان يضطهد الكنيسة، ولكن حقيقة رجال الكنيسة لم تكن خافية فريدريك الثاني لأنه كان يضطهد الكنيسة، ولكن حقيقة رجال الكنيسة لم تكن خافية عنه.

وخرج من الرهبان الدومنيكان بعض كتاب المدونات التاريخية، إلا أنه في القرن الثالث عشر فقط اتجه أحد علماء أوكسفورد، وهو نيكولاس تريفيت Nicholas Trevet إلى تدوين التاريخ كواحد من بين اهتماماته الأدبية العديدة.

ويقدم ريتشارد السان جومانوى ـ الذى كتب فى ثلاثينيات القرن الثالث عشر ـ تاريخ الخدمة المدنية على مستوى الحكومة الملكية. وبلدته سان جومانو مدينة صغيرة على حدود الدويلات البابوية فى وسط إيطاليا وجنوبها وصقلية. وعمل ريتشارد موثقا للعقود فى خدمة دير مونت كاسينو، كما عمل فى خدمة فريدريك الثانى الذى دان له حكم المملكة كجزء من امبراطوريته، وكان اهتمامه المهنى باصلاحات فريدريك الحكومية مماثلا لذلك الاهتمام الذى أولاه رالف الديسى وروجر الهاودينى لاصلاحات ملوك انجو الحكومية، كما كانت له نفس رؤيتهما تقريبا. ويتضح اعجاب ريتشارد بغريدريك وبغضه لخصمه البابا جويجورى التاسع من خلال صفحات مدونته التى

تتسم بالدقة الجافة الصارمة. وكانت البيروقراطية المركزية من أجل أقرار القانون والنظام تثلج صدره، بيد أن مشاعره تجاه الامبرطور تغيرت حين ضحى الأخير برعاياه المنقالبة في سبيل سياسته الامبرطورية، واستنزفت مواردهم لتمويل حملاته التي كان يجردها. وكما كان رالف الديسي يفضل هنرى الثاني على أبنه الأكثر تألقا، كان ريتشارد يفضل فريدريك الحكيم كملك لصقلية على فريدريك نفسه كإمبراطور تحركه الاطماع الامبراطورية.

ولم يواصل أى كاتب ملكى في انجلترا كتابة قصة الحكومة بعد النقطة التي توقف عندها روجر الهاوديني فقد كانت البيروقراطية الانجوية قد مرت بعصرها البطولى. وهو ما يردده ناقدوها أساسا. إذ كان كتاب المدونات راضين عن اصلاحات ادوارد الأول، ولكن مستشاريه تسركوا الآخرين يستفيدون من هذه الاصلاحات كمادة تاريخية. واصطدمت حقيقة الحكومة بالتدوين التاريخي على شتى المستويات، فقد سبجل كتاب مدونات المدن ما طرأ من تغيرات على الشئون المحلية ومعاملات هذه المدن مع بعضها البعض، كما كان كتاب التراجم البابوية يتناولون الادارة والمالية البابوية في كتاباتهم، وهكذا دخل الصيرف الذي يتعامل معه التاجر التاريخ كواحد من صانعيه.

كانت مدارس باريس ملهمة لنمط جديد من انماط التدوين التاريخي يمكن أن نعرفه بأنه «التاريخ الوعظى Pulpit history» فقد جمع «بطرس المنشد Peter the Chanter » ... الذي كان منشدا في نوتردام .. حوله مجموعة من التلاميذ والزملاء الذين كرسوا انفسهم للوعظ، وكان من بينهم الاستاذ ستيفن لانجتون الذي كان يلقى دروسه بباریس ما بین سنة ۱۱۸۰ وسنة ۱۲۰۸ ومات سنة ۱۲۲۸ وهو یشغل منصب كبير اساقفة كانتربوري. وكان المنشد ورفاقه يعظون رجال الدين وعامة الناس بانفسهم، كما كانوا يرددون في دروسهم التي يلقونها بالمدارس أن الاستأذ الذي يدرس الكتاب المقدس يجب أن يقوم بالوعظ والتبشير إذا ما ترك باريس؛ وذلك لكي يبرىء الأرواح في أي مكان آخريذهب إليه. وكان التدريب العملي يسير جنبا إلى جنب مع الدعوة إلى التبشير. وكان هذا التدريب يتم خلال المحاضرات التي تلقى عن الكتاب المقدس، وغالبا ما كانت محاضرات المنشد ورضاقه تقرأ مثل الخطب والمواعظ. فالاستاذ بنتقد المجتمع ساخرا، ذلك أنه يمسك بمرأة يمكن أن تبين لمختلف درجات النظام الكنسي، وللكرادلة والامراء ورعاياهم - سواء كانوا كنسيين أم علمانيين - كيف ينبغى أن يتصهرفوا وما هي درجة خروجهم عما ينبغي. وسيكون أداء المحاضر أو الميشر افضل إذا ما حرص على توفير عنصر التسلية، ومن ثم فإنه كان يمرج بين الحزن والفرح عن طريق ما يحكيه من قصص وما يلقيه من نكات أو تلميحات فكامية . كانت عقلية المبشر هي التي تتحكم في عملية كتابة التاريخ. وكان لابد للعالم الذي تدرب في بيئة المنشد أن يؤكد على قيمة التاريخ كمصدر للعظات والعبر، لا في مقدمة كتابه فحسب - كما جرت العادة أنذاك - ولكن في اختياره وعرضه للأحداث الواردة في سياق روايته.

وكان جيمس الفيترى James of Vitry تلميذا وفيا لبطرس المنشد، الذى وصفه بأنه «رُهرة بين الاشواك». وربما كان جيمس من مدينة ريمس أصلا. وبعد انتهاء دراسته في باريس صار راهبا بدير سان نيكولاس دويني St. Nicolas d'Oignies. ولأنه كان واعظا فإنه ساعد على شن الحملة الصليبية الالبيجنسية سنة ١٢١٣، ثم الحملة الصليبية الخامسة. وأمضى سنوات شبابه ورجولته في الشرق، حيث صار أسقفا لعكا سنة ١٢١٦، وانضم إلى الحملة المصرية سنة ١٢١٨ – ١٢٢٨. وكانت أهداف قادة الحملة الرابعة، أي انهم كانوا يستهدفون القواعد البحرية الاسلامية في مصر. وتم تدمير دمياط بعد حصار طويل، بيد أن الصليبيين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها. وهكذا فشلت حملة صليبية أخرى. وعاد جيمس من فلسطين سنة ١٢٢٥، ثم استقال من منصبه الاسقفي. ورقاء البابا إلى رتبة الكاردينال سنة ١٢٢٩، وكانت وفاته سنة ١٢٤٠.

وكان لحياته الحافلة بالأحداث أثرها على أستعداده للكتابة في مجال التاريخ المعاصر، إذ أنه كتب مغطيا احداث الشرق والغرب على حد سواء. وكان أسقف عكا يمتلك وقت الفراغ الكافي للكتابة بعد ضياع دمياط من الصليبيين. وهو يقول في مقدمته إن وقصيص الفشل» الذي حاق بالملوك الشرقيين ويطولاتهم هي التي دفعته لأن يكتب الرد الذي يسكت به خصومهم: والواقع أن المؤرخين اللاتين الذين تصدوا لكتابة التاريخ المعاصر أو تاريخ الماضي القريب قلائل بالفعل. ومن ثم كان عليه أن يقضي وقت فراغه في كتابة تاريخ شرقي وغربي. وكانت خطته ... كما حددها في المقدمة ... أن يضم الكتاب الأول تاريخ بيت المقدس ووصفا للأراضي المقدسة، بينما يتناول الكتاب الثاني التاريخ الغربي، مع اهتمام خاص بجماعات الرهبان والاكليروس العلماني، ثم يختتم الكتاب بفصل عن الحملات الصليبية يشرح قيمتها الدينية وجدواها، أما الكتاب الثالث فسيعود إلى الشرق ليحكي قصة الأحداث التي تلت مجمع اللاتيران الذي عقد الثالث فلي الدورة إلى الحملة الصليبية الخامسة والتخطيط لها. وعلى أية حال، فقد ضاع الكتاب الثالث ولم يصلنا، وربما لا يكون قد كتب سـوي مقدمته فقط. وتختلف نهاية الكتاب الثائي كما وصلنا عن النهاية كما أوضحتها المقدمة. وربما يكون المؤلف قد غير رأيه، وبالتالي غير في الكتاب.

كان جيمس الفيترى واعظا يكتب الوعاظ. فقد أضاف إلى كتاب وصف الأرض

المقدسة ولكى يقدم مادة أوفر للوعظ». ومن المفترض أنه كان يتوقع أن تستخدم هذه المادة في الخطب الصليبية لكى تلهب مشاعر الوفاء للأرض المقدسة إذ أنه يختتم مقدمته بقوله إن ما كتبه سوف يقدم المثل والقدوة لجنود المسيح، ويلقنهم الأخلاق الحميدة، ويدحض حجج الكفار، ويدين الاشرار ويلعنهم، ويمتدح الاخيار ويدفعهم إلى الاقتداء بهذا المثل الذي يقدمه. وسيكون من نافلة القول أن نعرب عن أسفنا لأن الواعظ زج بنفسه في طريق المؤرخ. وهو قد فعل ذلك حقا، بيد أنه لولم يستغل جيمس الواعظ زج بنفسه في طريق المؤرخ. وهو قد فعل الاطلاق. وربما كان يحصر نفسه في إطار قصة حياة أحد القديسين، والخطب والمواعظ الدينية التي تشكل كل إنتاجه المعروف لنا بخلاف التاريخ.

وكتابه «التاريخ الشرقى» يبدأ بتاريخ مختصر للارض المقدسة منذ عصر العهد القديم حتى الفتح الاسلامى. ويتناول جيمس في إسهاب الأمراض التي ابتلي بها بيت المقدس. وتؤدى به قصة الفتح الاسلامي إلى تناول سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وتعاليمه، والقرآن، والفرق الاسلامية المختلفة التي كان المؤلف يعرفها. ويتبع ذلك تاريخ مختصر آخر عن الحملات الصليبية والملكة اللاتينية وجماعات الرهباز التي استقرت بها. ثم يضيف إلى هذا وصفا جغرافيا، ويخلص من هذا إلى الحديث عن الحملة الصليبية الثالثة وما اعقبها من أحداث حتى سنة ١٢١٠.

ولسنا نعرف ماهية الكتب التي قراها لكي يؤلف القسم الخاص بالاسلام، أو كيف تسنى له جمع معلوماته وإلى أي حد استقاها من مصادرها الأصلية ابان وجوده في عكا. فهو يدين الرسول (عليه الصلاة والسلام) في خطبة وعظية منبرية وضعها بقصد أن يستخدمها الموعاظ الذين سوف يستخدمون كتابه لتنبيه المسيحيين ضد المسلمين (1). ولكنه جمع بعض المعلومات الصحيحة عن المذاهب الاسلامية، ذلك أن عقلية الباحث في هذا العالم الباريسي تغلبت على الواعظ بداخله. وقد استخدم جيمس كتاب وليم الصوري كواحد من مصادره في الحديث عن جغرافية وتاريخ الفترة التي يغطيها كتاب وليم. وكان على جيمس أن ينتقل إلى مصادر أخرى عن الحملة الصليبية الثالثة التي حدثت بعد موت وليم الصوري. وتتضح ضائته كمؤرخ إلى جانب وليم الصوري من خلال ما كتبه عن هذه الحملة. إذ أنه لم يتعمق في البحث في مشكلة السببية. وكل ما في الأمر أنه رأى في أسباب الكوارث التي حلت بالمسيحيين فرصة عظيمة لكي يوجه إليهم اللوم جزاء ما ارتكبوه من أثام. وكان يجد متعة في توبيخ

⁽١) استخدمت المؤلفة عبارة «المؤمنين ضد الكفار» وقد رأيت تغييرها على هذا النحو مراعاة المشاعر العامة.

المستعمرين اللاتين المتخاذلين على تعودهم على الاستحمام. وهو يعزو فشل الحملة الثالثة في استعادة بيت المقدس إلى سبب واحد هو النزاع بين الملك الانجليزى ريتشارد، والملك الفرنسي فيليب فيقول:

«إنهم يقولون إن صلاح الدين كان سيسلم إلينا جميع اراضينا لو أن الملوك تظاهروا، فقط، بالتازر لغزو املاكه».

وهنا يطرح جيمس هذا الافتراض المشكوك في صبحته دون أن يحاول نقده.

اما «التاريخ الغربي»، فهو خليط من عدة موضوعات، يربط بينها غرض المؤلف كمدرس وواعظ. وتعتمد هذه الوحدة الواهية على ارتباطها بالكنيسة. وجاء نواحه على محنة الكنيسة الغربية، موازيا مع نواحه على أختها الشرقية الذي استهل به كتاب «التاريخ الشرقي»، ففي رأيه أن الشيطان أخذ يواصل تسميم الرأس والأعضاء على حد سواء. فالمسلمون بأسبانيا، والهراطقة في لمبارديا وبروفانس، والمنشقون في الدولة البيزنطية، والمسيحيون المنافقون في كل مكان _ هم الداء الذي ابتلي به الغرب منذ ضاعت الأرض المقدسة. ثم تعقب ذلك إدانة منبرية للخطايا والآثام التي ارتكبها الرجال والنساء من كل الطبقات مدعمة بالامثلة والمسعد ويشعر المرء كما لو كان يقرأ مجموعة من المواعظ والخطب. فهو يرسم صورة صارخة لمدارس باريس: المنشد، أو مجموعة من المواعظ والخطب. فهو يرسم صورة صارخة لمدارس باريس: فالعلماء يعيشون في مجتمع إباحي فوضوى، ففي بناية واحدة تجد قاعة للدراسة في أعلى السلم، وماخورا للدعارة في الطابق الأسفل. ويبرق النور بين جحافل الظلام حين يتحدث جيمس عن احياء الوعظ الشعبي والثقافي الذي تبناه بطرس المنشد، رغم أن مدعى النبوة وبانعي آثار القديسين المزيفة قد أساءوا استغلال هذا الاحياء.

والموضوع الرئيسي في «التاريخ الغربي» ياتي عقب ذلك، إذ يكتب جيمس عن الاحياء الديني الذي ميز الفترة الممتدة ما بين القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثالث عشر. وهو يقسم جماعات الرهبان إلى رهبان ونساك متتبعا تاريخ كل جماعة منذ أوائل العصر المسيحي، ثم يقوم بعملية مسح للحركات الدينية الاصلاحية التي ظهرت أنذاك. ونجد أمامنا قائمة طويلة من الجماعات والمؤسسات مثل المستشفيات ومصحات المجذومين حكتبها رجل قوى الملاحظة ثاقب النظر، وكان جيمس عضوا في جماعة الرهبان النظاميين. وضمن قائمته جماعة الرهبان الحقراء Humiliati وهي حركة كان أعضاؤها يهدفون إلى أن يعيشوا حياة علمانية مثل تلك التي عاشها الحواريون، وأخيرا يقدم لنا جماعات الرهبان الشحاذين الجديدة. وقد رأى جيمس سان فرنسيس بنفسه خارج دمياط حيث كان هذا القديس ذاهبا في سفارة المسلمين.

ويقدم « التاريخ الغربي » تاريخا دينيا للفترة التي يغطيها في صورة أكمل مما قدمه أي مؤلف معاصر آخر.

وواجه جيمس المشكلة نفسها التي واجهت أوتو الفريزى حين وصف حركة الاحياء الديني في عصره في كتاب «تاريخ المدينتين» وتمثلت هذه المشكلة في السؤال القائل: كيف سبيدو شكل حركة الاحياء في عشية العصر الأخير من عمر العالم؟ وقد لقى هذا السؤال من جيمس اهتماما أقل مما لقيه من أوتو، لأن جيمس لم يهتم كثيرا بمسألة التقسيم الزمني الى عصور أو فترات. فقد كان متقبلا لفكرة أنه يعيش في نهاية العصر الأخير من العالم، وأقنعته علامات ذلك الزمان بأن المسيح الدجال على وشك القدوم إلى المذا العالم، وفسر عودة الرهبان المتسولين إلى تعاليم الانجيل على أنها علامة على النعمة الالهية، أي أنه قد أرسل الرهبان المتسولين لكي يدافعوا عن المؤمنين ضد المسيح الدجال.

وربما يكون اسقف عكا قد شعر أنه قال مافيه الكفاية عن الجماعات الرهبانية وأنه ينبغى أن يعطى القسوس العلمانيين حقهم. والجزء الأخير من «التاريخ الغربى» يشبه تلك المقالات التى تحتوى على توجيهات للقساوسة والتى كانت أعدادها فى ازدياد مطرد ابان القرن الثالث عشر.والموضوع يقدم التعاليم الأساسية حول بناء الكنيسة ومؤسساتها وأسرارها المقدسة. فقد كان المؤلفون يهدفون إلى مساعدة القسيس على إدارة شئون رعيته. وتحتوى المحاضرات التى كان رفاق بطرس المنشد يلقونها حول الكتاب المقدس على مادة مماثلة لتلك التى كانت تضمها الكتيبات التى يستخدمها الكتاب المقدس على مادة مماثلة لتلك التى كانت تضمها الكتيبات التى يستخدمها القساوسة، ولم تكن مرتبة وفقا لنظام بعينه لأن المحاضر كان يعتقد أنه من الأنسب أن يتناول فى محاضرته ماقد يثيره النص من موضوعات. واستقى جيمس مادة كتابة «التاريخ الغربى» فى أجزائه الأخيرة عن المعلومات التى تلقاها أثناء دراسته بباريس (مثل النقد الاجتماعى الذى كتبه فى أحد أجزاء الكتاب). وربما يكون قد أضاف إليها فقرات من الخطب التى الفها.

وعيوب جيمس كمؤرخ واضحة تماما. إذ أنه لم يكن صاحب نظرة تحليلية. فقد كان يعنيه ما يحدث ويوجد في لحظته أكثر مما يهمه سبب أو كيفية حدوثه، بيد أن عنايته بجمع المعلومات لتكون بمتناول الوعاظ أمر له قيمته. وكتابه «التاريخ الشرقى» يعطى الباحث المحدث فكرة طيبة عما كان الرجل المتعلم .. الذي كان يستقى معلوماته من مصادرها .. يعرفه وعن ماهية فكرته عن الاسلام. أما كتابه «التاريخ الغربي» فيوضح لنا كيف أن الكاتب نفسه كان يرقب حركات الاصلاح الديني عن كثب، كما يكشف لنا عن ردود فعله ازاءها.

ومن بولندا يأتى نموذج من أكثر نماذج «التاريخ الـوعظى» زخرفة وخيالية.

ويختلف الأستاذ فنسنت الكراكاوى Master Vincent of Cracow. عن جيمس الفيترى من عدة وجوه، إلا أن كليهما كانا يهدفا. إلى جعل التاريخ مادة للعظات والعبر. وترك فنسنت وطنه سعيا وراء الدراسة في الخارج. والمرجح أنه درس بمدارس باريس. وعاد إلى بولندا قبل سنة ١١٨٩. وإذا كان قد قرأ اللاهوت في باريس فربما يكون قد تأثر ببطرس المنشد وستيفن لانجتون. ورغم أن هذا مجرد تخمين، إلا أن مثل هذه الدراسة كانت ستخدم غرض فنسنت الوعظى، كما كانت ستقوى من عزمه على اللعب على أوتار مشاعر سامعيه. والواقع أن أساليب المحاضرة الباريسية واضحة تماما في مدونته.

ثم صار العالم العائد أسقفا لكراكاو سنة ١٢٠٧ وحضر مجمع اللاتيان سنة ١٢١٥ بوصفه أسقفا. وبعد ذلك بسنوات ثلاث استقال من منصبه الاسقفى لينخرط في سلك الرهبنة السسترشية في أحد أديرة بولندا حيث مات سنة ١٢٢٣. وفي السنوات الأخيرة من حياته كتب مدونته عن بولندا. ورغم أنه الفها داخل أروقة الدير، فإن تجربته كعالم وأسقف تنأى به بعيدا عن المستوى العادى للمؤرخ الديرى.

وقد استهل فنسنت مدونته بقصة خرافية عن اصول البولنديين، ثم يصل ذلك بالتاريخ البولندى حتى سنة ١٩٠٨. وحال موته أن يمضى بمدونته إلى أبعد من هذا التاريخ. ويبدأ الجزء الأول من المدونة بحديث على العشاء بين اثنين من الرجال المسنين الحكماء، يناقشان تاريخ شعبهما. واختار فنسنت شخصياته من بين الشخصيات التاريخية. وأحد هاتين الشخصيتين هو السقف كراكاو السابق، أما الثنى فهو أحد كبار أساقفة جينزنو Gniezno: إلا أن الطبيعة القصصية للحوار بين الاثنين تبدو غاية في الوضوح (إذ أن الحوار ينتهى سنة ١١٧٣، بعد مرور عدة سنوات على موت الاثنين). وكان لكل منهما دوره؛ فقد كان على الأسقف بحسب مكانته الادنى - أن يروى القصة، ولا يعلق إلا قليلا. أما كبير الاساقفة، ورئيسه الكنسى، فكان يستمع إلى القصة ثم يعلق على مغزاها الأخلاقي، وذلك باستحضار أمثلة مشابهة من تاريخ البلاد الأخرى، ومن الكتاب المقدس. ويوضح المعلق دروسه الأخلاقية بأن يورد المقتبسات من شتى أنماط الكتب، إذ أنه يضع الأمثال، والحكم، والقصم الخرافية، والنوادر، وفقرات من الترانيم والاناشيد الدينية. وثمة فقرة في القصة التى يرويها الاسقف تجعل كبير الاساقفة ينفجر في ضحكات هادرة.

وحين يتوقف الحوار يختفى الرجلان، ويتولى أحد الخدم الخصوصيين رواية القصة. وعندها تتخذ التعليقات شكلا مسرحيا: إذ تتجسد الحالات العقلية والفضائل كالفرح، والأسف، والحرية، والفطنة، والاعتدال، والتسامح، في شخوص تناقش معانى مايتطرق إلى سمعها. ففي هذه الافتتاحية اجتمع عدد من الاقتباسات المتنوعة،

والاستعارات غير المنسقة، اكبر مما اجتمع في أية افتتاحية أخرى لأى مؤلف تاريخي في العصور الوسطى على حد معرفتي.

وليست للمدونة أية قيمة حقيقية فيما يتعلق بأصول بولندا وتاريخها الباكر. ذلك أن فنسنت قد استعاض عن الأدلة برواية الأساطير التي نسجت حول تاريخ بولندا المباكر، وربما يكون قد اخترعها. ولكنه يصير مصدرا تاريخيا فائق الأهمية للأحداث التي وقعت بعد سنة ١١١٠، إذ أننا ننتقل بعد ذلك من رحاب الأسطورة إلى ميدان التاريخ. رغم أن قلة المصادر المعاصرة الأخرى تجعل التأكد من دقتها أمرا صعب المنال.

لقد كان لكاتب المدونة هدف واضح، إذ كان مدرسا وواعظا مثل جيمس الفيترى، إلا أن جيمس كان يخاطب العالم المسيحى اللاتيني عموما، بينما كان فنسنت يخاطب البولنديين. ومن هذه الناحية فإنه اكثر شبها بوليم الصورى منه بجيمس. إذ كان فنسنت وطنيا محبا لوطنه مثل وليم. وقد الهمه حبه لوطنه أن يكتب تاريخه. وفي كلتي الحالين، كانت البلاد مهددة بالتمزق: فقد كانت الملكة اللاتينية في فلسطين هدفا سبهلا لهجمات المسلمين حين كان وليم الصورى يكتب الجزء الأخير من كتابه. أما بولندا، فإن تاريخها قد مر بأزمات دورية. فقد كان توحيد البلاد تحت حاكم واحد يؤدى إلى التمرد والعصبيان؛ لأن النبلاء الحريصين على استقلالهم كانوا يسارعون إلى تمزيق المملكة إلى عدة امارات. ثم تأتى الحروب الأهلية والهزيمة أمام القوى الأجنبية لكى تمهد السبيل بعد التمزق الداخلي لقيام أحد الأمراء الأقوياء الذي يرتقى عرش البلاد التي تتوحد تحت حكمه الملكي مرة ثانية. وكان فنسنت يامل في دوام هذه الوحدة الهشة. كما كان يناشد قراءه حبهم لوطنهم بقوله «إن مايفعله المرء في سبيل وطنه يعد حبا وليس جنونا». وهو يومى بالتآزر والتكافل الذي يعتبره أما للأخوة والزمالة. ويقول إن التاريخ يحكى أن بولندا كانت قوية وسعيدة في تلك الأيام الخوالي حين كانت بلادنا متحدة، كما كانت الأراضي البولندية تمتد إلى حدود أبعد من حدودها الحالية. كما يدعو امراء عصره إلى النظر ف مدونته كما ينظرون في المرآة لكي يروا صورة اسلافهم الأماجد، ويسعون إلى تقليدهم. وهو كواحد من رجال الكنيسة، كان يشعر أنه يجب أن يضيف أن الحكام سوف يحرزون أفضل درجات النجاح إذا ما احترموا الحريات الكنسية.

وقد احرزت مدونة فنسنت نجاحا واسع المدى. إذ انها ترجمت إلى البولندية وصارت كتابا مدرسيا متداولا في المدارس البولندية. كما أنها اجتذبت الكثير من الملاحظات والتعليقات الهامشية على طريقة الكتب المدرسية. وكانت طريقة عرض فنسنت في مدونته مناسبة للتدريس في المدارس وبفضل ماحوته المدونة من اشارات

كلاسيكية، اتخذت شكل الموسوعة التى يحتاجها المدرسون في تدريس النصوص المقررة. إذ كان بوسع المدرس أن يحيل تلاميذه إلى التاريخ القديم وإلى الأساطير والشعراء الكلاسيكيين أثناء شرحه لأحد النصوص. أما القصة نفسها فتفتقر إلى عنصر الدراما. ولم يستطع فنسنت أن يفعل الكثير من خلال الحوليات المختصرة التى كانت تمثل كل المصادر المتاحة له. إلا أن أسلوب العرض المزخرف ساعده على الخروج من المأزق. ويدين مؤرخو بولندا بالكثير للتاريخ الوعظى الذي تعلمه فنسنت في المدارس الغربية. ذلك أن البولنديين أخذوا الأدب التعليمي الوعظى عن الغرب، وعدله فنسنت بحيث يوائم حاجات شعبه.

ولنتجة الآن - بعيدا عن المصافل التى يتصدت الواعظ اليها - إلى طراز من المستمعين أقل تخصصا، فقد أدى ازدياد عدد المتعلمين من عامة الناس إلى ازدياد الاهتمام بالتاريخ. وقدم الشعراء العاميون المحليون مايرضى أذواق الناس حين ألفوا التواريخ والروايات التاريخية. وكتاب «تاريخ وليم المارشال» نموذج راق ومعروف جيدا للقصيدة العامية الوطنية. ويدور هذا الكتاب حول أعمال بارون انجليزى كبير، وهذه القصيدة تخدم المؤرخين المحدثين كمصدر من المصادر الأولية. كانت التواريخ المكتوبة باللاتينية تترجم إلى اللغات القومية. وكان هذا سببا في ظهور موضوع جديد هو «التاريخ في صور».

فقد كانت المؤلفات التاريخية المحلاة بالصور التوضيحية نادرة قبل القرن الثالث عشر. حقيقة أن نسخ الكتاب المقدس كانت تزين بالصور، بيد أن منتجى المؤلفات التاريخية اللاتينية عادة ماكانت يكتفون بصورة للمؤلف في صدر الكتاب بمواجهة العنوان الداخل؛ إذا ماكانت لديهم الرغبة في تزيين الكتاب بالصور. ويمثل ماتيو باريس استثناء في أنه زود كتابه بالصور. وليست هناك صور توضيحية لكتاب وليم الصورى سوى في ترجمته الفرنسية. كذلك كانت التواريخ اللاتينية تختلف من حيث طريقة العرض عن تلك التي كتبت بإحدى اللغات القومية. ويرجع أحد أسباب التناقض بينهما إلى أن العلماء كانوا يطلقون على الصور اسم «كتاب العلمانية» فقد كانت معظم الكتب تكتب باللاتينية، التي لم يكن الرجل العلماني يفهمها مالم يكن على قدر طيب من التعليم. ولذا فإنه كان يحتاج إلى مساعدات مرئية تعينه على الفهم. وترتب على ذلك أن القارىء للتاريخ أو المستمع إليه في اللغة القومية كان يرغب في رؤية هذا التاريخ مصورا. وكانت الحاجة إلى الصور التوضيحية سمة من سمات العقلية العلمانية آنذاك. والتواريخ المكتوبة باللغات القومية التي وصلتنا هي في الغالب نسخ قدمها مؤلفوها على سبيل الهدية إلى أصدقائهم. وكان الرجل العلماني الثري يطاب كتابة نسخة لحسابه ويتحمل الغفقات الباهظة لاعداد الرسوم والصور التوضيحية.

وكانت مثل هذه النسخ الفاخرة تلقى العناية والاهتمام باعتبارها كنوزا، ومن ثم كانت فرصتها في البقاء اكبر من فرص النسخ الأرخص ثمنا.

وأدى شيوع استخدام الصور إلى عكس وظيفة كل من النص والرسوم التوضيحية. فقد كان دير سانت مارى في يورك يمتلك لفافة كبيرة من الحرق دونت أنساب ملوك انجلترا حتى ادوارد الأول. وتبدأ هذه اللفافة بقصة اسطورية عن بروتس الطروادى وغزوه لبريطانيا. وهذا الجزء من قائمة الانساب مزين برسوم توضيحية جميلة رسمها أحد الفنانين حوالى سنة ١٣٠٠. وتقلص النص إلى عدة سطور قليلة أسفل الصور لشرح معناها. وفي الجزء التالى من اللفافة نجد صفوفا من صور ملوك انجلترا واسمائهم.

وأدت الصور إلى ظهور مؤلفات تاريخية أكثر بهجة وأشراقا: ولكنها أعادت تأكيد فكرة أن الماضى والحاضر يبدوان متشابهين تماما. فالفنانون الذين زينوا برسومهم «حوليات فرنسا الكبرى» لم يفرقوا اطلاقا بين الميروفنجيين الذين عاشوا في القرنين الخامس والسادس، وبين الكابيين الذين عاشوا في القرن الثالث عشر، حين رسموا الملابس ومناظر البلاط ومشاهد المعارك. أما الفنان الذي زين برسومه لفافة الأنساب التي اكتشفت في يورك، فإنه يصور قصة طروادة بأسلوب معاصر. فالملوك الأنجليز الذين رسمهم لايختلفون عن بعضهم سوى في جلسة كل منهم على العرش. وكانوا جميعا يرتدون نفس الملابس التي يلبسها ادوارد الأول. آخر ملك وضع في القائمة التي ضمتها اللفافة.

وقد شجع الاهتمام المتزايد بالتاريخ إلى ظهور طراز آخر من العلماء، هم كتاب الموسوعات. كانت مهمة الموسوعي أن يقدم معلومات تاريخية مختصرة عن جميع الفترات التاريخية التي يعرفها. وثمة عالم دومينيكاني يدعي فنسنت البوفييزي الفترات التاريخية التي يعرفها. وثمة عالم دومينيكاني يدعي فنسنت البوفييزي سنة ١٢٥٠. وكان تاريخ فنسنت البوفيزي تاريخا عالميا، بقدر ما كان العالم معروفا للغربيين في القرن الثالث عشر. ورفض أن يحصر نفسه في إطار التاريخ الكنسي والسياسي الذي كان يشكل مادة القراءة الأساسية في العصور الوسطى. ويحتل تاريخ التعليم والديانة والأساطير مكانه في هذا الكتاب. وهناك فصل بأكمله خصص للكتابة عن المؤرخين منذ أقدم العصور حتى عصر المؤلف، ويذكرنا اهتمامه بالديانة والأساطير بجيمس الفيتري وكتابيه «التاريخ الشرقي» و «التاريخ الغربي». لقد كان فنسنت بجيمس الفيتري وكتابيه «التاريخ الشرقي» و «التاريخ الغربي». لقد كان فنسنت واحدا من الرهبان الدومينيكان، وكانت عقليته هي عقلية الـواعظ الذي يبحث عن الأمثلة. واختلف عن جيمس من حيث إنه أراد أن يسبجل كل شيء كان باستطاعته الوصول إليه والكشف عنه. ذلك أن الماضي كان يستهويه مثل الحاضر تماما.

وموسوعته المسماة Specuulm historiale اثر باق يخلد العمل العلمى الجماعى. اذ أن الرهبان قد ساعدوا فنسنت على جمع مادته وترتيبها، وحاول رؤساؤه في الجماعة ايقافه بحجة أن مشروعه العملاق يتكلف أموالا جمة، كما يستغرق وقتا طويلا، ويتطلب جهدا كبيرا. الا أن فنسنت ثابر في هدوء على مواصلة مشروعه رغم التعليمات التي وجهت اليه بالاقتصاد. وتمثلت النتيجة في انجاز اكبر مرجع تاريخي في العصور الوسطى. وهو كتاب الف بطريقة «القص واللصق» في أعلى مستوياتها.

وتبرهن الشعبية التى نالتها هذه الموسوعة على أنها لبت حاجة المعاصرين إلى هذا النمط من الكتب. إذ كان من الممكن للقارئ المحدود الثقافة أن يخوض بين صفحات هذه الموسوعة بشيء من الصعوبة. إلا أن الكثيرين ــ إذا ما حكمنا بما اقتبسوه من صفحاتها ـ كانوا يتصفحون الموسوعة في سرعة أو يبحثون فيها عما يهمهم في لحظة بعينها. لقد وضع فنسنت قدرا هائلا من المعلومات التاريخية في متناول كل من يستطيع قراءة اللاتينية البسيطة، وكل من كان بمقدوره اقتناء مكتبة جديدة. وثمة قصور يعيب التاريخ المعلب، هو أنه كان باعثا على الكسل كشانه دائما. ذلك أن الطالب كان يجد الأبحاث كلها جاهزة من أجله، ولذلك يتضاءل الحافز الذي يحثه على الرجوع للمصادر الأصلية والخوض فيها بنفسه. ومن الناحية المثالية، يجب أن تقوم الموسوعة بدور المرشد إلى المادة الأصلية، بيد أن ذلك لا يحدث غالبا. فقد برهنت التواريخ المصورة والتاريخ المعبأ على كونها تجمع بين الحسنات والسيئات، رغم أنها نشرت المعرفة التاريخية على نطاق أعم وأوسع من ذي قبل.

وهنا نلاحظ فجوة في مجال التدوين التاريخي في القرن الثالث عشر. إذ أننا نقتبس دون جدوى ذلك القدر الوفير من المدونات «والقصاصات التاريخية» عن ذلك الطراز القديم من التاريخ الأدبى. لأن هذا النمط من الكتابة التاريخية لم يعمر إلى ما بعد العقود الأولى من القرن الثالث عشر. وثمة أسباب تطرح نفسها لتفسير اختفائه. إذ كان الجمع بين الموهبة والفرصة يتم بالصدفة. ويفضل الاحباطات التي نالت ذوى الطموح توفرت لدينا مؤلفات تاريخية كثيرة. فلو أن وليم الصورى كان قد حقق رغبته في أن يتولى أسقفية بيت المقدس، أو أن جيرالد الويلزى كان قد حقق طموح حياته وصار كبيرا لأساقفة كنيسة سان دافيد لكان ما خلفاه لنا من الكتابة التاريخية أقل مما وصلنا بالفعل. ولو لم يكن حنا السالزبورى قد تعرض للنفي فربما لم يكن ليكتب أبدا «مذكرات البلاط البابوي».

بيد أن الصدفة والشخصيات لا تقدم لنا تفسيرا كافيا لاختفاء التاريخ الأدبى. إذ كانت التطورات الأكاديمية هي الأخرى من عوامل تعثر التاريخ الأدبى. ذلك أن موضوع «التاريخ الأدبى» كان فرخا من أفراخ البلاغة كما كانت تدرس في مناهج الأداب. وقد تدهورت دراسة البلاغة في أواخر القرن الثاني عشر، وتدهبورت معها وسائل التعليم الكلاسيكي الصحيح. وانصرف الطلاب عن النحو والبلاغة إلى دراسة المنطق والجدل، مارين بسرعة على النحو اللاتيني حيث يقرأون عددا أقل من النصوص في غمار لهفتهم على تعلم المنطق والعلوم الطبيعية والفلسفية. كما كانت الترجمات الجديدة لكتابات أرسط قد صارت في متناول الطلاب الذين كانت تستهويهم قراءتها.

وتمثلت النتيجة في أن مؤرخي القرن الثالث عشر لم يحفلوا بكتابة اللغة اللاتينية الراقية. ولا يعني هذا في حد ذاته بالضرورة بأن نقلل من قيمة اجتهادهم وتنافسهم كمؤرخين. وعلى العكس فإنهم أفادوا من الأسلوب غير الكلاسيكي في أنهم تحرروا من قيود الأسلوب القديم وعبروا عن أفكارهم بمزيد من التلقائية. إلا أن الأسلوب والمضمون سارا في خط واحد. إذ كان المؤرخون يتمرسون على الكتابة من خلال قراءتهم للتواريخ الكلاسيكية في المنتخبات أو الملخصات، بدلا من أن يقرأوا المصادر الأصلية. لقد قدم المؤرخون القدامي نماذج بناء المؤلفات التاريخية، كما قدموا القواعد التي ينبغي أن يسير الأسلوب عليها. فضلا عن أنهم علموا مقلديهم أن يفكروا في العلاقة السببية بين الأحداث التاريخية، والحقيقة أن التاريخ الأدبي كان يبعث على التأمل والتفكير أكثر من المدونة.

وينبغى لنا أن نمعن النظر في الاتجاهات الثقافية في القرن الثالث عشر بحثاً عن سبب أعمق يفسر اختفاء التاريخ الأدبى، فلم يكن رجال المدارس يمارسون الكتابة التاريخية حتى في أوقات فراغهم. لأن أرسطه الفيلسوف الذي استولى على ألبابهم الم يقدم لهم الدليل الذي يرشدهم في هذا المجال. إن أعماله تتضمن الكثير من الاشارات والتلميحات التاريخية، ورغم أنه استخدم التاريخ لعلاج المشكلات التي أثارت اهتمامه، فإنه لم يكتب أي مؤلف تاريخي. كما استمر اللاهوتيون الذين تولوا التعليم في المدارس أنذاك _ يفكرون في التاريخ باعتباره تاريخ الخلاص، إذ كانت هذه هي الكيفية التي يشكل بها التاريخ الخلفية التي تقوم عليها دراستهم للاهوت. ومن ناحية أخرى، استخدم التاريخ لخدمة الأغراض العملية؛ إذ كانت للتاريخ قيمته كمادة للتسلية والترويح عن النفس؛ كما كان يقدم للوعاظ ما يريدونه من العظات والعبر؛ فضلا عن أنه كان مصدرا للسوابق التي يستطيع أطراف أي نزاع أن يستشهدوا بها للحصول على الامتيازات وغيرها. وقد كرس رجال المدارس في القرن الثالث عشر جهودهم الخلاقة لمناقشة المشكلات المتعلقة بالانسان في وضعه الراهن، متسائلين: «ماذا يشبه الانسان في نفسه؟ ما هي علاقته بغيره من البشر؟ وما هي علاقته بربه؟. «ماذا يشبه الانسان في نفسه؟ ما هي علاقته بغيره من البشر؟ وما هي علاقته بربه؟.

على فعالهم في حاضرهم، وعلى ما كان رجال المدارس يعتقدون أنه ينبغي فعله. والخلاصة أن كليو (ربة التاريخ) قد فقدت جاذبيتها.

وقد علق الفيلسوف بطرس الأبانوى Peter of Abano، على هذا منددا بربة الفن Muse في كتابه «عرض مشكلات أرسطو» الذي نشر في بادوا سنة ١٣١٠. وباعتباره عالما، فقد استبعد بطرس التاريخ من مجال المعرفة العلمية، وكانت حجته في ذلك أن المؤرخ، بعكس العالم، لا يستطيع أن يمضى من السبب إلى النتيجة، أو من النتيجة إلى السبب مستخدما الاستدلال الاستقرائي أو الاستنباطي. ومن ثم بدت المؤلفات التاريخية في ناظرى بطرس «مجرد تجميع شاق، لا طائل وراءه، للأمثلة». وليس بوسعنا أن نعرف ما الذي كان يدور بخلد طبيب مثله عاش في القرن الثالث عشر، وهو يسخر من التاريخ على هذا النحو؛ ويبدو من المحتمل أنه كان يعتبر كتاب المدونات يسخر من التاريخية أقل منه شأنا في الناحية الثقافية. إلا أن وليم البيلورنسي - في وصفه للحملة الصليبية الألبيجنسية - يضرب لنا المثل على ما كان بوسع الرجل المتعلم - الذي لم ينزلق في تيار الوعظ - أن يحققه في مجال الكتابة التاريخية، ولكن وليم هو المثال الوحيد على هذا.

لقد واجه التدوين التاريخي تحديا فائقا بعد رحيل أوتو الفريزي مباشرة. ذلك أن يواقيم فيوري Joachim of Fiore (ت ١٢٠٢)، الذي كان مقدما لأحد الأديرة، قدم نظاما جديدا للزمن ونموذجا جديدا للكتابة التاريخية. ولم يكن يواقيم مؤرخا، بل كان شارحا للكتاب المقدس. ومصلحا دينيا، ومبشرا. ومها يكن من أمر، فإن فكرته كانت ذات مغزى عميق لكل من عكف على التفكير في تقسيم الزمن إلى عصور تاريخية. إذ طور هذا الراهب الكالابري الرؤية المسيحية التقليدية التي سبق أن صورها العهد القديم وأثرت بدورها على العهد الجديد. كان ثمة تقسيمين لتاريخ الخلاص الانساني؛ وكان هذا هو منطلق يواقيم الذي انطلق منه ليتنبأ بعصر ثالث في التاريخ الديني، ويتضمن التقسيم الثاني في طياته عصرا ثالثاً. إذ كان العهد القديم يعرض تاريخ الاله الاب، والعهد الجديد يعرض عصر الاله الابن، وسيكون العصر الثالث هو عصر الروح القدس. وكان يواقيم يعتقد أن البشر يقفون على أعتاب هذا العصر الثالث؛ إذ

وتوصل إلى أن هناك تماثلا بين العصور؛ بل إنه سمح بالتطابق بينها. فقد كان العهد القديم متطابقا مع نظام الزوجية لأن شيوخ بنى إسرائيل تزوجوا بناء على خطة الرب في تعمير الأرض بالبشر. أما العهد الجديد. فكان مماثلا لنظام الاكليروس، وسيكون العصر الثالث هو عصر الرهبان. لقد مهد زهاد العهد القديم والقديس يوحنا المعمدان السبيل لقدوم العصر الثانى، كما أن القديس بندكت ... مؤسس الديرية

الغربية ـ قد مهد السبيل أمام الرهبان الذين سيشكلون ملامح العصر الثالث في عمر العالم. ذلك أن النظام الجديد يولد دائما من رحم النظام القديم. وسيكون رهبان العصر الثالث أكثر قدسية وروحانية من أسلافهم. وسوف يبدأ عصر الروح القدس بقدوم إلياس جديد، ثم يظهر اثنى عشر رجلا مقدسا يماثلون الحواريين الاثنى عشر الذين تحدث عنهم الانجيل. لقد غير يواقيم النظام التقليدي بأن جعل مجيء المسيح الدجال الأول ـ الذي سيجلب على المؤمنين الكوارث والمحن ـ قبل العصر الأخير من عمر العالم. وسوف يأتي المسيح الدجال الأول لتلحق به الهزيمة قبل بداية عصر الروح القدس. والعصر الثالث الذي سيحكم فيه الروح القدس سوف يستمر حتى مجيء المسيح الدجال الأثنى وقيام القيامة. وسيتم الدين في العصر الثالث، كما سيكون على رأس الكنيسة بابا ملائكي.

وفي أعقاب نبوءات يواقيم ظهرت حركات الرهبان المتسولين، وكان سان فرنسيس ورفاقه من الرهبان الفرنسيسكان مناسبين لصورة إلياس الجديد وقديسيه الاثنى عشر كما صورتهم هذه النبوءات. وسقط الامبراطور فريدريك الثانى في شباك دور المسيح الدجال الأول. وبما أن نبوءات يواقيم كانت على وشك التحقق، فلابد وأن فجر العصر الثالث كان على وشك البزوغ. وقد مضى تلاميذ يواقيم بنتائج توقعاته إلى مدى أبعد مما كان هو نفسه يحلم به، فقد شاعت الاعمال التى نسبت إليه زورا وتداولتها الايدى كما ظهر الاهتمام بها واضحا في «كتب الاشكال» التى توضح الخطوط العريضة للتاريخ وحركته المستقبلية كما يراها يواقيم على شكل اشجار ذات فروع ومعها تعليقات المرح ما تعنيه. وتعود بعض الاشكال إلى الايام الأولى اليواقيمية؛ بينما طور البعض أفكاره على نحو عجيب. وانتشرت اليواقيمية كما تسرى النار في الهشيم، وأدت أكثر أشكالها تطرفا إلى الهرطقة، ولكن إدانة البابوية لها لم تفلح في إخماد لهيبها، إذ أن تأثيرها على التنبؤ الديني ظل قائما حتى القرن السابع عشر.

كانت رؤية يواقيم للتغير التاريخى ـ والتى كانت متناقضة مع الرؤية التقليدية الموروثة عن سان أوغسطين وأوروسيوس ـ تتسم بالحركة والديناميكية أكثر منها بالثبات والجمود. فقد احتفظ يواقيم بفكرة أوغسطين وأوروسيوس القائلة بأن أحد العصور يؤدى إلى العصر التالى؛ إلا أنه فتح منظورا مستقبليا لعصر جديد أفضل جعله بين المجىء الأول والمجىء الثانى للمسيح الدجال، وما يخفيه قدوم المسيح الدجال الأول من متاعب يجب أن ينتهى قبل عصر الروح القدس في هذا العالم.

وقدم النموذج الجديد الذى اقترحه يواقيم فرصة للمؤرخين لكى يراجعوا آراءهم في الأطر والتقسيمات الزمنية. لقد تحداهم أن يبحثوا عن علامات التقدم بدلا من أن يظلوا قابعين في أبحال الماضى، حقيقة أن يواقيم قد قصر همه على التقدم الديني فقط،

ولكن التاريخ الدينى والتاريخ العلمانى كانا مرتبطين ببعضهما البعض. ولابد أنه كان من المكن أن نمسك بخيوط التفاؤل الموجودة في أعمال هوف السان فيكتورى وغيره من كتاب القرن الثانى عشر. إلا أن المؤرخين لم يستجيبوا لذلك التفاؤل. إذ أن قصة يواقيم وحوارييه ونبوءاته بدت لمؤلفى المدونات التاريخية على أنها موضوعات جديدة. فقد كتبوا عن النبوءات بدرجات متفاوتة من السذاجة وسرعة التصديق، والشك والارتياب. وعاش ساليمبينى في مرحلة يواقيمية، ثم زالت الغشاوة عن عينيه حين لم يقم فريدريك الثانى بما يجعله جديرا بدور المسيح الدجال؛ ذلك أن موت فريدريك سنة ١٢٥٠ لم يحدث سوى تغيير طفيف في شئون العالم. ولم يكن ساليمبينى يفكر في تخطيط حوليته وفقا للاطار الزمنى الذي وضعه يواقيم، وتقسيمه للزمن إلى عصور ثلاثة. ولم يحاول مؤلفو المدونات التاريخية في القرن الثالث عشر أن يجربوا التقسيم الزمنى الجديد لكى يقرروا ما إذا كان ملائما لمادتهم. وإذا كان أى منهم قد جربه وعارضه كاداة نافعة للمؤرخ، فإنه فعل ذلك في صمت.

والتناقض بين المؤرخين من جهة، واللاهوتيين والمتنبئين من جهة أخرى، أمر يصعب شرحه. فهل كان المؤرخون خائفين من الوقوع في شراك الهرطقة؟ لقد كان للخوف من الهرطقة تأثير طفيف على الفكر في الجامعات. فلماذا تميز كتاب المدونات التاريخية بالتوتر العصبي على نحو خاص؟ ربما كانوا يحجمون عن التفكير في مجرى التاريخ العلى خارج نطاق الادراك العام، وربما كان اهتمامهم بالأفكار غاية في الضالة. كما يحتمل أن صمتهم كان انعكاسا لصغر حجمهم الثقافي في مواجهة رجال المدارس. وأيا كان السبب، فإنهم تحاشوا اليواقيمية تاركين للآخرين عناء مناقشتها، أو دحضها وتفنيدها وبقا لما تقتضيه الحال.

وقد يحبذ المؤرخ الحديث هذا الموقف الذى اتخذه مؤرخو القرن الثالث عشر متجاهلين تلك الطنطنة الفارغة. ونحن نميل إلى اعتبار «القاريخ النبوءة» منزلقا خطرا، أو زقاقا مسدودا على أحسن الفروض. إلا أن اليواقيمية تحدت المؤرخين أن يعيدوا النظر في الأطر والتقسيمات الزمنية التقليدية. وعلى أية حال، فإن المؤرخين قد فضلوا التزام جانب الحذر بدلا من المشاركة، حقا أن القرن الثالث عشر كان يفتقر إلى المؤرخ المفكر.

خاتمة

ق وسعنا الآن أن نتدبر السؤال القائل: لماذا كان أى شخص يكتب التاريخ فى العصور الوسطى حين لم يكن ذلك يدر عليه مكسبا ماليا أو وظيفيا لقاء ما تجشمه من عناء؟ ويبدو أن المثل الهزلى الذى عرفه بلاط العصور الوسطى هو الأقرب شبها بالمؤرخ المحترف فى العصور الحديثة. إذ كان هذا المثل الهزلى يؤلف ويردد والأغنيات التى تدور حول الموضوعات، وكانت هذه هى وسيلته لكسب العيش. بيد أن «أغانيه» لا تدخل فى نطاق التدوين التاريخي الجاد. وسيكون من المفيد لكى نحصل على إجابة السؤال المطروح - أن نبدأ بالسؤال، لا عن سبب كتابة التاريخ، وإنما عن نشوء الحاجة إلى التاريخ.

لقد قال ايسيدور في كتابه عن اشتقاق الكلمات إن حفظ السجلات أمر «مفيد». وهذا حق، لأن الحكام، والهيئات الجماعية مثل مجالس المدن، والمؤسسات الدينية، كانت تحتاج إلى حفظ السجلات بقصد الرجوع إليها تدعيما لدعاواها القانونية. وقامت المدونات التاريخية بدور السجلات، وإلى جانب الرغبة في تسجيل الأحداث وجد عامل السرور بالماضي والفخر به. فإن أفراد أية عائلة أو مؤسسة يهتمون بالقصة التي تحكى عن أصولهم وعن أسلافهم. ولما كان المؤرخ ينتمى إلى عائلة أو أسقفية، أو دير أو مدينة أو شعب، فإنه كان يتوقع أن يجد جمهورا من القراء أو المستمعين الذين يهمهم ما يقوله أو ما يكتبه. ولأنه كان ينتمى بشخصه إلى أي من هذه الجماعات، فإنه كان يربط نفسه بموضوعه وبجمهوره على حد سواء. فقد كان شرفا له، وواجبا عليه، أن يلبي مطالب الجماعة التي هو عضو من أعضائها. وربما كانت الجماعة كبيرة في عددها أو صغيرة. إذ كان من المكن أن تضم بلدا بأسره، فقد كان وليم الصورى وفنسنت الكركاوى يكتبان تعبيران عن الدوافع الوطنية لكى يعلموا مواطنيهما. وفي حالة ما إذا كانت القصة التي يرويها المؤرخ قصة حزينة، كان باستطاعة المؤرخ أن ينفس عن مشاعر الحزن التي تجيش بنفوس أبناء شعبه. فكتاب «حياة هنري الرابع» عبارة عن ترنيمة جنائزية يرددها المؤلف المجهول حزنا على اضمحلال الامبراطورية، كما أن الجزء المجهول المؤلف من انشودة الحماسة الصليبية الألبيجنسية » ليس إلامرثية تندب خراب جنوب فرنسا.

كذلك كانت للتاريخ وظيفة ترفيهية، رغم أن كتاب ايسيدور لم ينص على هذا. إذ كان الصيد هو رياضة الملوك. كما كان سماع القصص هو تسليتهم في وقت

فراغهم، وقد تواجد المتلون الهزليون في جميع العصور. إذ أننا نسمع منذ القرن العاشر عن مؤرخي الصالونات الذين ظلوا موجودين حتى عصر وليم الصورى الذي قام بتسلية الملك أمالريك، ووليم الطليطلي الذي عاش في بلاط بلدوين. وكان بمقدور رجل الكنيسة أن يريح ضميره بالاشارة إلى قيمة التاريخ كمصدر للعظات والامثلة، إذ كان من مهام وظيفته أن يرشد العلمانيين ويوجههم، وكان التاريخ هو وسيلته السعيدة إلى غايته الطيبة.

والواقع أن التاريخ كان يمكنه أن ينبههم إلى المصاذير الأليمة. فقد كتب وليم البيلورنسى مدونته ليوضع كيف أدت خطايا شعبه إلى الكارثة التى حلت بهم. وثمة عنصر من الفضول المتوقد يدخل في إطار البحث عن المادة الاخبارية، كما يدخل هذا العنصر ـ ولكن بدرجة أقل ـ في الأبحاث العلمية التى تبحث في شئون الماضى

كان اختيار «التاريخ» دون «المدونة التاريخية» أمر يتطلب التفكير والعمل. فقد كان على المؤرخ أن يلاحظ أسلوبه، كما كان يتجنب الاطار الحولى، وترتيب الأحداث وفقا لتتابع السنين. وهو ما كان يعني أن يخطط لطريقة العرض بمزيد من العناية. ومع ذلك فقد تجشم مؤلفون عديدون عناء كتابة التاريخ. وكان الاختيار في حد ذاته يميز المؤرخ كمتخصم في الكلاسيكيات. ذلك أن الرغبة في التشبه بالقدماء كانت حافزا لبعض أفضل كتاب العصور الوسطى من القرن التاسع حتى القرن الشاني عشر. كان الولوع بالأدب هو الذي يميز الرجال المتحضرين عن الأراذل. وتبوأ التاريخ مكانة سامية بالمقاييس القديمة باعتباره فرعا من فروع الأدب. ومن الأفضل أن نستخدم مصطلح «التشبه بالقدماء» بدلا من «تقليد القدماء» في استعراضنا لموقف مؤرخ العصور الوسطى. فقد كانت القصة التي يرويها هذا المؤرخ جديرة بتلك الطريقة الروائية الرشيقة التي ميزت كتابات كل من يوليوس قيصر وسالست، ذلك أنه التجه لمعالجة موضوعه مستخدما ما استخدمه كلاهما من أساليب فنية. كما أنه صاغ مادته التاريخية باللغة التي كانا يستخدمانها.

كذلك كان عامل الدعاية من العوامل التى حكمت التدوين التاريخى في العصور الوسطى. ويبدو هذا العامل أشد ما يكون فظاظة وخشونة في التراجم: إذ كانت أية ترجمة ملكية عبارة عن مؤلف دعائى بكل معنى الكلمة. وربما كان كاتب الترجمة ينجز عمله بناء على طلب أو تلبية لأمر من أحد الملوك أو الأمراء، على نحو ما فعل المؤلف المجهول من سان أومير «لايما» أثناء حياتها، وربما كان يمتدح الحاكم بعد موته بناء على طلب أصدقائه أو ورثته. وبغض النظر عن المراثي التقليدية كان المؤرخ يؤكد على الجانب الذي يروقه في حياة الحاكم، سواء كان نبيلا علمانيا أو راهبا، أو واحدا من كبار القساوسة. والتواريخ، والمدونات، والمذكرات جميعها تحمل في طياتها دعاية من

نمط واضح أو ملموس على الأقل. وكلمة «دعاية» اليوم توجى بالغرض في التضليل. إلا أن معناها الأصلى ـ خلال فترة الاصلاح الدينى المضاد ـ كان يعنى الترويج للعقيدة. ونحن نستخدم الكلمة بهذا المعنى حين نصف مؤرخ العصور الوسطى بأنه كان «داعية». وغالبا ما كان الكتاب غرض دينى يشغل الحيز الأكبر من اهتمامهم، وهذا ما كانوا يقولونه. وكان المؤرخون الأكثر علمانية في تفكيرهم يهتمون من أجل عزيز عليهم، وهكذا كتب كافارو من أجل جنوا كما كتب فيلهاردوين من أجل رفاقه الصعيب. وتتداخل ظلال المثالية والمصلحة في كل منهما الأخرى. وإذا كان من الصعب دائما أن نفصل بينهما، فإن الفصل بينهما في مجال التدوين التاريخي أمر الرفاق. وكان للداعية حمالم يكن مأجورا ـ نصيبه الشخصي في الهيمنة على الرأى العام. وفي العصور الوسطى كانت مصلحة الداعية الشخصية تتلاشي في غمار شعوره بالانتماء للجماعة.

وثمة عقيدة راسخة كانت تغذى هذه الدوافع جميعا، فما حدث له نصيبه من الأهمية ومن ثم يجب أن يظل ماثلا في الأذهان، فبينما كان الواعظ يقول: «احتقر الدنيا ومتاعها الغرور» كان العالم – الذي غالبا ما كان هو الواعظ نفسه – يقول: «انقذهم من الغرق في بحر النسيان». وقد تصرف المؤرخون بوحى من المقولة الثانية.

أما تقدير منجزات المؤرخين، فهو أمر أكثر صعوبة من شرح دوافعهم إلى الكتابة. ويحذرنا هاسكينز C.H. Haskins سوه أحد كبار المتخصصين في العصور الوسطى من أنه «ليس من شأن المؤرخ أن يمنح الجوائز على العصرية». فمن المؤكد أنه ينبغى للحكم أن يكون ملما بقواعد اللعبة. ولا يجب أن نلوم كاتب المدونة لأنه لم يكتب التاريخ. كما أنه لا يجب أن نبحث في إحدى التراجم عن الحقائق والتواريخ التى نتوقع وجودها في المدونة. بيد أننا نستطيع أن نحاول قياس المسافة بين المستويات في العصور الوسطى والمستويات في العصور الصديثة. وليس ثمة مستويات مطلقة في التدوين التاريخي، ذلك أن المستويات في حالة تغير مستمر. وكل ما يمكننا هـو أن نستخدم منها ما يلائمنا في أيامنا هذه. ومن ناحية أخرى، لم يتغير المثال البحث، وغياب المؤرخ أن يخبرنا بالحقيقة. ولكن كيف يصل إليها؟ إن قلة وسائل البحث، وغياب الوعى، والايمان الأعمى بروايات شهود العيان، كانت من عوامل الاحباط الذي نال مؤرخ العصور الوسطى وهو يبحث عن الحقيقة. وفيما يتعلق بمسألة التحيز، فإننا نحاول اليوم أن نتحكم في تحيزاتنا وأهوائنا الشخصية من خلال إدراكها ومن خلال أمانتنا الدقيقة في استخدام الأدلة والبراهين. ومن هـذه الناحية فقط أحرزنـا من

المنجزات اكثر مما احرزه اسلافنا من مؤرخى العصور الوسطى. واتهامنا لهم بالتحيز والمحاباة أشبه ما يكون بقذف الأحجار بينما بيوتنا من زجاج. فليس بمقدور أحد أن يكتب التاريخ دون أن تكون له أفكاره عما يرد في كتابته، والأفكار تعنى مضمنا التحيز وكل ما يمكننا أن نسأل عنه هو ما إذا كان المؤلف يحاول أن يكون موضوعيا، كما أننا نستبعد العناصر الغيبية كوسائط في السببية، اللهم إلا بقدر ما يكون الاعتقاد في الغيبيات عاملا من عوامل صنع التاريخ. ولكن على المؤرخ أن يكتب عن العالم كما يعرفه، وهذا ما فعله مؤرخ العصور حين كتب عن العالم الذي كان يضم وسطاء من عالم ما وراء الطبيعة. ورغم هذا فإنه لم يكن يعتقد أن الناس مجرد دمي تحركها القوى الغيبية. ومن المكن أن نطرح السؤال القائل: إلى أي مدى يترك مؤرخ العصور الوسطى مهمة صنع التاريخ للاله والشيطان؟ وإلى أي مدى يضع في اعتباره الأسباب الانسانية والطبيعية؟

إن الطريقة المثلى لقياس الانجازات هي أن ننطلق من نقطة البداية، فما الذي كان مؤرخو العصور الوسطى يفيدونه من مصادرهم؟ لقد ورثوا قدرا هائلًا من القواعد، والنماذج والاصطلاحات، إذ خلف لهم الرومان خطوطا إرشادية _ رغم أنها تعرضت للالتواء .. ما زالت لازمة لكتابة التاريخ المعاصر. كذلك فإنهم تعلموا من التراث اليهودي _ المسيحي أن يحاولوا كتابة التاريخ العالمي. وهذا التراث يجعل من الانسان مركزا تدور حوله الدراما الكونية، التي هي تاريخ الخلاص: فقد بدأ الزمن بالتكوين وسوف ينتهى بيوم القيامة. ومن ثم كان على المؤرخين أن يتقبلوا «العالم»، وكل التاريخ المدون. ويبدو هذا أمرا غير معقول. بيد أن المناطق التي كان مطلوبا تغطيتها باعتبارها العالم كانت محدودة، كما كانت سجلاتها التاريخية محدودة أيضا. لقد كانت مهمة مؤرخ العصور الوسطى أسهل مما يفترض المرء، لأن ايسيدور علمه أن كتابة التاريخ السابق على عصره تعنى مجرد النسخ من المصادر الأسبق زمنا، أي مجرد التجميع. كذلك خلف أوروسيوس نموذجا قياسيا للتاريخ العالمي أو المدونة، رتبه حسب تقسيم الزمن على ستة عصور هي عمر العالم، وملكيات أربع تولت حكمه. وقد صيغت الرسالة التاريخية، والتراجم، والمراثى التي تخلفت عن التراث الروماني في إطار أرحب لتكون بمثابة البدائل المطروحة للتاريخ العالمي أو المدونة. أما ايوسيبيوس فإنه قدم نموذجا لتاريخ الكنيسة، كما قدم أوروسيوس تاريخا دنيويا من وجهة نظر المؤرخ الكنسى. إذ أن التاريخ الدنيوى كان يقدم الدليل الوحيد المتاح، شانه في ذلك شأن النماذج الكلاسيكية. وبذلت محاولات للحفاظ على انفصال النوعين (التاريخ الكنسي والتاريخ الدنيوي) ولكنها باءت بالفشل. فقد كان التاريخ الكنسي والتاريخ العلماني يتداخلان باطراد كلما زاد حجم الدور الذي تلعب البابوية في الشئون العلمانية، وكلما زاد احتكارها للتعليم. وكان المتعلمون من رجال الكنيسة يعرفون

تراثهم اللاتينى كما يعرفون كتابهم المقدس، وقد استخدموا كليهما بدرجات متفاوتة كمادة تدخل في سياق كتاباتهم في ميدان التدوين التاريخي.

وقد حمل التراث المختلط في طياته بعض المخاطر. فقد كان اعتماد كتاب العصور الوسطى على مصادرهم كبيرا للغاية. وإذا كانت الشخصيات القديمة والشخصيات الواردة في الكتاب المقدس تبرز في سياق القصة التي يكتبها مؤرخ العصور الوسطى الذي كان يوائمهم مع ما يكتبه، كما كان يكسوهم بملابس عصره، أو يجعل معاصريه يتحدثون بلغتهم. ومما يريح القارىء الحديث أن تختفى هذه الشخصيات من المشهد أو تقبع في الخلفية. كما أن مؤرخي العصور الوسطى تقبلوا تقسيم أو وسيوس للزمن كعقيدة ظلت جاثمة على صدر التدوين التاريخي بحيث كان من الصعب أن يتخلص منها. وفي بعض الأحيان كان التقسيم الزمني وفقا للملكيات الأربع حافزا على طرح بعض الاسئلة: إلا أنه غالبا ما كانت تطوى في غياهب التجاهل. ولم يستبدله أي مؤرخ بنظام زمني آخر. لقد اقترح يواقيم الفواري تقسيما جديدا للزمن، ورؤية جديدة للتاريخ، ولكن المؤرخين لم يكن يستهويهم.

أما أصحاب النزعة التأملية فقد اتجهوا مباشرة إلى المدارس الديرية أو الكاتدرائية أو الجامعات. ويقف أوبو الفريزي وحيدا كمؤرخ ـ باحث له أفكاره عن التاريخ التي اختبرها في ضوء خبرته العملية. وتبرز نزعة البعد عن الشك في التراث نفسها في موقف العصور الوسطى من التاريخ البربري، فالأساطير الشعبية وما اخترعه المتعلمون من حكايات عن أصول الشعوب، تناقلتها الأجيال كأمر مسلم به. وعادة ما كان كتاب العصور الوسطى يلجأون إلى تقليد هذه الأصول بدلا من نقدها رغم زيفها. بل إن تزييفات جديدة كانت تتولد عنها، إذ اشتهر وليم المالسبورى ووليم النيوبورجى بتشككهما في موضوع الروايات التي تدور حول التاريخ البريطاني الباكر. وتقوم الشهرة التي أحرزتها هذه الروايات المختلفة دليلا على مدى ما وصل إليه المستوى العام في السداجة وسرعة التصديق. وفي هذه الحالة، لم تكن المسألة مسالة قصور ذاتى _ كما كان الحال في تقبل تقسيم اوروسيوس للزمن _ بل كان الموقف تعبيرا عن مقولة «وانا ايضا». ذلك أنه كان لابد وأن يكون للشعوب والمدن المحترمة أسلاف من القدماء الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس. ومن الأفضيل أن يكون أولئك الأسلاف من شخصيات التاريخ القديم والكتاب المقدس معا. كذلك كانت للأديرة والأسقفيات قصصها الخرافية التي تتحدث عن تأسيس كل منها. لقد أدى التفاخر المحلى إلى دراسة التاريخ ولكنه ادى ايضا إلى انتحال التاريخ المزيف.

هذه ذرات صغيرة على سطح الملكة الابداعية الفوارة التي ميزت التدوين التاريخي

ف العصور الوسطى، فقد خلفت لنا هذه العصور تاريخ الصالونات، والتاريخ الديني بأنماطه المتعددة، والتاريخ المحلى، وتاريخ البلاط، والتاريخ الوعظى، وتاريخ حزب البلاد الحربي، والتاريخ الاستعماري، وتاريخ الحنين إلى الماضي، بل والتاريخ الفكرى. وقد ورثنا عن العصور الوسطى مجموعة متنوعة وثرية من الموضوعات التي تمتد من رسائل سالست التاريخية حتى «كتاب البابوات»، كتاب بولس الشماس عن «تاريخ ميتز». وقد أظهر المؤرخون قدرة وموهبة في تطويع الموضوعات القديمة بحيث تتلاءم مع الاستخدامات الجديدة. وكان كاتب سير القديسين يرى في نفسه استمرارا للأنجيل. وكان ثمة ما يمكن أن نعده ملاحق من نوع ما للعهد الجديد تمثلت في الترجمة التي كتبها ويبو للامبراطور كونسراد الثاني، وفي كتساب «أعمال الفرنجة» المجهول المؤلف. وثمة اختراق حقيقى تمثل في فن تصوير الشخصيات، فالصور الثابتة التي كان أوروسيوس قد رسمها بدأت تنبض بالحياة، فها هو ذا آدم البريميني يصف أحد كبار الاساقفة ويتتبع تطور شخصيته، وهو يتحول إلى مريض بجنون العظمة. كما أن جوسلين البركيلوندى يوضح كيف أن وظيفة سمسون، كمقدم للدير ـ قد نمت فيه شخصيته المتسلطة. ويشير وليم المالمسبوري إلى الرابطة التي تربط بين شخصية الملك ستيفن والأحداث التي شبهدها عصره. وعلى أية حال، فان ستيفن كان في الجانب الخاطىء من وجهة نظر وليم؛ بيد أن عيوبه هي التي حالت دونه وكسب الحرب الأهلية طالمًا كان وليم حيا يسبجل تاريخ هذه الحرب. أما وليم الصورى فيلاحظ كيف أثرت شخصيات ملوك بيت المقدس ف دفاعهم عن مملكتهم.

والمذكرات الشخصية هي النغمة الدالة على التدوين التاريخي في العصور الوسطى كما رأينا. وفي هذه العصور تأخذ المذكرات الشخصية شكل الترجمة الذاتية في أغلب الأحوال. وفي الفترة ما بين سنة ٨٠٠ وسنة ١٣٠٠ كان جويبرت النوجنتي أصيلا وغير نمطي، كما كان ابيلار وجيرالد الويلزي أكثر اقترابا من الترجمة الذاتية من غيرهما. وكان كاتب المذكرات يصف تجاربه كعضو في جماعة بدلا من أن يجعل من نفسه بؤرة تدور حولها الأحداث التي يرويها: أي أنه كان يلاحظ الأحداث ويشارك فيها، ولكنه لم يكن يضع نفسه في مقدمة روايته. ولدينا مذكرات خالصة مثل تقرير لويدبراند عن سفارته إلى القسطنطينية، وروايات جالبرت البروجي، وجيوفري الفيلهاردويني، وغالبا ما كانت المذكرات هي أفضل موضوعات التدوين التاريخي المتعددة. إذ كان الكاتب يهرب فيها من الاضطرار إلى التقليد، كما يجد فيها الحافز الذي يدفعه إلى كتابة مباشرة وجديدة.

ورغم هذا، فإن المذكرات ليست تاريخا. إذ ينبغى على المؤرخ أن يحاول الكشف عن الرابطة التي تجمع بين الأحداث التي يصفها، أي أنه يجب أن يسأل لماذا »؟ بقدر

سؤاله عن «ماذا»؟ أو «كيف»؟ إن أفضل ما يمكن للمرء أن يقوله عن مؤرخي العصور الوسطى أنهم استجابوا للصدمة. فقد كانت الأسئلة تطرح نفسها عليهم. فالصبراع حول التقليد العلماني، وظهور المدن، ونمو البيروقراطية، وحروب الحدود، والحملات الصليبية، وانتشار الهرطقة، كل هذا خلق المشكلات التي كانت تتطلب حلا لكل منها. لماذا فشل هنرى الرابع كامبراطور؟ ولماذا أخفق السكسون المحاربون من أجل حريتهم؟ لماذا حل الدمار والخراب في بروج؟ هل كان هناك ما يسوغ لهنرى الثاني أن يقيد الحريات الكنسية في سبيل اقرار النظام والقانون؟ لماذا كانت مقاومة السلاف الوثنيين والايرلنديين طويلة هكذا؟ لماذا تدهورت مملكة بيت المقدس؟ لماذا انتشرت الهرطقة في جنوب فرنسا؟ ولم تكن هذه الاسئلة تدور بخلد تالميذ أوروسيوس. لأنهم كانوا يرون في التاريخ مجرد قصة البؤس الانساني. فلماذا نرى في أية حقبة بعينها حقبة غير عادية؟ إلا أن المؤرخين كانوا يفكرون في الفترات المعينة التي كانت تهمهم، وإذا أخذوا يبحثون عن الأسباب الخاصة إذ إن الاجابات القديمة الجاهزة تقول إن الرب يعاقب الناس على ما ارتكبوه من خطايا، أو أن أساليب تستعصى على الفهم، أو أن ربة الحظ المتقلبة تدير عجلتها، أو أن الرفاهية المستحدثة تؤدى إلى عدم التمسك بالقيم الأخلاقية وتقود إلى الهزيمة. وقد بدأ لبعض المؤرخين أن هذه الأسباب غير كافية، لأنها لم تفسر الكثير من الأمور. واقترح الكتاب الأكثر عقلانية أسبابا معقولة وسديدة. فها هو ذا رالف الديسى يقرر أن من الأفضل أن ينحى بعض المسائل جانبا، وبذلك وجد لنفسه مهربا من خلال وضع معلوماته في إطار منفصل. ذلك أنه _ على الأقل _ كان بصيرا بمشكلته.

إن ادراك الدافع وراء الحدث التاريخي لا يزال يمثل واحدة من أكبر المشكلات التي تسبب الحيرة للمؤرخ. فمن الصعوبة أن نحلل دوافعنا الخاصة وحين نلتمس دوافع إحدى الشخصيات التاريخية لا نجد دليلا ما لم يكن صاحب هذه الشخصية، أو من يرتبطون به قد أوضحوا لنا هذه الدوافع، وهو ما يمكن أن يكون مجرد دعاية. وكل ما يمكننا قوله دون خشية أنه كانت هناك مصلحة للشخصية في اتخاذ مسار معين ـ وربما كان تصور الشخصية لمصالحها مختلفا تماما ـ بل انه ربما كان صاحب الشخصية قد فضل أن يفعل ما كان يعتقد أنه واجبه، وربما كان غبيا جدا. لقد خلبت مشكلة الدوافع الباب مؤرخي العصور الوسطى. إذ يوضح جيوبرت النوجنتي في تاريخه عن الحملة الصليبية الأولى مدى صعوبة تحديد الدوافع البشرية. وقد كانت تاريخه عن الحملة الصليبية الأولى مدى صعوبة تحديد الدوافع البشرية. وقد كانت المؤرخين، واندفع آخرون فيما خشي هو الاقدام عليه. ومرة أخرى، كانت الفطنة وسداد الرأي ملهما لهم فيما اقترحوه من دوافع. إذ كان من المعتاد أن يتناقض ما يقدمه الشخص على أنه السبب الذي حفزه على العمل على نحو ما، مع الهدف

المحقيقي الذي كان يسعى إليه. والمؤرخون ككل لم يرتكبوا زلة العيش في الأوهام، لقد كانوا ساخرين تماما الأنهم كانوا يفترضون الأسوا في كل الأمور.

والموضوعية التامة مستحيلة فى كل زمان. وكان أمام مؤرخى العصور الوسطى عائق غير عادى، إذ أن أفضل جهودهم انصرفت إلى كتابة التاريخ المعاصر أو القريب من المعاصر، وهو ما يجعل التحيز يأتى فى سياق الرواية التاريخية، بيد أننا نجد بالفعل محاولات شبجاعة للخروج من خضم الأحداث والتعرف على أكثر من وجهة نظر. فقد حاول كل من أدم البريمينى وهيلمولد فهم السلاف، كما عاد حنا السالسبورى إلى الماضى لكى يكون عادلا بالنسبة لكل من سان برنار وجلبرت دى لابوريه، كذلك نجح وليم البيلورنسى فى عرض وجهة نظر الجنوبيين عن الهرطقة، شارحا سبب انتشارها وسبب عدم مقاومتها دون أن يلتمس العذر للهراطقة. وإذا ما عدنا القهقرى إلى القرن التاسع، وجدنا والافريد سترابو ينتقد المؤرخ ثيجان لانحيازه إلى لويس لتقى. إلا أن دلائل الرغبة فى الموضوعية تتجلى فى غمار التدوين التاريخى الوسيط رغم هدف الدعائى المعتاد. حقيقة أن العصور الوسطى أنجبت دعاة أفذاذا، ولكن المدهش أنها أنجبت لنا المؤرخين أيضا.

واخيرا، فاننا نتوقع أن يعتمد المؤرخ على الدليل وأن يبين جهده. وفي العصر الحديث ابتكرت الملاحظات الهامشية، ولكن كان من الممكن اقتباس الدليل الوثائقي ونسخ المخطوطات في العصور السوسطى. وهذا ما فعله سسويتونيوس، وما جعله ايوسيبيوس جزءا من الأسلوب الفنى في كتابه تاريخ الكنيسة. وقد تداخل التاريخ العلماني مع التاريخ الكنسي وأثرى كل منهما الآخر. ولكن طغيان التراجم القديمة وسير القديسين الوسيطة تولد عنه الاتجاه نحو عدم استخدام الدليل الوثائقي في تراجم الحكام والقديسين رغم أنه عاد يتسرب اليها في القرن الثاني عشر. ومن ناحية أخرى فان الرسائل التاريخية، والتواريخ، والمدونات تضم قدرا متزايدا من نسبخ الرسائل والمواثيق والمعاهدات والقوانين. وفي بعض الأحيان كان للمؤرخين سبب دعائي يدعوهم لاثبات هذه الوثائق في كتبهم كما كان البعض يرون في الوثائق جزءا لا يتجزأ من القصة التي يروونها. لقد كانوا يضحون بالرشاقة الأدبية في سبيل واجبهم نحو توفير المعلومات.

وبوسعنا أن نرقب التطور الذى ألم بالتدوين التاريخي تدريجيا منذ العصبور الوسطى فصاعدا. إذا أن أسلافنا بدأوا بالبقايا الضئيلة والفتات الذي خلف المؤرخون القدماء. حقيقة أن العديد من المؤلفات التاريخية القديمة قد ضاع ولكننا نملك منها أكثر مما كان متاحا في العصور الوسطى. فقد استفاد مؤرخو العصور الوسطى إفادة كاملة من تراثهم كما وجدوه. وفي بعض الأحيان كان هذا التراث بمثابة

العكاز الذى يتوكأ عليه مؤرخو العصور الوسطى، الا أن أكثرهم إقداما وجسارة كانوا ينحون هذا العكاز جانبا ويسيرون على أقدامهم فقط. ويصدق هذا القول على المؤرخين العلمانيين، فقد تعين على أولئك أن يعتمدوا على انفسهم وأن يكونوا أصلاء في وقت كان فيه التعليم وقراءة الكتب وقفا على رجال الكنيسة.

وتاريخ أى فن أو أى علم لا يسجل تقدما مطردا. فثمة عثرات دائما، أيا كان المستوى الذى نتخذه لقياس التقدم. إذ كاد التدوين التاريخى أن يختفى خلال العقود السابقة واللاحقة على سنة ٩٠٠. كما أن التاريخ - بتمايزه عن المدونة التاريخية - تعثر مرة أخرى في القرن الثالث عشر. إذ أن مؤرخى القرن الثالث عشر لم يتفوقوا على مؤرخى القرن الثالث عشر اللاتين. ويمكن للمرء أن ينتقل بين صفحات يتفوقوا على مؤرخى القرن الثالث عشر منتشيا باعتبارها مصادر للمادة التاريخية، المدونات التاريخية في القرن الثالث عشر منتشيا باعتبارها مصادر للمادة التاريخية، إلا أن المرء يفتقد أى وعى أو إدراك للوظيفة الخاصة للتاريخ. ويتضامل أولئك المؤرخون عند مقارنتهم بوليم الملسبورى أو أوتو الفريزى أو وليم الصورى.

وبنهاية القرن تأتى وقفة للراحة. فالسنوات التى تلت سنة ١٣٠٠ شهدت تطورات جديدة فى كتابة التاريخ، كما شهدت مولد افكار جديدة عن الكيفية التى ينبغى أن يكتب بها. فقد استمر الرهبان والقساوسة يكتبون التواريخ والمدونات باللغة اللاتينية. كما كان الاكليروس العلمانى مشغولا على نحو خاص فى إنجلترا. ولكن القرن الرابع عشر يشتهر أكثر بمدوناته المكتوبة باللغات القومية. ويأتى المؤرخ العلمانى – جنديا كان أو موظفا مدنيا – فى المقدمة. لأنه يروى الأحداث التى شاهدها وشارك فيها، ولدينا من الأمثلة على ذلك، «حياة سان لويس» التى كتبها جوانفيل Joinville، ومدونة القائد الكتلانى رومان مونتان Proissart عن الحروب الانجلو – فرنسية، ومدونة فرويسار Proissart عن الحروب الانجلو – فرنسية، ومدونة الدينة نورمانية، ومدونة فرويسار التاريخ الامبراطوري.

وأعيد احياء التدوين التاريخي اللاتيني العلمى. إذ كان رجال المدارس يتجهون إلى دراسة التاريخ دون أن يفكر أحدهم أنه يحط من قدره كرجل أكاديمي. وقد كتب راهب أوكسفورد الدومينيكاني نيكولاس تريفيت بكل من اللاتينية والفرنسية على نطاق واسع. إذ أنه كان متعدد المعارف وكان التاريخ واحدا من اهتماماته العديدة، كذلك صار ليفي طرازا شائع التقليد كمؤلف. فقد كان تاريخه عن روما معروفا في الفترة الماضية، ولكنه لم يكن يلقى رواجا كبيرا، وفي ذلك الحين صار ليفي هو الكاتب المفضل لدى الصفوة. وفي أوكسفورد صار تريفيت رائدا على الطريق حين قام بدراسة ليفي عند القرن الرابع عشر. إذ كان البلاط البابوي في أهينون يسعى إلى اقتناء وقدراءة

تعليقاته على كتاب ليفي. لقد عكست هذه (الموضة) الاهتمام الجدى بالتاريخ القديم.

وقد تمت الانجازات التى حققها مؤرخو القرن الثانى عشر من خلال حبهم للدراسات الكلاسيكية اللاتينية كما رأينا. وكان للاحياء الذى شهده القرن السرابع عشر للدراسات الكلاسيكية نفس الأثر الطيب على المؤرخين، فقد قام فريق من علماء بادوا _ مسقط رأس ليفى _ باتخاذ هذا المؤرخ الرومانى قدوة لهم، ولم يقنعوا بمجرد تقليد أسلوبه الكلاسيكى. ذلك أن التغيرات المحيرة التى طرأت على التاريخ الايطالى منذ العصور القديمة حتى أيامهم قادتهم إلى التفكير في مشكلة تقسيم الزمن إلى عصور. وهذه المجموعة التى تعرف الآن باسم «ما قبل الانسانيين» البادويين تمرست في مواضيع جديدة ونظم زمانية جديدة، وربما كان البرتينو موساتو Albertino في مواضيع جديدة ونظم زمانية ومحلية مما فعل أوتو، إلا أن كلا منهما كان يشعر موضوعه بشكل أكثر علمانية ومحلية مما فعل أوتو، إلا أن كلا منهما كان يشعر بالحافز نفسه لوضع حقائق التاريخ غير المتسقة في نظام واضح سهل الفهم. وتعتبر أصالتهم حلقة وصل بين الراهب الألماني السسترشيني، ومواطن مدينة بادوا.

والأكثر حسما من هذه التجارب .. رغم جسارتها .. هو التغير الذي طرأ على موقف الناس من الماضي. والدارس للتدوين التاريخي في العصور الوسطى يتعود العيش في عالم فكرى يستطيع فيه أن يحاور أدم وحواء، أو يوليوس قيصر، أو شارلان كما لو كانوا من جيرانه. وبمجرد أن نعرف مؤرخنا، نعرف كيف كان يتخيل الماضى، لأن الماضي سيكون عنده شبيها بالحاضر. وفي القرن الرابع عشر انكسر الشعور بالاستمرارية ولم تعد المسألة مسألة الانحدار من عصر أفضل إلى عصر أسوأ. إذا كان الرجل المسن يمكن أن يحتفظ بمشاعره التي كان يحس بها وهو صبى حتى أيامه الأخيرة. أما الآن وفجأة، فقد بدا وكأن الرجل المسن قد فقد ذاكرته وأفاق ليجد نفسه في السجن أو مستشفى المجاذيب. كان بترارك يرى أن ثمة فجوة تفصل الثقافة القديمة عن الفروسية والمدرسية Scholasticism التي تميز بها عصره. وبدت له المؤسسات المعاصرة «مؤسسات بربرية». وقد أعلن اكتشافه بصوت العبقرى، إلا أن هذا الاكتشاف لم يكن سوى جزء من الجرد العام لما هو موجود من بضائع. وكانت الكنيسة في القرن الرابع تبدو _ بالنسبة للكاثوليك الطيبين والهراطقة على حد سواء .. أقرب إلى بابل من ذلك المجتمع الذي عاش فيه الحواريون. وف التاريخ الكنسى، كما في التاريخ العلماني، كان التناقض بين الماضي والحاضر يبدو كبيرا بحيث يمنع الاعتراف بأى تطور مستمر.

إن الانسانيين لم «يعيدوا اكتشاف الماضي». فذلك يعود إلى ما ورثته العصور الوسطى عن العالم القديم. فما فعلوه كان كشفا للماضي كماض. لقد كان التاريخ يرى

من منظور معين وليس كصورة أو لوحة مسطحة. ويبدو منظور الانسانيين خاطئا اليوم. إذ كانت أحكامهم على الماضى مشوشة. بيد أن محاولة اتخاذ منظور من أى نوع هى التى تخلق كل الفروق في العرض التاريخي، وفي هذا المعنى نقول إن التدوين التاريخي الحديث قد بدأ في القرن الرابع عشر.

لقد كان للرؤية الجديدة تأثيرها البطىء والجزئى على كتابة التاريخ. وكما يحدث غالبا، فإن أصحاب الأفكار الجديدة عن التاريخ لم يكتبوه، وتركت للمحافظين مهمة كتابة التاريخ وقد رأينا أن اللاهوتيين ورجال القانون الكنسى أظهروا ادراكا أكبر لامكانية التغيير نحو الأفضل مما أظهر المؤرخون. وهكذا كان الأمر في القرن الرابع عشر. وقد أبدى الانسانيون والاصلاحيون ادراكا أكبر بالفجوة بين الماضى والحاضر مع استثناءات قليلة. وسيشعر القارئ الذى فرغ لتوه من قراءة ودراسة مدونات القرن الثالث عشر بالألفة التامة حين يعكف على دراسة مدونات القرن الرابع عشر. ذلك أنه سيجد المناهج نفسها والرؤية نفسها للماضى. ورغم هذا، فإنه بحاجة إلى أن يرقب خطواته وأن يعد نفسه للتغير الذى سيطرأ في المناخ السائد. ولا يصح أن نحذف كتاب داروين عن «أصل الأنواع» من تاريخ الأفكار لأن معظم معاصرى داروين كانوا ما يزالون يؤمنون بأن الله خلق الانسان في الجنة. وحتى إذا كانت المفاهيم القديمة، وجويدة في التدوين التاريخي أواخر العصور الوسطى، فإن القارئ الحديث يعرف أنه كان للرواد المبدعين أراء أخرى في التاريخ. وأخذت المفاهيم القديمة تبدو كثيبة ومتهرئة. لقد استمرت هذه المفاهيم موجودة طوال ألف عام، وهي حقية طويلة في تاريخ الفكر.

قائمة ببلوجرافية

الفصل الأول حتى الرابع مراجع عامة وتمهيدية:

- R. G. Collingwood, The Idea of History (Oxford, 1946)
- B. Croce, Theory and History of Historiography, trans. D. Ainslie (London, 1921)
- H. Grundmann, 'Geschichtsschreibung im Mittelater' Deutsche Philologie im Aufriss, ed. W. Stammer, XXVI (1952-9), 1273-1335.
- B. M. Lacroix, 'The Nation of History in Early Medieval Historians *Medieval Studies*, X (Toronto, 1948), 219–23, and L'Historien au moyen age, Montreal and Paris 1971.
- A. Momigliano, 'Pagan and Christian Historiography in the Fourth Century A.D.', The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century, ed. A. Momigliano (Oxford, 1963), 79-99
- J. T. Shotwell, The History of History, i (New York, 1939), 255-377
- B. Smalley, 'Sallust in the Middle Ages', Classical Influences on European Culture, A.D. 500-1500, ed R.R. Bolgar (Cambridge, 1971)
- R. W. Southern, 'Aspects of the European Tradition of Historical Writing. 1. The Classical Tradition from Einhard to Geoffrey of Monmouth'; '2. Hugh of St. Victor and the Idea of Historical Development'; '3. History as Prophecy', Transactions of the Royal Historical Society, 5th series, XX-XXII (1970-72) To be completed by 'The Sense of the Past', forthcoming.
- J. W. Thompson and B. J. Holm, A History of Historical Writing 2 vol. (New York, 1942, reprint, 1967)

نصوص أصلية:

Latin Historians and Latin Biography, ed. T.A. Dorey (London, 1966, 1967). English Historical Documents, ed. D.C. Douglas, i-iii (from 1955), gives many excerpts from English and Anglo-Norman historians and chroniclers with introductions. The best known are translated in full in Bohn's Antiquarian Library

القصيل الخامس والقصيل السادس:

La Storiografie Altomedievale (Settimane di Studio del Centro Italiano di Studio sull' Alto Medioevo, XVII 2 vol., Spoleto, 1970) has papers in English, French, German, Italian and Spanish on early medieval

- historiography, up to the 11th century
- D. A. Bullough, 'Europae Pater: Charlemagne and his achievement the light of recent scholarship', English Historical Review, 1, XXXV (1970), 59-105.
- J. Leclercq, 'Monastic historiography from Leo IX to Callistus II'. Studia Monastica, XII (1970), 57-86,
- Christopher Brooke, The Twelfth Century Renaissance (London, 1969)
- R. W. Southern, Medieval Humanism and Other Studies (Oxford, 1970)
- C. Morris, The Discovery of the Individual 1050-1200 (London, 1972)
- V.H. Galbraith, Historical Research in Medieval England (London, 1951)
- H. Farmer, 'William of Malmesbury's Life and Works', Journal of Ecclesiastical History xiii (1962), 39-54

نصوص أصلية:

Einhard, The Life of Charlemagne, trans. L. Thorpe (London, 1970) Carolingian Chronicles: Royal Frankish Annals and Knithard's Ilistories, trans. B. W. Scholz and B. Rogers (Michigan, 1970)

Imperial Lives and Letters of the Eleventh Century, trans. T.E. Mommsen and K. F. Morrison (Records of Civilization, New York, 1962)

Helgaud de Fleury, Vie de Robert le Pieux, ed. and trans. (French) R.-II. Bautier and G. Labory (Sources d'historie médiévale, Paris, 1965)

Suger, Vie de Louis VI le Gros, ed. and trans. (French) II. Waquer (Classiques de l'histoire de France au Moyen âge, Paris, 1929)

Encomium Emmae Reginae, ed. and trans. Alistair Campbell (Camden 3rd series, IXXII, London, 1949)

The Works of Liudprand of Cremona, trans. F.A. Wright (London, 1930) Richer, Histoire de France 888-995, ed. and trans. (French) R. Latouche (Classiques de l'histoire de France au Moyen âge, Paris, 1930-67)

The Anglo-Saxon Chronicle, a revised translation, ed. D. Whitelock (London, 1961)

The Ecclesiastical History of Orderic Vitalis, ed. and trans. M. Chibnall (Oxford, 1969-72)

The Historia Novella of William of Malmesbury, ed. and trans. K.R. Potter (London, 1955)

القصل السابع:

A.D.von den Brincken, Studien zur lateinischen Weltchronistik bis in das Zeitalter Otto von Freisings (Düsseldorf, 1957)

نميوص أصلية:

Otto of Freising, The Two Cities, trans. C.C. Microw (Records of اللّميل الثامن:

D.M. Stenton, 'Roger of Howden and Benedict', English Historical Review,

IXVIII (1953), 574-82

A History of St Paul's Cathedral and the Men associated with it, ed. W.R. Matthews and W.M. Athins (London, 1957).

For Caffaro's Genoa, see below, chapter 9 (Boase)

نصوص أصلية:

The Murder of Charles the Good be Galbert of Bruges, trans. J.B. Ross (Records of Civilization, New York, 1960)

John of Salisbury's Memoirs of the Papal Court, ed. and trans. M. Chibnall (London, 1956)

القصل التاسع:

- A.P. Vlasto, The Entry of the Slavs into Christendom (Cambridge, 1970) T.S.R. Boase, Kingdoms and Strongholds of the Crusaders (London, 1971) gives a bibliography which is also useful for Caffaro's Genoa (see chapter 8)
- A.C. Krey, "William of Tyre', Speculum, XVI (1941), 149-66
- R.B.C. Huygens, 'Guilaume de Tyr étudiant. Un chapitre de son *Histoire retrouvé'*, *Latomus*, XXI (1962), 811-29
- B.M. Lacroix. 'Guillaume de Tyr. Unité et diversité dans la tradition latine', Etudes d'histoire littéraire et doctrinale, 4th series (Paris, 1968), 201-15
- C. Morris. 'Villehardouin and the Conquest of Constantinople', History, liii (1968), 24-34
- P. Belperron, La Croisade contre les Albigeois et l'union du Languedoc à la France (1209-1249) Paris, 1946)
- R.I. Moore, "The Origins of Medieval Heresy", History, lv (1970), 21-36

نصوص أصلية:

- Adam of Bremen, History of the Archbishops of Hamburg-Bremen, trans F.J. Tschan (Records of Civilization, New York, 1959)
- Helmold. The Chronicle of the Slavs, trans. F.J. Tschan (Records of Civilization, New York 1935)
- J.J. O'Meara and A.B. Scott are preparing a new edition and translation of Gerald of Wales, *De expugnatione Hiberniae*; Meanwhile on Gerald of Wales see the first version of his *Topographia*, trans. J.J. O'Meara (Dundalk, 1951)

Anonymous, Deeds of the Franks, ed. and trans. Rosalind Hill (London, 1962)

William of tyre, A History of deeds done beyond the sea, Trans.

E.A. Babcock and A.C. Krey (Roecords of Civilization, New York, 1943) Civilization, New York, 1928)

The Deeds of Frederick Barbarossa by Otto Freising and his Continuator

Rahewin, trans. C.C. Mierow (Records of Civilization, New York, 1953) Chronicles of the Crusades. Histoire de Saint Louis. La Conquête de Constantinople, trans. M.R.B. Shaw (London, 1967)

Pierre des Vaux de Cernai, Histoire Albigeoise, Trans. (French) P Guébin and H. Maisonneuve (Paris, 1951)

Chanson de la Croisade Albigeoise, trans. (French from Provencal) E. Martin-Chabot (Classiques de l'histoire de France au Moyen âge, Paris, 1931-61)

Chronique de Guillaume de Puy Laurens contenant l'histoire de l'expédition contre les Albigeois, trans. (French) C. Lagarde (Béziers, 1964)

القصل العاشر:

- R. Brentano. Two Churches: England and Italy in the Thirteenth Century (Princeton, 1968) 306-45, compares Matthew Paris and Salimbene as chroniclers and gives bibliography
- P. David, Les Sources de l'histoire de Pologne (Paris, 1934), 56-72, gives an account of Vincent of Cracow
- B.L. Ullman, 'A Project for a New Edition of Vincent of Beauvais', Speculum, viii (1933), 312-26
- N. G. Siraisi, 'The Expositio Problematum Aristotelis of Peter of Abano, Isis, lxi (1970), 321-39
- M. E. Reeves, The Influence of Prophecy in the Later Middle Ages (Oxford. 1970)

نصوص أصلية:

The Chronicle of Jocelin of Brakelond concerning the acts of Samson, ed. and trans H.E. Butler (London, 1949)

Matthew Paris's English History, trans. J.A. Giles (London, 1852-4)
Thomas of Eccleston and Jordan of Giano, trans. E. Gurney Salter (London, 1926)

Grandes chroniques de la France, ed. J. Viard (Paris. 1920-34)

الفصل الحادى عشر (الخاتمة)

B. Smalley, English Friars and Antiquity in the Early Fourteenth Century (Oxford, 1960), Chapter 12

Peter Burke, The Renaissance Sense of the Past (London, 1969)

D. R. Kelley, Foundations of Modern Historical Scholarship: Language, Law and History in the French Renaissance (New York and London, 1970)

نصوص أصلية:

For original texts see A Potthast, Bibliotheca historico medii aevi (Berlin 1895-6). A new edition of Potthast is in progress Repertorium fontium historiae medii aevi (Rome, 1962-70)

محتويات الكتاب

	صفحآ
	٣
قدمة الطبعة العربية الثانية	٥
قديم المترجم	٧
قدمة المؤلفة	11
لفصل الأول : ظروف الكتابة التاريخية في العصور الوسطى	١٣
لغصل الثاني : التراث الروماني	۲١
لغصل الثالث : التراث اليهودي ـ المسيحي	۳٥
لفصل الرابع : التراث البربري والعصور الوسطى الباكرة	00
لفصل الخامس: التراجم الملكية (٨٠٠ – ١١٥٠)	٦٧
لفصل السادس: التاريخ، المدونة، البحث التاريخي	۸٣
لغصل السابع : التاريخ العالمي	99
الفصل الثامن : تاريخ الخدمة المدنية	117
الفصل التاسع: الغزو والحروب الصليبية	177
الفصل العاشى: القرن الثالث عشر: نهاية المطاف	109
خاتمة	149

1946/6941		رقم الإيداع
ISBM	977	الترقيم الدولى

4/18/14

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)